أحمد القرملاوي

ورثة آل الشيخ

رواية

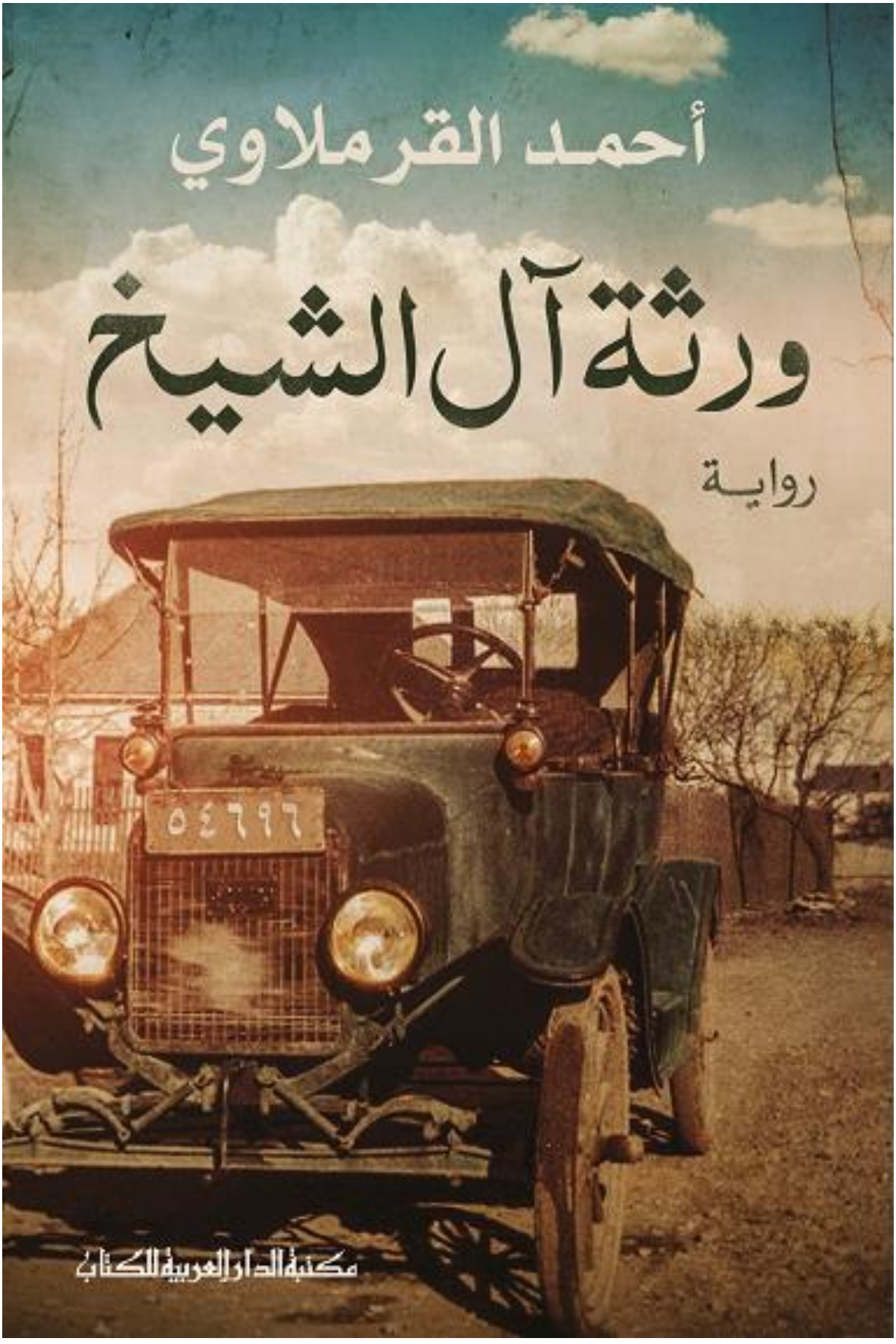

مكتبة الدار العربية للكتاب

ورثة آل الشيخ

رواية

أحمد القرملاوي

تحويل وتنسيق

د/ حازم مسعود

إهـداء

إلى أبي.. ابن الأسطورة
إلى أمي.. رفيقة الرؤى، وكنز الحكايات

يخلع قبعته الشُّرَطية المطوَّقة بالعرق، وسُترته ذات اللون الكاكي الداكن، ويجلس إلى طاولة مكتبه التي يعلوها سطح زجاجي مشروخ قائلًا: «لا مؤاخذة». أفهم أنه يُشير لجلوسه بالفانلة الداخلية ذات الحمالات، وأتوق لأن أفعل مثله، لولا خشيتي أن يفتح ذلك بابًا لحديث مُمِل حول الطقس السيئ والرطوبة المرتفعة. أكاد أقول: خُذ راحتك، لكني أنشغل بإمساكه مخطوطة روايتي، التي كانت بحوزتي حين أمسكوا بنا أنا وأبي..

أجده قد شرع يتصفَّحها، فأسأله: "كيف حال أبي؟"

يقول دون أن ينظر نحوي: «أبوك مُعزَّز مُكرَّم أربعة وعشرين قيراطًا.. لا تشغل بالك»، ويستمر يُقلِّب صفحات المخطوطة، حتى يقول: «أستغرِب كيف تُؤلفون هذه الروايات!»

أجيبه: «لا نؤلفها من العدم، بل نرويها». يرمقني في انتظار المزيد، فأُكمل قائلًا: «كأنها موجودة في الهواء الذي نتنفسه، ونقوم فقط باستنشاقها وتفريغها».

يميل للأمام مُشيرًا لمخطوطتي، يقول: «يعني تقصد أن حكاياتك هذه حقيقية؟»

أجيب: «مُعظمها حقيقي».

يتكئ ثانيةً على ظهر كرسيّه قائلًا: «يا رجل، قُل كلامًا غيره.. قرأتُ أكثر من نصف الرواية، وأستطيع تمييز الكثيرَ الخياليّ من القليل الحقيقي».

فأقول: «فعلًا تستطيع؟ أنا نفسي لم يعُد بإمكاني التمييز».

يعود ليفرَّ الأوراق البيضاء، يقول: «الليل طويل، لنتسلَّ بالمحاولة».أهزُّ كتفيّ علامة عدم الاكتراث، فيكمل: «هناك هذيان واضح وضوح الشمس في أكثر من موضع.. حكاية القرد على سبيل المثال».

أنطلق بثقة المنتصرين: «هذه الحكاية بالتحديد، حقيقية».

فيهتف ساخرًا: «طبعًا لن تقول غير ذلك، لن تعترف ببساطةٍ بخسارتك!»

أُطرِق قائلًا: «إنها الحكاية الوحيدة التي اتفق عليها مختلَف الرواة، جيلًا بعد جيل..»

يقول: «وهل لا يزالون ينتظرون ظهور الكنز؟»

أجيب: «نعم، يثقون في وجوده.. وأظنهم سيوافقونني أنه ظَهَر أخيرًا».

يُصدر كرسيه صريرًا حادًّا حين يميل قائلًا: «ظَهَر أين؟!»

أقول: «هناك.. خارج مكتبك».

١

كان أكبر أعمامي مَن أخبرنا بنبوءة القرد حارس الكنز، الذي سيخضع ذات يوم لابنٍ من أبناء العائلة يُدعى «محمد»، وذلك حين سألناه عن سر تسميته كما جميع إخوانه الذكور السبعة بنفس الاسم: «محمد»، ويبدو أن سؤالنا قد أعاد لوجدانه سحر الأساطير، فظل يُعيد علينا حكاية القرد كلما سألناه، مُضيفًا تفصيلة جديدة في كل مرة:

«كنز مدفون من أيام الشيخ، جدنا الكبير.. سبع زلعات من الفخار، مسدودة الأفواه بقشٍّ ذهبي، مملوءة حتى فمها بجنيهات الذهب.. يحرسها قرد أجرب منحول الشعر، حتى يكتشفها سابع المحمَّدات».

كنا أبناء العائلة الذكور، نبيتُ قديمًا في بيت الجد في البلدة البعيدة خلال إجازة الصيف؛ صِبيَة وفتيان من أعمار شتى، أكبرنا يُدعى محمد، يكون عادةً مَن يفتح الموضوع. «أتظنه أنت؟»، أسأله عن بطل الحكاية قاهر القرد، فيقول: «الله أعلم»، فيما يلمع في عينيه بريق الرغبة رغم الظلمة. وحتى لا يجنح الحديث بعيدًا عن الأسطورة، كنت أشرع في عدِّ ستة محمَّدات سبقوه في الميلاد، جاعِلًا منه محمد السابع، الموعود، في كل مرة.. يوليني ظهره مُحتضنًا بشارته، ويغطس سريعًا في النوم، بينما يتركني أنا لأشباح السقف المقشَّر، ولتلك الأسئلة التي تلدغني كما بعوض البلدة؛ أظل أفكر: كم جيلًا سيمضي حتى نكتشف الكنز؟ وكيف يكون حين يظهر؟ خبيئة ذهب؟ أم دفينة فرعونية؟ لم نشك يومًا في وجوده، بل نصَّب كلٌّ منَّا نفسه رسولًا يحمل الرسالة لمَن لم تصله بعد، أملًا في التعجيل بظهوره. وحتى حين كبرنا وصرنا نحمل براءات تصنيفنا بين العقلانيين، من حملة الشهادات الكبيرة، ظللنا نتوق لسماع الأسطورة من أفواه الآخرين، لا نُنكرها علنًا ولا نؤكدها إلا بابتسامة رضى تعكس يقيننا الذي لم يتحوَّل، حتى إذا ما اختلينا ببعضنا بعضًا ذات مساء، يُلقي أحدنا بذْرة الحكاية القديمة بأن يقول شيئًا من قبيل: «كانت أيام».، فيظل الباقون يروونها تباعًا حتى يبزغ الفجر، ثم نقوم عازمين على نقلها لأبنائنا الذكور، كلٌّ بطريقته؛ لا فرق بين طريقة وأخرى، طالما ستجري دماءٌ جديدة في جسد الأسطورة.

هكذا مضى بنا الحال، حتى عاد محمد، أكبر أبناء العمومة من جيل الأحفاد، وكان قد هاجر لأمريكا قبل نحو عشرين سنة، فطلب لقاءنا في بيت أبي، وكنا جميعًا في استقباله حين وصل بسيارة فارهة مؤجَّرة. كان حميميًّا رغم ابتعاده طوال هذه

المدة؛ يُشاكس أطفالًا لم يرَهم من قبل، يُقبّل رأس أمي- زوجة عمه- كأنما تركها بالأمس، يُعيد بأصابعه العارية قطعة لحمٍ وُضِعت عنوةً بداخل طبقه، يشير لأقرب فتاة كي تأتيه بشَربة ماء. مكث طويلًا يستحضر الذكريات، يجترُّ الطرائف القديمة، يسأل عن فلان وعلّان، مَن رحل، ومَن لا يزال يتشبَّث بالأيام؛ يُعلِّق قائلًا: «ياه.. الله يرحمه»، أو: «ربنا يمسّيها بالخير.. مَن عنده رقم تليفونها؟»، أو يُلقي برأسه للخلف ويقول بابتسامةٍ باشَّة: «كان رجلًا سُكَّرة.. ليجمعنا الله به». ثم فُتِحَت سيرة بيت الجد، بيت البلدة البعيدة، المهجور منذ سنوات لم نعُد نُحصيها، وبُرج الحمام الذي صار وكرًا للبومات والحيّات، فإذا بأبي يقول: «هناك مُشترٍ عارض شراء الأرض المقام عليها البيت، بكل مشتملاتها»، فانتبه ابن عمي من سَكرة التذكُّر وسأل بذهول: «فعلًا تُفكرون في بيع البيت؟»

وجم الجميع لبرهة، كأن شخصًا مهيبًا دخل علينا بغتة، أو كأن حضورًا غير مرئي قد مسَّنا جميعًا؛ حضور الجد الراحل ربما، أو بيت البلدة بأفاعيه ووطاويطه. سرعان ما عاد أبي يبث الدفء من جديد في أوصال الجلسة، بحسِّه المبحوح وبطريقته اللافتة في عرض القضايا.. قال لابن أخيه إن الحال تبدل تمامًا؛ لو عبَرنا بكَ الجسر مُغمض العينَين ونزعنا عنكَ العصابة عند مدخل البلدة، ستظن نفسك قد ضللتَ الطريق، لن تتعرَّف بيتًا واحدًا، لا شارعًا ولا مصطبة، كل البيوت تبدَّلت، نهضَت أعمدة الخرسانة عند حدود المصاطب، وامتدَّت ألسِنة الأسقف تلحس من الشارع لحسةً هنا ولحسة هناك، حتى تمدَّد الظل واختنق الهواء. أتذكُر الفُسحة المتاخمة لمنزل الشيخ محمود، حيث المصطبة الكبيرة؟ صارَت اليوم شارعًا ضيقًا يتلوّى بين البيوت، أبناء البلدة الذين تركتَهم أطفالًا يتغذّى الذباب من رحيق أعينهم، صاروا هم كبار البلدة.. لا كلمة لكبير تردعهم ولا مصلحة للناس تشغل بالهم. حديقة البيت صارت مرتعًا لدوابهم، أشجار المانجو هدفًا لنبالهم، تكسَّرت نوافذ، واقتُلِع موتور المياه.. لا فائدة يا بني، مالُكَ الذي لا تقعد عليه سيؤول لغيرك شئت أم أبيت، وغيرك هذا لا يرعى حقًّا ولا يحفظ خاطرًا.. لو لم نبعه، سيحتلّونه.

ساد الوجوم من جديد، وانقضَّت أفكار سوداء ترسم صورًا مُفزِعة، حتى قال ابن العم العائد من موطن هجرته: «يعني خلاص.. لن نكتشف الكنز؟»، قالها باعتيادية أدهشت الجمع، بحثتُ في وجهه عمَّا يُشير للمزاح؛ كان جادًّا تمامًا، بل يبدو عليه الأسف. تبسَّم البعض، وتعجَّب أحدنا لكونه لا يزال يذكر أسطورة الكنز، فقال: «ومَن ينساها، هل أرعبتنا وأرَّقتنا حكاية مثلها؟!»، أومأنا موافقين، حتى أبي،

تحمَّس لسؤال ابن أخيه عمَّا بلغه من حكاية القرد حارس الكنز، فقصَّ علينا رواية عمِّنا الأكبر كما سمعناها قديمًا. أخيرًا قال أبي: «الفاتحة لروح أجدادكم»، وانهمك كلٌّ منَّا يقرأ الآيات ويغمس وجهه في بركتها، ولم يعُد أبي لحديث بيع بيت البلدة بمثل هذه الجدية فيما بعد، كما لو أن أسطورة القرد التي استُعيدت في تلك الليلة، كنادرةٍ تُثير الضحك قدر ما تُثير الدهشة، كانت ما أقنع أبي بإعادة النظر في أمر البيع، وإن لم يعترف بهذا قط.

لا أحد يجزم بيقين كافٍ كيف نشأت الأسطورة، ولا يشغل بال أحد متى انزرعت في تربة حكاياتنا المتوارثة. الكل مهموم فقط بالنهاية؛ لمَن سيؤول الكنز آخر المطاف حين يُفرِج عنه القرد؟ الأهم: لأي فرعٍ من فروع العائلة الممتدة في كل اتجاه؟ كنت وحدي المهووس بأصل الحكاية، أتلمس منبتها في أفواه الكبار، أتساءل عمَّن أوجدها من العدم؛ قيل حُلم، وقيل رؤيا تُشارِف الغيب، وكانت أمي من أولئك المصدِّقين تمامًا بالرؤى والنبوءات؛ تُهامس بها خواص الناس، وتسير بهديها بيقين لا يتزعزع، حتى إنها احتفظت بي في رحِمها إكرامًا لرؤيا جدَّتي روحية؛ حماتها، وشريكتها الأخلص في عالم الأحلام.

«كان الإجهاض صيحة ذلك الزمان»، تحكي أمي، «الكل مهووس بتنظيم النسل، حملات التلفزيون لا تهدأ ليل نهار، وأقراص منع الحمل تُباع في الأكشاك، فقررنا أنا وأبوك أن نُخلِّف طفلين لا أكثر».

أنجبا بنتين بالفعل، واكتفيا بهما رغم تمنّيهما الولد، ثم فاجأهما حَمل ثالث بطريق الخطأ، فارتضيا ما كتب الله وأنجبا بنتًا ثالثة، لكن لم يمر العام حتى داهمهما حَمل رابع! هنا قررا إجهاض المولود كما كان مُتبعًا آنذاك. لا حاجة لأمي بطفلة جديدة تمتص القليل الباقي من صحَّتها. تآمرت أمي مع عمتي الطبيبة، تهامستا بعيدًا عن مسمع الجدة روحية، وأعدَّتا العدة للإجهاض.. ذهبت أمي للمبيت في بيت حماتها ليلة العملية، لكي تصحبها عمتي نهار اليوم التالي لعيادة طبيب النساء. في الصباح وجدتا الجدة روحية على الكنبة الأسيوطي في صدر الصالة، «صباح الخير يا ماما»، قالت عمتي ببشاشة تُخفي بها ارتباكها، فيما بلَّمَت أمي إزاء هيبة حماتها. «خلاص، نويتي تقطعي رزقك بإيدك؟»، قالت الجدة فيما تتفرَّس في وجه أمي، وشرعت تُغِير عليها بمنطق الإيمان أولًا: «حرام يا بنتي، دا رزق ربنا»، فدافعت أمي بمنطق العلم والحسابات: «حتى نربّيهم ونعلِّمهم أحسن علام»، ما اضطر جدتي لأن تستلَّ سلاح الرؤيا..

عاجلت أمي بخير اللهم اجعله خيرًا، وقصَّت عليها كيف رأتها في المنام تدخل عليها في الجزء الخلفي من بيت البلدة، حيث الفرن البلدي وأكنان الأرانب، تحمل ثلاث سمكات ذوات بريق مُفَضَّض وأشنبة طويلة مُشرعة، السمكة الواحدة في حجم رضيع في الشهر الثالث، فتخلَّصت جدتي من بقايا العجين وسوَّت حِجرها لتحُط السمكات، وكرَّرت: «أحمد الله»، ثلاث مرات. «السمك في المنام خير يا

ماما»، قالت أمي بابتسامة رضى، فصوَّبتها حماتها: «في الرؤيا يا بنتي، دي رؤيا صادقة. ستُنجبين الولد، وتُسمينه أحمد». مازحتها عمتي: «طيب ما نسمّيه محمد ليكتشف الكنز»، فقالت جدتي روحية بيقينها الثابت: «بل إنه هو الكنز».

هكذا احتفظوا بي، وأطعموا أمي الكثير من السمك حتى فُطِمْت، فصرتُ أُفضِّل السمك عن أي طعام آخر. لكنهم أخرجوني من سباق الكنز مبكرًا فلم أبلغ المضمار، وبقيت لي فقط متابعة المحمَّدات. أما أبي، فقد أسمَتهُ جدتي «محمد» كسائر إخوانه، وكانت قد رُزقَت بسبعة ذكور أسمتهم جميعًا اسمًا مُزدوجًا أوله «محمد»، فاحتلَّت بأبنائها رقعة غير هينة في مضمار التسابق على اكتشاف الكنز. رُزقت أيضًا بسبع بنات يضوين كالأقمار السبعة، فأتمَّت ذرية جدي أربعة عشر طفلًا تفصل بينهم الأعوام بتتالٍ دقيق.

هكذا أسَّس جدي محمد مع جدتي روحية دولة المحمَّدات، التي سيرأسها ويبسط بها هيمنته على البلدة البعيدة. لولا مرضه وموته المبكر، لكان قد زحف شمالًا وجنوبًا كما فعل جده الثامن والعشرون، إدريس الأكبر الفاتح، مؤسس دولة الأدارسة. لم أرَ جدي قط، فقد مات قبل مولدي بثماني سنوات، والحق أن ما بلغني من سيرته يُغنيني عن رؤيته، فقد كان جبارًا مهيبًا يخشاه الناس ويطلبون ودَّه؛ جميل الطلعة، رَبع القامة، متين البِنية، ذا عينَين زرقاوَين فيهما انحراف طفيف، وصوت ترتج له الجدران.. ما لي أنا وشخص بهذه الصفات، ما كنتُ لأحبه لو أنني التقيتُه، يكفيني أن رأيتُ بيت البلدة الدالّ عليه.

أما جدَّتي روحية، فكانت رحيق الأمومة في صورته البِكر؛ تُنجب الأبناء في غبشة الليل، وتنهض مع طلعة النهار كي تُقيم أوَدَ البيت. عرفتُها في آخر أيامها، وكانت قد سمِنَت لدرجة أقعدَتها عن الحركة، واستمرَّت رغم ذلك تُدير البيت من مجلسها في صدر الصالة، أو من فوق كرسي خفيض في قلب المطبخ، كقائد أوركسترا. بناتها يتناوبن عليها كل عدة دقائق، حتى المتزوجات منهن، والخدم يهرعن طوال الوقت وفق أوامرها. من مطبخها الصغير في ركن البيت، يصدُر الطعام في آنية ضخمة لا أول لها ولا آخر. يأكل كل مَن في البيت أيًّا كان عددهم، بل وتُعَد لفافات الطعام لتُرسَل لابنةٍ حامل هنا أو زوجة ابنٍ مريضةٍ هناك.

يتندَّر أعمامي بقوة أمهم حين مات أبوهم، يوم سقط جدي محمد فجأة إثر علَّة القلب؛ زلزلتهم صدمةُ موته، وانهارت عمَّاتي كأن سقفًا يحتمين تحته قد تداعى فوقهن. هنالك أوصدت جدتي غرفة الراحل، وثبَّتت أعواد البخور في الفجوات

الـمُحيطة بالباب، وصاحت فيهم جميعًا: «سيدخل الناس علينا ولا زلتم تدورون حول أنفسكم كالهوام! إياكم أن أسمع صراخًا أو أشوف بكاءً».. نزل الوعيد عليهم كما سهم الله؛ انكتمت الفتيات وذُهل الرجال، وسارع الخدم يرفعون السجاجيد ويغسلون البلاط المزخرف بالصابون والفَنيك، وأُشرِعت النوافذ تستدعي نسائم النهار الجديد. صار الطعام جاهزًا قبل توافد أهل البلدة البعيدة، ارتصَّ المعزّون فوق درجات سلم البيت، وفي مدخله خلف البوابة الحديدية الضخمة، وعلى امتداد الرصيف الملتفِّ حول الناصية حتى مكتب بريد الظاهر، يتناوب عليهم الخدم والأبناء بالطعام والشراب حتى أُقيم صوان العزاء، وما شهِد أحدٌ في عين الجدة روحية دمعةً واحدة.

ظل جدي لأبي يسعى بدأب لاقتناص الكنز؛ دأب تبدّى في إنجابه السبعة مُحمَّدات، كما في ضمِّه مساحاتٍ متفرقة من الأرض كلما سنحت فرصة، ثم في شراء سيارة ابن عمه الطبيب المرموق أحمد نشأت، اللينكولن الداكنة، وتعيين خميس سائق الجرار الزراعي سائقًا عليها، تمهيدًا لترشحه لمجلس النواب عن دائرة البلدة أمام أكابر الزمام. غير أن هذه الخطة الطموح لم تُصِب نجاحها المأمول في النهاية، ربما بسبب تأخر الكنز في الظهور، أو لعُجالة الموت في استدعاء جدي محمد.

«كان رجلًا مُنتِجًا»، هكذا يصفه أبي بثقة ممتلئة، وهكذا يروق له تصنيف الناس في العموم: مُنتِجون وغير مُنتِجين. كان جدي محمد من فصيلة المنتِجين المفضلة لأبي، مثله مثل جيله المثابر بين أبناء العائلة، الذي يضم أيضًا جدي لأمي حسين، ولدى أبي اعتقاد راسخ بأن الأجيال تتعاقب على هذا النحو: جيلٌ يُنتِج، وجيلٌ يحصد ما أنتجه سلفُه. «وهل حصدتم ما أنتجه جدي؟»، سألتُه ذات يوم، وكنتُ فتًى حدثًا في المدرسة الثانوية، فقال: «طبعًا. ليس المال فقط ولا الأرض، بل العِزوة وصَنعة الحياة».

لم أفهم مقصده آنذاك؛ كنت أستقبل الكلام الغامض بأُذُن وأطرده من الثانية، مع ذلك أثارت عبارته فضولي للتعرف على شجرة العائلة؛ أي غصونها أنتج وأثمر، وأيها بدَّد أوراقه أدراج الريح؟ فأخذتُ أثرثر في الأمر على مسمعٍ من أمي، فإذا بها تُحدِّثني عن شجرة العائلة التي كانت مُعلَّقةً في بيت أبيها. تساءلتُ يومها عن سبب احتفاظ جدي لأمي بشجرة عائلة أبي، فسخرتْ من اندهاشي وأخبرتني بقرابتها لأبي؛ أنهما ينحدران من فرعين متجاورين في شجرة نفس العائلة. أربكتني المعلومة، فليس ثمة تشابُه بين اسمَي أبي وأمي على الإطلاق، مع ذلك ساقتني نحو المكان الصحيح حيث سأجد مبتغاي: بيت خالي.

كان خالي يحتفظ بأوراق الأسرة منذ أخلى بيت أبوَيه، سألتُه عن شجرة العائلة التي كانت في البيت القديم، فقال: «نعم، موجودة». أحسستُ كأن سردابًا عميقًا قد فُتِح أمامي وأُضيء غَورُه. وبعد إلحاح مني تواعدنا على اللقاء نهاية الأسبوع، ليكون أمامه فسحة من الوقت يستردُّ خلالها شجرة العائلة من نقابة الأشراف. كانت أول مرة أسمع فيها اسم النقابة، وأن ثمة تصنيفًا يُطلق عليه «الأشراف». شرح لي خالي ما غمُض عليَّ يوم التقيتُه، وفيما كان يفض غلافًا ورقيًّا بُنِّي اللون عن برواز كبير الحجم، وُضِع فوق طاولة السفرة. «عقبال شهادتك يا حمادة»، قال فيما يحمل

البرواز ويُطالعه بافتتان؛ كان بداخله شهادة بيضاء مُحاطة بإطار أخضر منقوش، يتوسط أعلاه خاتم الرسول: محمد رسول الله، يليه عنوان أنيق: نقابة السادة الأشراف، ثم: شهادة نَسَب، ثم اسم خالي مكتوبًا بخط اليد بأناقة أخّاذة، وبعده أسماء تَلي أسماء في سلسلة تُفضي في النهاية لسيدنا محمد رسول الله! ثم ختم النقابة وتوقيع النقيب. قلَب خالي البرواز، فإذا بورقة بالية تلتصق بظهره بشريط لاصق من أركانها الأربعة، عليها شجرة مرسومة بحبر أسود، فروعها خطوط متعرجة، وأوراقها دوائر بيضاوية نُقِش بداخلها أسماء السلسال العجيب. لفتني من بينها: ضرغام، جِميعة، قَرشله، إدريس الأكبر الفاتح، علي الوفا، الحسن المثنى، الحسن السبط، عليّ ابن أبي طالب. «مَن هؤلاء؟!»، سألتُ خالي، فقال: «جدودك».

وقفتُ ذاهلًا أرمق الشهادة، عاجزًا عن الفهم، عيناي جاحظتان مفتوحتان عن آخرهما، شيءٌ ما أخذ يتبدل بداخلي، رغبة ما راحت تتحرك أسفل جلدي؛ لم أعُد الشخص نفسه، بل امتدادًا لهؤلاء المدوَّنين بحبر أسود، صدًى لصيحاتهم التي تردَّدت فوق جدران الزمن، نسيتُ ما كنت عليه قبل رؤية الشهادة، واستلبتني أوهام غامضة تخُطُّ اسمي فوق خريطة الزمن هذه؛ حياتي قبل فضِّ الغلاف لا تمتُّ بصِلة لما صارت عليه بعده، لا بد أن تختلف، وإن كنت لا أعرف كيف.. مَن يدري، ربما يُكتَشَف الكنز على يد أحمد عِوضًا عن محمد، أو أي احتمال آخر. لا قداسة لما تحدَّثتْ به الرؤى.. أنا مَن عليه أن يُحدِّث الغيب بما يريد.

عدتُ من زيارة خالي شخصًا جديدًا، تحوطه التساؤلات من كل جانب. جالستُ أبي، ساءلتُه عمَّا انكشف لي؛ لماذا لا يُفصِح بنَسَبه؟ لماذا يُعرِض عن استخراج شهادة باسمه من نقابة الأشراف؟ كيف انتظم في عِقد عائلتي أصحابُ الفتوحات جنبًا لجنبٍ مع أصحاب الديون والعاهات؟ تحدَّث أبي باقتضاب، كما يفعل دائمًا حين يستشعر انشغالي الزائد بأمرٍ ما، فانفردتُ بأمي بينما تضع لنا العَشاء، حدَّثتُها بما رأيتُه في بيت خالي، بدَت على علم بكل شيء، حتى بسَعيه لاستخراج شهادة الأشراف منذ أشهر، وبعدم ارتياح أبي لهذه الخطوة. كان أبي يتعامل مع حقيقة نَسَبه كسِرٍّ لا يحسُن إفشاؤه، ككرامةٍ خاصة ستتبدد حالما يكشفها للناس. كانت بعض نساء البلدة يشدُدن يدَه ليلثمنها حين يُصافحهن، فيجذبها بارتباك ويُتمتم باستغفار مكروب، وسرعان ما يزحف العبوس فوق جبهته. فهمتُ بدءًا من هذه الليلة سبب التبرُّك بيده «الشريفة»، فيما لم أفهم سبب إخفائه حقيقة نَسَبه، وضيقه بتلك التصرفات من بُسطاء العائلة، كما لو أن الأمر عبءٌ لا قِبَل له بحمله. إنها الليلة

التي شعرتُ فيها بإيشاكي على الإمساك بالقرد وانتزاع الكنز، أكثر من أي وقتٍ لاحق.

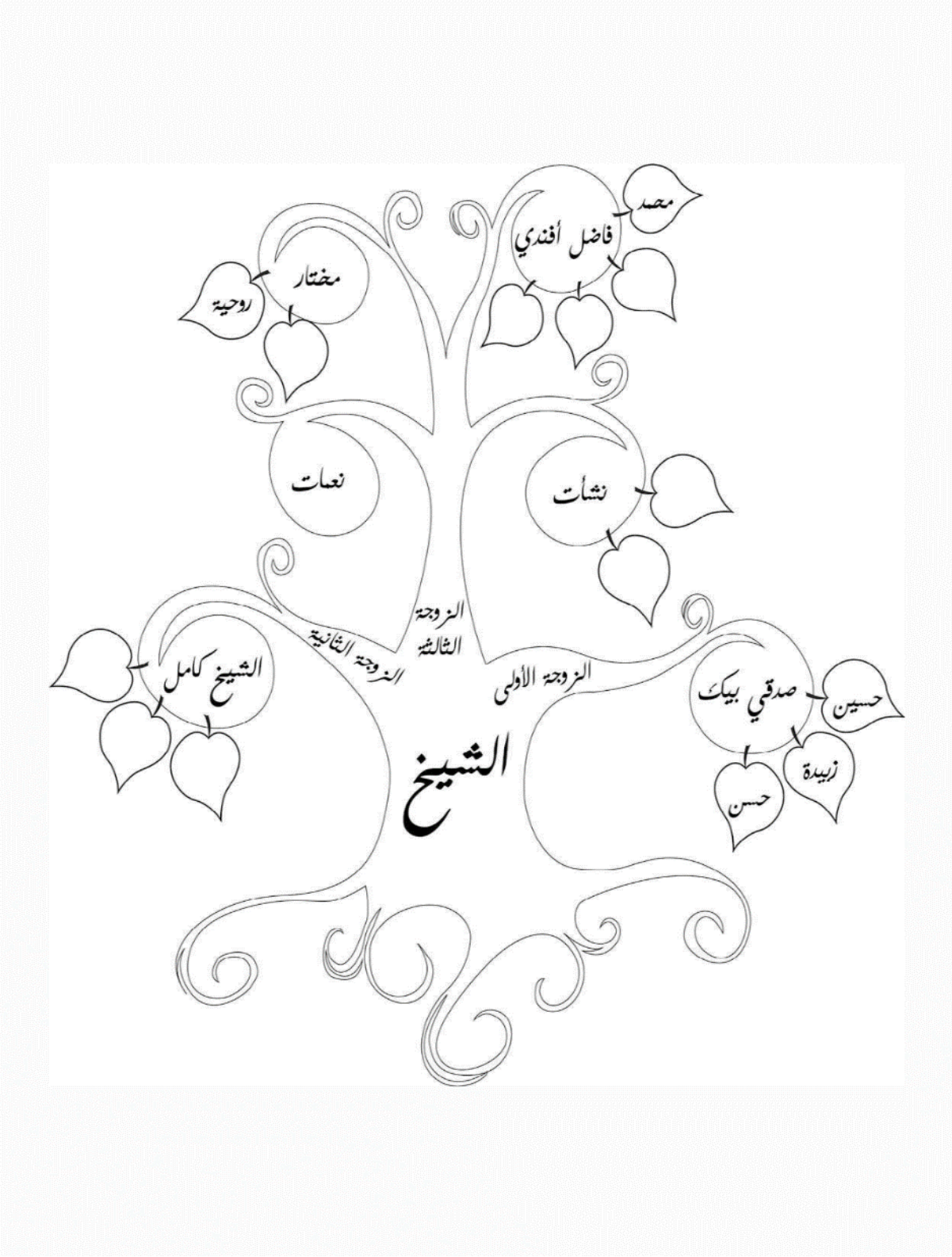

٤

دونما ضجيج، مات عمي الأكبر ناقل الأسطورة. قام قبل الفجر كعادته. زحف بقدميه الكليلتين داخل شبشب الوضوء، جرجرهما حتى حمَّام الغرفة، سند ببطنه البارز على رخامة الحوض، نظر لوجهه في المرآة؛ هذه نظرة مفارِقة، لا تنتمي كثيرًا لعالمنا، شيء فيها يُشارف المجهول. هبطت كتفاه. حاول فتح الحنفية؛ لا ماء يتدفَّق. ربما انقطعت المياه، أو تعطَّل الموتور عن رفعها للدور الرابع، أو تكون الكفُّ المهتزة والأصابع الناحلة قد عجزت عن فتح الحنفية. كل شيء جائز في هذا البرزخ بين الليل والنهار.

غامت عيناه. استدار مُنكفئًا بظهره على الحائط البارد، دافعًا رِجليه كي لا تخذلانه في وقفته الأخيرة. أحسَّت زوجة عمي بهدَّة ارتطامه بحائط الحمام، أقبلت تطمئن عليه: «مالك يا عادل؟»، غمغم برَهَق: «سنِّديني للسرير». هناك أرقدته، شدَّت اللحاف على جسمه الآخذ في الأفول. سألته: «أنت بردان؟»، فلم يُجِب، بل أصدر شخيرًا متقطِّعًا كأنه النوم.

ركعت المرأة ترمق صدره، تتسمَّع نفَسَه؛ كان قد شبِع تمامًا من هواء العالم، لا حاجة به لمزيد من ذرّاته. صكَّت صدرها وهرعت نحو الهاتف: «أبوك»، أبلغت ابنها الكبير، «ما له؟!»، «لا أعرف، تعالَ شُفه».

عرفنا الخبر تباعًا، وأخذنا نتوافد على بيت العم. هناك التقيتُ بالعديد من أبناء عمومتي، لم نعُد نتقابل بعيدًا عن الأفراح والمآتم، ما عاد بيت البلدة يجمعنا، بل صار ميراثًا مؤجَّلًا لا أكثر، واستبدلنا به مجموعةً على الواتساب نتبادل عبرها النِّكات والأخبار؛ فلان مات، فلان أنجب، فلانة مريضة، انكسرت رِجلها. وها هو الموت يستدعينا لكي نُجدِّد اللقاء. صرنا محتارين بين التبسُّم والمواساة، بين السؤال عن آخر المواليد والتساؤل عن إجراءات الدفن. دفْن! جزءٌ منَّا سيُواريه التراب. جيل الآباء يتأهَّب للذهاب؛ قريبًا سنصير نحن جيل الآباء.. يا للمهزلة!

كنت آخر شخص يدخل غرفة العم الأكبر. كان نائمًا فحسب، يرمق العالم من خلف جفنيه المطبقين في هدوء، كفَّاه مرتاحتان في وضع الصلاة كما اعتاد أن ينام، غير أن اللحاف مفرود ومُهندم فوق المعتاد. خشيت أن يُقلقه وجودي، فرنوت لوجهه قليلًا وهممت بالانصراف، لكن قميصي اشتبك من طرفه بحافة التسريحة، فوقفت أُخلِّصه وأتأكَّد من سلامته. هنالك لمحت الوجه المضيء، يُطالعني من تحت زجاج التسريحة؛ وجه جدي محمد الممتلئ عزًّا وثقة. وددت لو أنتزع صورة جدي من

تحت الزجاج، وأستأذن زوجة عمي في الاحتفاظ بها لبعض الوقت، لكن الظَّرف لم يكن ملائمًا بطبيعة الحال، فأرجأت طلبي حتى حين.

فعلتها ليلة الأربعين، حين تواعدنا على خَتم القرآن في بيت العم الراحل. ذهبت مبكرًا، والتقطت كُتيِّب الجزء التاسع والعشرين، حتى أُنجز قراءته سريعًا. ثم طلبت من ابن العم أن يُرشدني إلى المطبخ كي أصنع قهوة، ناولني الكنكة والملعقة الصغيرة، وأخذ يبحث عن السكر والبن. حدَّثته برغبتي في استعارة صورة جدي، فذهب لكي يأتيني بها. جاءني بألبومات كثيرة، أكثرها قديم قِدم التاريخ؛ لوحات متفرقة من الورق المقوَّى أسود اللون، ملصوق عليها صور متفاوتة الحجم بالأبيض والأسود، مساحات فارغة تهاوت منها الصور في زمنٍ ما، أطفال صاروا أعمامًا وعمَّات، وشباب صاروا أجدادًا وأمواتًا، وبطون منتفخة، حملت أطباء ومهندسين وفشلة وجُناة.. ثقوب زمنية سوداء من الورق المُقوَّى، تحوي قصصًا مصوَّرة، مشتَّتة، تحتاج لمَن يجمعها في سياق متماسك، لمَن يُحنِّطها فوق ورق أبيض يمنحها الخلود؛ ثمَّة رواية تكمن خلف الصور، تُخاتلني بوجهها الذي بلا ملامح.

جلستُ مع ابن عمي إلى طاولة المطبخ، ومضينا نُقلِّب في الصور. سألته: «خلَّصت الجزء الذي عليك؟»، قال: «لن أنام قبل إتمامه»، واستكمل التعرُّف إلى الوجوه واستدعاء الذكريات. تضاحكنا. ثم عُدنا إلى التهامس حين انتبهنا لارتفاع صوتَينا. قال إن بإمكاني أن آخذ ما شئت من الصور، ووعد بإخبار أمه غدًا أو بعد غد. وضعنا الصور في حقيبة بلاستيكية، أمسكت بصورة جدي كي لا تتوه بينها، تسللت خارجًا من البيت الحزين، ووقفت أنتظر المصعد؛ كان مأهولًا حين توقف في الدور الرابع، ومنه خرج أصغر أعمامي سابع المحمَّدات.. كان صورةً مُطابقة لجدي! أربكني التشابه، قلت: «مع السلامة يا عمي»، بدلًا من: كيف حالك، ثم صوَّبت مقولتي وابتسمت مُعتذرًا، لكنه تفهَّم ارتباكي، ربما فسَّره بشدة الحزن على فراق العم، فأخذ يربِّت كتفي فيما يحتضنني.

مررت بمنزل أبي قبل العودة لبيتي. كان بمفرده، هو الوحيد الذي اعتذر عن حضور المقرأة. كان شديد النفور من أي طقس جماعي، ولا يمارس شعيرة حتى يتحقق بنفسه من حقيقتها. واسيته بكلمات موجزة، فقال: «تعيش وتجامِل»، أُجامِل! هل قالها على سبيل الشكر أم التقريع؟ لم أسأله، وشرعت أناوله الصور وأستفسر عن الوجوه التي لم نعرف أصحابها على وجه اليقين. صار يذكر اسمًا، ثم يُصححه،

وبعد برهة طلب نظارة القراءة، وانهمك يرمق الصور ويُعلِّق عليها؛ ثمة فرصة للإيقاع به في فخ التذكُّر ما كنت لأُضيِّعها.

قلت: «أفكر في كتابة رواية تسرد تاريخ الأجداد، سأجمع المعلومات من عدة مصادر»، أكملت فيما أُلملِم الصور: «ساعِدني بما تعرف، كي لا أشرد بعيدًا عن الحقيقة».

قال: «ألن تتركك من الكتابة وتُركِّز في شغلك؟»، قلت: «تاني يا بابا! أنت أكثر واحد عارف إني لا أجد نفسي في غير الكتابة».

ابتلع غيظه وسكت، لكنْ حين زرته في اليوم التالي وفتحت أمامه دفتر التدوين، أخذ الكلام يسيل منه كماء الوضوء.

تناول أبي صورة جدي محمد، وضع نظارة القراءة، وعاد برأسه قليلًا إلى الوراء، كأنما ليترك مسافةً لائقة بينه وبين أبيه، زها قائلًا: «كان في وجاهة نجوم السينما»، وقلب الصورة تجاهي لأتحقق بنفسي، أومأت مُصدِّقًا وسألته: «مَن كان الأكثر وسامة، هو ولّا أبوه فاضل؟»، فقال أبي: «لم أرَ جدي فاضل، يُقال إنه كان في قمة الوسامة، لكن شتَّان.. بابا كان هيبة وطولًا بعرض، ولا يقدر أحد يبص في عينيه وهو يكلمه.. الله يرحم الجميع».

تلألأت عيناه بألق أخفى أثر المياه البيضاء، فانتهزت الفرصة لجرِّه للحديث: «طيب احكِ لي من الأول»، قال: «مِن أول ماذا؟»، فأوضحت: «مِن بداية السلسال؛ الجد البعيد الذي نحمل لقبه».

وضع صورة أبيه على الطاولة، وخلع نظارة القراءة: «جدنا الذي نحمل لقبه كان شيخ الأزهر وقت الحملة الفرنسية، كُتُب التاريخ تذكره بالاسم، هو مَن واجَه الفرنساوية من على المنبر، وكان يُلهِب حماس الناس للمقاومة، فأمر نابليون باعتقاله وتغريمه لآخر دينار يحتكم عليه، بيعت أملاكه وحُليُّ زوجاته لكي يُفكَّ أسره. لكنه استعاد ثروته مُضاعفةً بعد جلاء الفرنسيين، فقد عزَل خورشيد باشا وأقرَّ الوالي الجديد محمد علي سلطانًا على البلاد، فتفضَّل عليه السلطان بالمال والأطيان، لحد ما بقى في زمرة الأعيان بالغي الثراء».

قلت لأبي: «حاجة تشرّف، لكنْ ليست ما أبحث عنه؛ أريد ما لا تذكره كُتُب التاريخ»، فقال: «يبقى نبدأ من عند جدنا الشيخ، أبو جدي فاضل الله يرحمه، وأيضًا أبو المرحوم صدقي بيك الحكمدار، جد أمك.. هو مَن بنى بيت الخرُنفِش الذي وُلِدنا فيه».

سكت برهة ليلتقط نفَسه، ثم أكمل يقول: «جدنا الشيخ كان رجلًا مبروكًا.. هو مَن أخبر برؤيا القرد حارس الكنز، قبل موته بأيام».

***

في البيت الكائن في شارع الخرُنفِش بحي الجمالية، وُلِد أبي. إنه البيت الذي بناه جدنا الشيخ سليل الأشراف، صادق الرؤيا، مع بداية عصر الخديوية، حتى تستقلَّ كلُّ زوجة من زوجاته الثلاث في جناح من أجنحته، فقد كان للبيت ثلاثة أضلاع متصلة كأنها حدوة حصان، يطل أكثر شبابيكها على حوش داخلي مكشوف للسماء، تتوسطه فسقية معطَّلة، وتقبع في ركنه بئر مالحة. أما شبابيك غرف الاستقبال

الثلاث، فكانت تطل دون غيرها على البيوت المجاورة؛ شبابيك مرتفعة فوق المعتاد، إليها يجرجر الأطفال مقاعد الحمّام الخشبية الواطئة، ويتسلَّون بالتلصص على الجيران.

من بينها شباك يتصدر جناح صغرى زوجات الشيخ التركية الأصل، المسماة بالست أم فاضل، حيث يطل شباكها على الأرض الفضاء المتاخمة للبيت، والتي تفصله عن دار كسوة الكعبة الذي تُصنَع فيه الكسوة الشريفة بأناةٍ وصبر طوال العام، حتى تنتقل في موسم الحجيج مع قافلةٍ من الجِمال يؤمُّها هودَج، يُقال إنه يعود لزمن السلطانة شجرة الدرّ، ويتقدمها ضباط الجيش وممثلو السادة الأشراف. تُسحَب الجِمال تباعًا لهذه الأرض الفضاء المتاخمة لبيت الخرُنفِش، لكي تُحمَّل بالصناديق الموشّاة بالأرابيسك، تلك التي تحوي كسوة الكعبة المعطرة بالبخور، فتقف زوجات الشيخ الثلاث في شباك غرفة استقبال الست أم فاضل، حتى يشهدن المحمل الجليل والرايات الخضراء والبيضاء المرفرفة من ورائه، على خلفية من أهازيج الصوفية وتلبية الحجيج. تمتلئ النسوة زهوًا إذ يُتابعن زوجهن الشيخ وأبناءهن الذكور، صدقي وكامل وفاضل، فيما يستبِقون رجال الحي وشبابه لحمل الصناديق فوق ظهور الجِمال المكسوة بأكلِمة ثقيلة ومنقوشة، تتدلَّى منها شُرَّابات ملونة. فإذا ما صارت القافلة على أُهبة الرحيل، وقف الشيخ بين أبنائه الثلاثة على رأس المودِّعين، فتنطلق الجِمال مع دويّ مدافع القلعة لتجوب شوارع القاهرة، قبل أن تتخذ طريقها صوب الحجاز.

«اسم النبي حارسه كامل»، «اسم النبي صاينه صدقي»، تجامل أولى الزوجات الثانية، وكذا تفعل الثانية مع الأولى، فيما تذرع الست أم فاضل المسافة بين شباك غرفة معيشتها ونملية المطبخ أو سندرته المرتفعة، لتأتي بالمكسرات وأوعية الترمس وحَبّ العزيز حتى تُضيِّف ضرَّتيها، تسمعهما فيما تتبادلان كلمات الإطراء عن ولدَيهما، فتدرك كم تحسد المرأتان ابنها الجميل فاضل، جد أبي، أصغر الأبناء آنذاك وأجملهم على الإطلاق.

كان فاضل ذا جسد هزيل، خاصة حين يُشاهَد بجوار أخيه الأكبر صدقي ضابط الشرطة، أو الأوسط كامل وريث المشيخة. يطلب العون من أخوَيه ليتمكن من رفع صندوق الكسوة فوق كتفه، وبصعوبةٍ يُناول أباه ليضعه فوق ظهر البعير. صندوق أول، فثانٍ، ثم سرعان ما يذوب فاضل وسط الحجيج خلف الرايات البِيض والخُضر. كان يتنكر لأي مجهود، ويسرح كثيرًا خلف الصبِّيتة والمنشدين، ينال

العقوبة تلو الأخرى من أبيه الشيخ، ثم يُعاود الاختفاء كلما سمع بمطرب جديد أو صبِّيت شديد الصوت. هال الشيخ الأزهري أن ينشأ أصغر أبنائه مُحبًّا للمَغنى ورخاوة العيش، جرَّب حبسه عدة مرات، وأصرَّ على تحفيظه كتاب الله رغم تجاوزه سنَّ الحفظ، لكن الفتى استمر يُقاوم بصبر، وابتسامة عذبة لم تُزايل يومًا وجهه المليح.

ألحقه أبوه الشيخ بوظيفة في نظارة المعارف حديثة النشأة، فصار أفنديًّا وسيمًا مُهندمًا يتحرَّج الذباب أن يحطَّ فوق سُترته. وكان أيضًا ذا مكانة عند إخوانه الأشقاء وغير الأشقاء، خصوصًا أخواته البنات، فقد كان حنونًا لبِقًا يغرِف الكلمات الحِسان ويفرقها عليهن بالتساوي، ويدفس أعشار القروش في أكف أبنائهن وبناتهن بلا مناسبة، والمليمات في المواسم والأعياد، فكُن يُحببنه أكثر من إخوانهن الأشقاء ويهششن لزياراته التي لا تنقطع. أما أخواه غير الأشقاء صدقي وكامل، فقد كانا يكبرانه في السن والمقام، وبقيا يحفظان له الودَّ في العموم، برغم ما تُخبر به سيرتهم عن منافسة غير مُعلنة أشعلت جذوتها زوجات الشيخ الثلاث.

وعلى الرغم من اكتفائه بزوجة وحيدة، هي هنّومة أجمل النساء في زمانها، ظل فاضل يُغالِب العيش باستمرار، فقد كان شديد الإسراف، يُنفِق على بيته وبيوت أخواته كأنه يغرف من بئر، ويُسرف في تدليل نفسه فلا يحرمها من متعة أثيرة ولا نزوة عابرة، يرتاد المسارح كلما أُعلِن عن عرض جديد لسلامة حجازي أو يعقوب صنّوع، ولا يزهد أبدًا في جلسات السمر والطعام والشراب، حتى ينام آخر الليل مثقلًا باللذة.

حتى الخِلفة أسرف فيها، فأنجب تسع بنات تباعًا سعيًا وراء الولد، حتى رُزِق بجدي محمد، الذي تأخر حتى البطن العاشر. فرح به أيما فرح، وصار يقتصد في السهر لا بفعل تراكُم الديون، بل بسبب وفاة أبيه الشيخ قبل شهور، وأيضًا لفرحته بمحمد الصغير، زينة حياته وحياة هنّومة. كان يجلس في جلباب البيت الحريريّ، ويحط محمد فوق حِجره، يتأمل بياض بشرته المشوب بالحُمرة، وأظافره الطرية الوردية، وعينيه الناعستين الزرقاوين، ويحمد الله أن وهبه الولد بعد طول صبر.

استفحلت ديونه منذ اندلاع الحرب العظمى، ولم يكن قد مرَّ عام على مولد محمد، فقد تبدَّل العالم دون مقدِّمات، وانتفض الإنجليز من حيث لا يعلم أحد يعزلون «خديوِ» ويدفعون بآخر، ويرشق مندوبهم السامي إصبعه في أنوف الجميع دون اعتراض، ثم حلَّ النقد الورقي مكان العملات المعدنية، وتغوَّلت الأسعار وراحت

تقصف هامات الناس، خاصة موظفي النِّظارات من أشباه الأفندي فاضل، فاضطر غير مرةٍ لبيع قراريط من ميراثه، وصار يطلب العون على استحياءٍ من أخيه صدقي بيك، فيمنحه مرة ويمنعه مرات. أما أشقاؤه الأصغر سنًّا، فكان هو مَن يدخل عليهم بزياراتٍ من الأرز والسمن والرقاق الناشف، حتى غادروا بعد سنوات بيت الخرُنفِش، واستمرَّ فاضل برفقة أمه وأسرته، يُكابد الشقاء وحده بين جدران البيت.

ترِدُ أبي مكالمة جديدة. مُشترٍ جديد. شروط جديدة ووعد بعمولة مُجزية حال تمت البيعة. سافر أكبر أبناء العمومة المهاجر لأمريكا قبل شهور، لكنه يبقى طرفًا أساسيًّا في قرار البيع، لحاجةٍ في نفس أبي. «لماذا هو بالذات؟»، أسأله، «عمي موجود ونقدر نرجع له»، لكنه يتمسك بموقفه: «اطلبوا لي ابن عمكم».. ألفِتُ انتباهه: «فارق التوقيت بيننا وبينه عشر ساعات.. الأحسن ننتظر حتى المساء». يعوزه الرد، لكنْ قطعًا لا يُعجِبه الكلام، يريد أن يُهاتف ابن أخيه الآن، في التو واللحظة، هو المؤيد الوحيد لفكرة الإبقاء على البيت. أتُراه يبحث عمَّن يحوِّله عن فكرة البيع؟

تميل أمي نحو البيع بأي ثمن. من غير المعتاد أن تتنازل بسهولة عن أملاكها؛ تتشبث بها كأنها أولادها، ننتزعها من بين أضراسها حين نصل لاتفاق نهائي. بيت البلدة هو استثناؤها الوحيد، ترغب في بيعه في أسرع وقت. نصيبنا في البيت والأرض المحيطة به لا يتعدّى الخُمس، ومهما وُفِّقنا في البيعة فلن يدخل جيوبنا ثمن يُذكر. أتعجَّب من سعيها للخلاص منه بهذا الحماس. أتريد أن تقطع علينا طريق البلدة بغير رجعة؟ ربما، فأمي تأنف أجواء البلدة بعدد لسعات الناموس التي ألهبت جلدها الحساس، بحجم تأففها من مرأى المرحاض البلدي، الذي استبدلنا به مرحاضًا إفرنجيًّا منذ سنوات لم نعُد نحصيها، لكنها لا تفتأ تتذكره، وبعدد شجارات أبي مع مُستأجري الأرض وصفقاته الخسرانة مع مُستغِليه.. جميعها مُرادفات لكلمة «بلدة» في قاموس أمي، وبسببها انقطعنا عن الذهاب منذ سنوات.

صرنا لا نحضر العشر الأواخر من رمضان هناك، حيث الليالي الباردة، وقوالح الذرة الجافة المشتعلة في القصعة المسودَّة، وتلك الأكواز الطازجة المشوية، والبطاطين الخشنة، والضحكات المتطايرة مع شرر النار، ونعيق البوم الذي يُحاول إسكاتنا طوال الليل دون فائدة، وماء الطرمبة قبل الإمساك عن الطعام والشراب، وصلاة الفجر جماعة قبل العودة إلى البيت، مع مُضيّ الفلاحين ببهائمهم صوب الغيطان. توقفنا حتى عن الذهاب في الأعياد، لا نذهب بأولادنا الصغار كي يركبوا الحمير، كي يشمّوا رائحة الغيطان ويعطسوا من أثر اللّقاح، كي يتعرفوا الماعز والإوز والدجاجات غير المجمدة، التي تركض بلا سبب وتتلفَّت كأنها في طَلعة استكشاف. صرنا لا نذبح هناك، بل في مزرعة للمواشي يملكها أقارب أمي، فلا ينالنا من الذبيحة إلا كيلوات اللحم النظيف المرصوص بأناقة في أطباق الفلّين، والمغلَّف بلاصق شفاف مقطوع الصلة تمامًا مع رائحة الذبح، ثم صرنا نشتري

صكوك الأضحية؛ يمرُّ علينا مندوب يتسلم المال، ويُعطينا إيصالًا بقيمة الصك؛ إيصالًا ورقيًّا له رائحة الورق والأحبار الرخيصة.

كنت أنزعج قديمًا من مشهد الذبح؛ تُرى هل أفتقده اليوم؟ رائحة الروث، خوار العجول، ثغاء الأغنام، كفّاي اللزجتان بالدهون فيما أُعبئ الأكياس، دعاء البسطاء، مرور الفلاحين من أمام البيت، قول أحدهم: «العجل الأحمر هلَك الرجال، أريد منابي من العجل الأحمر»، هَشُّ الكلاب كلما تُدنيها رائحة الذبح.. لعبتي المفضلة؛ حين أُدير ظهري لعمَّتي عفاف وأواجه الفراغ، أراقب طيور أبي قردان التي ترتص فوق فرع شجرة صفصاف، تُتابعنا من بعيد. تُمسك عمتي خلف ظهري أول كيس: «مناب مَن؟»، تسألني، فأُجيب بأول اسمٍ يخطر ببالي: مناب عمي فلان، تضعه جانبًا وترفع كيسًا آخر، وتعود: «مناب مَن؟»، فأقول اسمًا آخر، وهكذا حتى نفرغ من التوزيع، الكل راضٍ، غني أو فقير، والبطون خاوية، تتقلص شوقًا في انتظار الحلويات: قِطع الكبد والكلاوي والقلوب العائمة في صلصة حريفة؛ فطور أول أيام العيد الكبير، الذي لا يتكرر في أي يوم آخر.

لم نعُد مضطرين للجدال قبل كل عيد: مَن سيُسافر البلدة، مَن سيبقى، مَن يتحمل البعوض أكثر، مَن لا يُفزِعه مشهد الذبح، مَن يستسيغ ماء «الطرمبة»، مَن يُراقب الجزار كي لا يدُس قطع اللحم المميزة تحت جلبابه المخلوع، مَن يصبر على إلحاح الفلاحين. ليس لدينا إجازة غيرها، وامتحانات الأولاد على الأبواب، لا بد لهم من تغيير جو. العين السخنة قريبة، والأولاد يستمتعون، سيأكل الصدأ الدراجات التي لا يركبها أحد. لا تنسوا المنفاخ... حتى توارت تمامًا فكرة الذهاب إلى البلدة.

«محمد حبيبي، كيف حالك»، أخيرًا يُهاتف أبي ابنَ أخيه المهاجر لأمريكا. يسأل عن زوجته الودود اللطيفة، عن ابنتَيه الأجنبيتين؛ حبايب جدو. «يا رب دايمًا بخير.. الأولاد تعلقوا بك، اعمل حسابك تقضي معنا وقتًا أطول في المرة القادمة»، ثم يُفاتِحه في الأمر: كل أعمامك يُفضِّلون البيع، وراءهم التزامات، أبوك أكبر المتحمسين، ما عاد أحد يذهب للبلدة، الثمن المعروض بخس، قلت لهم ذلك عدة مرات، لا أرى ضرورة للاستعجال، فكِّر في الأمر، لا تقطع برأي، سأقول لهم إنك تُفكر ولا ترى سببًا للعجلة. نِعم الرأي يا بنيّ. أنت أعقلهم جميعًا. خذ بالك من نفسك ومن صحتك، صوتك لا يُعجبني، هل ثمة ما يُتعِبك؟ طمئني عليك.. زوجة عمك في خير حال، طبعًا تُحبذ البيع، أنت تعرفها، لا تُطيق سيرة البلدة، نعم تُحِب النظافة

أكثر من عينَيها. فكِّر على راحتك، أرجو ألا أكون أزعجتك، بُسْ لي البنات. في أمان الله.

يُغلق الخط. يعبث في الموبايل، يُفتش عن إخطارات جديدة. يتجنب النظر في اتجاه أمي. تنظر هي نحوي؛ تقول عيناها الواسعتان الكثير، تبوحان بغيظ مكتوم، تُطالبانني بالتعليق. «محمد غير متحمس لفكرة البيع»، يقول أبي فيما يرمق الموبايل من خلف نظارة القراءة، «هو أيضًا يرى الثمن بخسًا»، يُكمل كأنما ينقل إلينا خبرًا حدث بمعزلٍ عنَّا، كأننا لم نسمعه يوجِّه ابن أخيه بعيدًا عن الموافقة. أهرب من عينَي أمي القلقتَين. أستعد للذهاب.

أُصافح أبي وأُقبِّل رأسه، ينزع نظارة القراءة قائلًا: «بالسلامة يا حبيبي»، ثم يُردِف: «على فكرة، أنا غير مرتاح لانشغالكَ الدائم بما لن ينفعك؛ مرة تُفكِّر في الهجرة، مرة في الكتابة، احرِص يا بني على عملك وأكل عيشك». أُربِّت كتفه، أعده بمناقشة الأمر فيما بعد. أُعانق أمي عند الباب، تقول بفراغ صبر: «شُفت أباك!»، أهشُّ إليها، أقول كلامًا يُصبرها، وأعتذر بحاجتي للمغادرة. تستوقفني: «افعَل ما يحلو لك. لو أردتَ التفرغ للكتابة فافعل، لا تحمِل همَّ المال، لكنْ شِل من دماغك موضوع السفر». ثم تفاجئني: «هات صورة من شهادة ميلادك وبطاقتك»، أستغرب: «لِـمَ؟!»، تقول: «سيستخرج لكَ خالك شهادة الأشراف». وددت لو أقول إني سآخذ رأي أبي، لكني خشيت أن أُسخِطها عليه فوق سخطها، أقول: «إن شاء الله»، وأُقبِّل وجنتيها قُبلة الذهاب.

في الطريق أتأمل الخلاف. أتفهَّم الأسباب. تنتابني حيرة. أتناول الموبايل؛ أفتح محادثتي على الواتساب مع ابن عمي المهاجر لأمريكا، أرسل إليه صورة جدي محمد التي بحوزتي، أسأله: «تعرف مَن هذا الشاب الجميل؟»، سرعان ما يُجيب بوجهٍ أصفر بقَلبين في موضع العينين. أرسل له رسالة صوتية.. أيا ابن العم، لماذا يستبد بك الشوق كلما رحلْت؟ وما الذي يُمسِك ورقتك الصغيرة في شجرة العائلة الشائخة؟ ما سر تمسُّككَ ببيتٍ ما عُدتَ تعرفه؟ ما عُدتَ تذبح في فنائه ولا تشرب من ماء طرمبته؛ هل ثمة في العودة ما يستحق؟

بيت البلدة.. بنَتهُ الست نعمات، الشقيقة الصغرى لفاضل، لكي تُقيم فيه كلما حلَّت لتُتابع أطيانها في محيط البلدة؛ تلك الأرض الزراعية التي خصَّها بها أبوها الشيخ دونًا عن سائر إخوتها، وما كان الشيخ ليُورِّث أحد أبنائه من زوجاته الثلاث قيراطًا في حياته، لولا أنه أراد أن يُغني ابنته الصغرى قليلة الحظ عن سؤال إخوتها الكبار، فكتب لها الأرض البعيدة.

لم تكن في حلاوة أمها التركية، الست أم فاضل، فقد ورثت عن أبيها الشيخ سُمرة بشرته، وجبهته العريضة المفلطحة، حتى قدماه الكبيرتان تسلَّلتا لقدميها، فصارتا وصمتها المثيرة للتندر كلما جيءَ بالصرماتي قبل الأعياد ليرسم أقدام الصغار. صارت أمها تتصنع الحياء من لمس الصرماتي قدميها البيضاوين المدملجتين، فترسم بنفسها قدمها على الورق المُعدِّ لتغليف الطعام، وترسم كذلك قدم ابنتها نعمات، التي تُشبه أقدام الصبيان، وتُرسل بهما ليعقوب الصرماتي قبل موعد حضوره لبيت الخرُنفِش. تُسايرها النساء في كذبها المفضوح، فيدَّعين تصديق حجَّتها، ثم يتهامسن بعيدًا عنها بالسخرية من قدمَي الطفلة نعمات اللتين تُشبهان مطرحة الخبيز، فتقول كبرى زوجات الشيخ إن البنت معذورة، فقد طوى بها الشيخ عهد فحولته، فلم تُصِب إلا عكارة مائه.

برغم ذلك، أو ربما لهذا السبب بالتحديد، كانت أحب أبناء الشيخ إلى قلبه، بل أحب إليه من أمها التركية التي لم يعشق مثلها، فقد خُلِقت نعمات من عجينة الأمومة الخالصة، كانت أم أشقائها الأكبر سنًّا، أم أبيها الشيخ المهيب، أمًّا حتى لأمها التركية ولجميع الموجودات من جماد ونبات وحيوان، حتى إنها كانت تعطف على الفسقية المعطلة في حوش البيت، فتنهى إخوتها وسائر الأطفال عن اتخاذها هدفًا لبُصاقهم إذ يتنافسون أيهم يُلقي بأبعد بصقة.

لم تقف سُمرتها ولا فلطحة جبهتها ولا حتى قدماها الكبيرتان حائلًا في وجه طُلّابها، حتى إنها سبقت بعض أخواتها غير الشقيقات في الزواج، فقد طلبها أحد أصدقاء أخوالها من أعيان المطرية، بعدما ماتت زوجته، وكان يكبر نعمات بثلاثين عامًا على الأقل، فترك لها أبوها الخيرة من أمرها في الرفض أو القبول، فيما مالت أمها التركية نحو الموافقة، كي تكيد لابنتها من ضرَّتَيها المتهكمتين، فارتضت البنت ما ارتأته أمها ووافق هواها في نفس الوقت، فقد بالغت الأم في وصف معاناة الرجل

الأرمل اليتيم، وكيف صار بلا أنيس ولا ونيس بعد موت أمه وزوجته، فلم تتردَّد نعمات ووافقت على الفور.

لم يدُم زواجها إلا بضعة أشهر، عادت بعدها للاحتماء تحت سقف أبيها الشيخ المهيب، فقد تعثر بها أبوها أثناء خروجه لصلاة الفجر، كاد ينكفئ فوق جسمها الهزيل فيما تتوسد العتبة الرخامية المرتفعة التي تحول بين مدخل بيت الخرُنفِش والدرب الترابي. وجدها حاسرة الرأس، تلفُّ نفسها كما حلزونٍ مُلتصق بالجدار، في المسافة الضيقة بين العتبة المرتفعة والباب العتيق، وتضمُّ كفّيها حول عُنقها النحيل.

«نعمات!»، غمغم الشيخ، «ماذا فعلتِ بنفسكِ يا بنتي؟!»، لم تعرف آنذاك كيف تُجيبه ولا عرفت في أي وقت لاحق ماذا صنعت لكي تستحق هذا المصير. وما كانت لتبوح أبدًا بما جرى؛ كل ما همست به لأمها بعد أيام، هو أن ما قام به زوجها ليلة هروبها من أخْذِه بعنقها وخَنقِها حتى كادت تموت، لم يكن سلوكًا عارضًا أتاه تحت سطوة سُكْرٍ، ولا انفعالًا جامحًا، بل إنه عادته التي يمارسها كلما اشتهاها. استنكر الشيخ ما نقلته زوجته، وعزم أن يستوثق بنفسه من أمر الزوج غريب الأطوار، فالحريم كثيرًا ما يُلقين بكلامهن على عواهنه. لذلك أرسل في طلب زوج ابنته، لكنَّ الأخير أبطأ في الإجابة، ما اضطرَّ الشيخ للذهاب إليه في قصر المطرية، في غضْبة أمشير التي لا يُطيق الخروج فيها. ارتدى عمامة الأشراف الخضراء، التي لا يرتديها إلا للشديد القوي، مُرخيًا طرفها حول وجهه ليمنع التراب، وظلت الريح تحفُّ بجوانب حنطوره وتلطم فيه، حتى ندِم على ارتدائه عمامة جده الأكبر شيخ الأزهر الشريف، وتعفيرها بغبار الطريق.

تركه الزوج ينتظر في بهو القصر كأنما يتعمَّد إهانته، ثم دخل عليه مرتديًا حُلة ركوب الخيل، تفوح منه رائحة روثٍ خافتة، معتذرًا بانشغاله بتمريض فرسٍ محمومة، وبدأ يجهز الشُّبُك للتدخين ويحشو الحجَر بالطمباك، فطلب منه الشيخ أن يتوقف، وقال له: «ربَّيت ابنتي سبعة عشر عامًا وما مددتُ عليها يدي قط!»، فتمتم الزوج: «أخذتُها ابنة عزّ، وهكذا أردها لأبيها أعزه الله».

«فما بالك تضربها؟!»

«ما حصل..»

«أثَرُ يديكَ على عنق الفتاة لا يزال!»

هنالك أطرق الزوج، ووضع مبسم الشُّبُك المطفأ بين شفتيه، زاغت عيناه بعيدًا عن حميه الشيخ، وتلعثم قائلًا: «ما تؤاخذني يا مولانا، دا شأني مع امرأتي.. وأتوا حرثكم أنّى شئتم، دا كلام ربنا».

وجم الشيخ. أخذ يُحدِّق نحو السوط المعلَّق في رسغ الزوج، حتى قام الأخير قائلًا: «سأحاسب الطبيب البيطري وأعود على الفور»، واستدعى خادمته العجوز وأمرها أن تسقي حماه شراب الحلبة بالحليب حتى يعود. لكن الشيخ آثر الذهاب، وارتدَّ لبيته يحمل المهانة مع عفارة الطريق، حتى إنه تجنب لقاء ابنته نعمات، فاحتجب عنها لثلاثة أيام في جناح الست أم صدقي، حتى جُنَّ جنون أمها الست أم فاضل فأرسلت إليه صينية عَشاء الليلة الرابعة في جناح ضرَّتها، ما جعل الست أم صدقي تطرد الخادمة الصغيرة التي حملت العَشاء، وأقسمت ألا تطأ هذه البنت جناحها أبدًا.

وبرغم كل ذلك، فقد تمنى الشيخ لو يُصلح ابنته على الزوج اللعين؛ ألّا يكون مصيرها الطلاق وهي بعد دون الثامنة عشرة، لم تذُق طعم الحياة ولا لذة المعاشرة. وما كان ليُعفِّر عمامة أجداده ثانيةً، لكنه استعان بالصبر وبصهره الذي كان سببًا في التعارف؛ أوصاه أن يستطلع نية الزوج من بعيد لبعيد، شرطَ ألا يُعاوِد خنقَ الفتاة أثناء المجامعة، وفوق ذلك يسترضيها. وكذلك استدعى صدقي، أكبر أبنائه الذي بلغ مؤخرًا رتبة الحكمدار، وأمره بأن يتحرى كل كبيرة وصغيرة عن حياة زوج أخته، فعاجل صدقي بعمل اللازم، حتى إنه لم يتورع في استدعاء أخوال أخته نعمات كي يأخذ أقوالهم. ولم يقع على شيء ذي بال، حتى اختطف رجالُه الخادمة العجوز وقت خروجها من قصر المطرية. ومن دون ترهيب يُذكر، أدلت المرأة بما تعرفه عن حياة سيدها وعن مزاجه الفاسد في الفراش، كما وشت وأنكرت في آنٍ واحدٍ ما يتناقله سُيّاس الإسطبل، من أن زوجة السيد السابقة مدفونة أسفل مَربط الفرسة الشهباء، بعدما انخنقت المسكينة أثناء مُطارحته الغرام، ودافعت بحُرقة عن الست نعمات، التي أعدَّتها أكثر النساء صبرًا على انحراف السيد في الفراش، لولا أنها خذلت الجميع يوم أصرت على سؤاله عن سبب موت زوجته السابقة، فاستل السيد سوط الركوب المعلَّق في صالة القصر، وحبسها بداخل حجرة النوم، وكان ما كان.

ارتأى الشيخ الحِكمة في معالجة الموقف، فما يمس صهره يمسُّه بلا شك، لكنْ أنّى له في شيخوخته أن يقف أمام ابنه الحكمدار. داهم الحكمدار قصر المطرية، فأوثق حبلًا حول رقبة زوج أخته وأخذ يجرُّه حتى ساحة تريُّض الخيول، هناك أمر رجاله

بسَحب الخيل العربية من مرابطها واحدة بواحدة، وشَنقها أمام عينيه المذعورتين، حتى استبقى أفضلها وامتطاه، وأخذ يرمح خلف الرجل المفجوع في خيله الأصيلة، ويسوطه بسوط الركوب في كل موضع، حتى سقط مقطوع النفَس.

أما نعمات، فقد أبدت صلابة غير متوقعة منذ عادت لبيت الخرُنفِش، واستمرت ترعى أبويها حتى رحلا، ولا تتوانى عن طبخ الطعام للست أم صدقي كبرى زوجات أبيها الشيخ حين هرِمت، ولا عن تجهيز سُبوع أبناء إخوانها الأشقاء وغير الأشقاء، بل ودفع أجرة حلاق الصحة إذ يُطاهِر صبيًّا أو فتاة، بسماحة نفس كالتي تشتري بها عصافير الشارع حين يصطادها صبي الفرارجي، ويحبسها بداخل أقفاص يرصها أمام شباك الست أم فاضل، المطل على الأرض الفضاء ودار كسوة الكعبة، لكي تراها الست نعمات وتُرسل في شرائها لتحريرها من محبسها.

أما الصلابة الأكبر، فبانت حينما قررت نعمات ترك بيت الخرُنفِش لشقيقها الأكبر فاضل أفندي، واختارت

الإقامة في البلدة البعيدة، فصارت وأرضها حضن الأمومة الذي التجأ إليه الجميع فيما بعد.

«لو أردت الحقيقة، فاسمعها مني أنا».

يقول أبي هذه العبارة، فيستحوذ عليَّ ويضمن تصديقي المطلق. أبي صياد ماهر، يعرف الطُّعم الأنسب لمَن يرغب في اصطياده، ويحفظني عن ظهر قلب؛ أُنصت للحديث، أتأمل المتناقضات، أحفر الحُفر وأدسُّ الألغام حيث يختل المنطق، ثم أخطو بعيدًا وأراقب الانفجار. لن يُفحمني إلا الحقيقة الخام، بلا تخفيف يُقلل تركيزها ولا حلاوة تُهوِّن مرارتها.

يُقرب إليَّ الطُّعْم ويقول: «صدقي بيك هو مَن أحرق حُجج البيت وأضاع الكنز».

تلك هي «الحقيقة» كما يعرفها أبي، وكما ترفضها أمي وتُشهِد على زيفها أبناء عمومتهما: «كلِّم عمَّك زين اسأله»، تقول أمي، «هو حافظ التاريخ كله».

تزهو أمي بجدِّها صدقي بيك الحكمدار، أكبر أبناء الشيخ من أولى زوجاته، وضابط الشرطة المهيب الذي نال البكوية في أزهى عهودها. كان صدقي بيك سيد بيت الخرُنفِش في غياب أبيه الشيخ، يرتجُّ لحضوره جناح الست أم صدقي؛ تُفتَح الكوّات العالية في سقف غرفة المعيشة الخشبي، فيندفع الهواء، ويُهوّى البيت من رائحة البخور التي لا تروق له، ويُترَك له الركن المُطِل على دير الشهيد العظيم مارجرجس، ليجلس منفردًا مع لفائف التبغ التي يُهديها إليه أصدقاؤه الإنجليز، وفنجانه الخزفي المحفوظ بداخل ظرفٍ من الفضة الإسترلينية، منقوش عليه لفظة «صدقي» بخط عثماني أنيق. وُضِع الجرامافون في نفس الركن قبل نهاية عصر الخديوية وإعلان السَّلطنة بعام، وظل يُسمّى «قَعدة صدقي بيك» حتى هُجِر بيت الخرُنفِش في منتصف الخمسينيات، وانتقل الجرامافون الذي كان يُميزه لبيت جدي لأمي، أكبر أبناء صدقي بيك.

وطبقًا لرواية أمي، كان جدها صدقي أبرز أبناء جيله. وبرغم عصبيته، يبقى من غير المعقول أن يُتلف حُجَج البيت والأملاك في فورة غضب، فهو رجل قانون قبل كل شيء، بلغ من مراتب السياسة ما بلغ وتعرَّض للكثير من الضغوط على امتداد تاريخه الحافل بالنجاحات، لذلك ترى صعوبة تصديق رواية أبي. كل ما هنالك أن إخوانه غير الأشقاء، كامل وفاضل والباقين، كانوا يغارون منه، ألصقوا به جميع أوزارهم ونجوا بسِيَرهم عن المعايب. تقول ذلك بيقين صلب، بثقةِ حكمدار يعرف كل صغيرة وكبيرة في دائرة نفوذه، فأجدني حائرًا بين الروايتين. مع الوقت، تبدو لي رواية أبي أكثر تماسكًا، فهو مَن صاحَب جدي حسين - حماه وابن عم أبيه - في

رحلة استعادة أملاك العائلة بين المحاكم ودواوين الأوقاف، وهو مَن سمع بأُذنيه شهادة جدي حسين في حق أبيه صدقي بيك.

أعتمِد مؤقتًا رواية أبي، وأمضي في التدوين.

***

عاد صدقي بيك من غزوة المطرية ممتطيًا الحصان الوحيد الذي استبقاه من خيل طليق نعمات؛ حصان أشهب، يُخالط بياضَ جسمه سوادٌ يُشبه الرماد. عاد به أولًا لبيت الخرُنفِش، وكان قد انتقل للسكن في حلوان عند زواجه قبل سنوات، ففرِح أبوه الشيخ بالحصان اليافع الجميل وأسماه «قادر»، على اسم أفضل خيول الخديوِ عباس حلمي، الذي بيع في المزاد بثمن خيالي. اقترح الشيخ أن يُبنى مربط للحصان في الأرض الفضاء المتاخمة للبيت، لكن صدقي ارتأى حلًّا آخر، حيث نقل الحصان إلى حلوان على ظهر مركب نيلي، وأعدَّ له مساحةً مستوية من الأرض الرملية خلف البيوت السبعة التي صار يملكها هناك، نفس البيوت التي وُلِد فيها جدي حسين بعد عامين من مجيء الحصان.

ومع ولادة جدي حسين، كان لون الحصان قد تحوَّل تمامًا إلى الأبيض، باستثناء ذيله وخطمه وأعلى عينَيه الرماديتين، فقيل إن انتقاله لحوزة الأشراف نقَّى جسده من السواد، خاصة وقد تخلَّص من أدران صاحبه الأول مهووس المطرية. فرِح صدقي بيك لسماع هذا التفسير وأكرم الخولي الذي ابتكره، برغم علمه بأن ابيضاض لون الخيل الشهباء أمر شائع بعد عامها السادس أو السابع، وصار يَمضي فوق صهوة «قادر» بمحاذاة كورنيش حلوان، يُلقي التحايا على جيرانه أصحاب الأراضي المتاخمة للنيل.

مضت الأحوال كأحسن ما يكون بين الشيخ وأكبر أبنائه، حتى كان اليوم الذي حضر فيه صدقي حاملًا علي، مولوده الثاني بعد جدي حسين، فبَسمل الشيخ وكبَّر بينما يتلقف المولود، وافترَّت شفتاه عن بسمةِ رضى لا مزيد عليه، ثم قال لابنه البِكر: «متى تُنجب ولدًا وتُسمّيه محمد؟»، فضحك صدقي وقال: «قبل مرور عامٍ بمشيئة الله»، فقصَّ عليه أبوه رؤيا القرد حارس الكنز، وقال إنه سيُحدِّث بها جميع أبنائه، فسأله صدقي: «تفتكر مَن سيكون سابع المحمَّدات؟»، فقال الشيخ: «لا يعلمه إلا الله».

بعد قليل قال: «ربنا أرضاني فيكم جميعًا، إلا فاضل ونعمات». تعجَّب صدقي من التحوُّل المفاجئ لمجرى الحديث، وقال: «ليس فينا مَن هو أهنأ بالًا من فاضل،

يعيش حياته بالطول والعرض، لا ينقصه إلا خلفة الولد»، فتفَل الشيخ عن يساره ثلاث مرات وأردف يقول: «أخشى عليه من إسرافه. سينكشف ذات يوم ولا يجد مليمًا يستره»، فقال صدقي: «أطال الله بقاءك يا أبي، كيف ينكشف وأنت أبوه؟»، فقال الشيخ: «لم يبقَ في العمر الكثير»، وأطرق صامتًا، فتمتم صدقي داعيًا لأبيه بطول العمر، ثم قال الشيخ دون مزيد مقدِّمات: «سأجعل لفاضل بيت الخرُنفِش، ولأختك نعمات أرض فتح الله».

نهض صدقي ورفع وليده من حِجر أبيه، ومضى يُنادي امرأته لتُرضِع الولد، ثم عاد وجلس واجمًا أمامه. بعد قليل قال الأب: «تركتك تبني في أرض حلوان كما يحلو لك، فلن يتمكن أحد من إخوتِك أن يُنازعك فيها. وأخوك كامل يرتع في أرض الفيوم كالوجهاء؛ لا يريد منَّا شيئًا ولا نريد منه، فما الضير في منح فاضل بيتًا يستر فيه لحمه الأحمر؟ فكِّر في الأمر».

امتنع صدقي بيك عن التعليق في حضرة أبيه، لكنه فاتَح أمه فيما قاله الشيخ، مُمعنًا في إغاظتها وناعتًا أخوَيه فاضل ونعمات بأبناء التركية التي على الحِجر، فمضت من فورها لقاعة المقرأة حيث يرقد زوجها الشيخ، وقالت وهي تخبط صدرها: «ستورِّث بيتي على حياة عيني يا شيخ محمد؟!» بوهنٍ فتح الشيخ عينيه وقال: «أنتِ ست البيت ما شاء الله لكِ البقاء، وجناح أم كامل الله يرحمها ليس فيه سوى الكراكيب، سيؤول البيت لفاضل بعد عمر طويل.. كتبتُ أيضًا أرض فتح الله لنعمات، وأُشهِدكِ بعد الله أني فعلت». لاح لها الطريق مسدودًا في عينَي زوجها الجامدتين، فاستدارت ذاهبة، لكنه استوقفها بقوله: «اشتري كفنًا وعطّريه، ولا تُغالي في ثمنه، وأرسلي لمأمون التُّرَبي كي يُجهز المدفن».

ظنت أم صدقي أن زوجها يكسر خاطرها بسيرة الموت، كي لا تقف أمامه فيما يريد، لذلك أهملت كلامه واحتفظت في قلبها بجذوة الغضب مستعرةً لا تنطفئ، لكنها إذ دخلت عليه ذات عصرية لترفع صينية الغداء، وجدتها على حالها فوق خوان مجاور لباب القاعة، والمفرش القطنيّ الأبيض لم يُمَسّ. قطعت أرض القاعة المكسوَّة بالفسيفاء، تُقرقع بالقبقاب وتشقُّ غلاف الصمت المهيب، عيناها مثبَّتتان على الجسد المسجّى فوق مصطبة مغطاة بالكليم الأناضولي؛ الوجه مستريح فوق الكتف اليسرى، العينان معلَّقتان بإبريق الوضوء النحاسي في وسط القاعة. وقفت تُراقب الصدر العريض. لا يصعد. لا يهبط. يبدو فارغًا من الهواء والهموم. شقَّت جلبابها من أعلاه، وأطلقت صرخة دوَّت في جنبات الخرُنفِش.

تلوح لي الهجرة كحلٍّ حاسم لأكثر مشاكلي، فيما يرفض أبي الفكرة بضراوة؛ «عندك كل شيء»، هكذا يُصِر كلما طرحت الأمر للنقاش، ويسُد أُذنَه عن سماع وجهة نظري في هذا «الكل شيء» الذي يعنيه. أقطن في شقة صغيرة، هي في الأصل مساحة مُقتطَعَة من طابق اشتراه أبي أثناء عمله في الخليج، ليكون مقرًّا إداريًّا لأعماله حين يعود لمصر. لديَّ سيارة صغيرة صينية المنشأ، دفع أبي مقدَّم ثمنها وترك لي سداد أقساطها التي تبتلع نصف دخلي كل شهر. يتعلم أبنائي في مدرسة خاصة يتنافس أترابي على الزجِّ بأبنائهم في فصولها، يقوم أبي بسداد مصروفاتها، فيما أتكفَّل أنا بالسندوتشات والمصروف اليومي، وبين الحين والآخر أدفع الرحلات.

«نعم عندي كل شيء تُساعدني أنت في اقتنائه!»، هكذا أُصارح أبي بحقيقة الأمر، فيمتعض قائلًا: «ولمَن سيؤول المال بعدي، أليس لكم؟!»

يأبَى أبي أن يتفهم طبيعة الوضع الذي أُعانيه؛ وضع التابع الذي لا يملك الفكاك من متبوعه، «ونحن في سنك، لم نكن نطمع في ربع ما لديك، ولم يكن أمامنا سبيل إلا السفر.». هكذا يُقدِّم أبي تصوُّره: طالما أمتلك بيتًا وسيارة ولديَّ زوجة وأبناء يتعلمون في أحسن مدارس، ويرتادون النادي كل أسبوع، فلا حجة لديَّ للتفكير في الهجرة أو البحث عن المزيد، وأنا لا أبحث عن مزيد، بل أسعى لأن أكون مُستحقًّا لما بحوزتي ولا أشعر حقيقةً بامتلاكه، لذلك لا أضمن بقاءه ليوم آخر.

لم يكن خيار الهجرة ليطرأ لذهني قبل عشر سنوات، وقت كان سوق المعمار في أوج ازدهاره، وكنا أنا وشريكي في المكتب الهندسي نعتذر عن عدم قبول مشروعات جديدة، ونضع شروطًا مُجحِفة تهشُّ العملاء بعيدًا عن دماغنا، وبرغم ذلك تستمر الطلبات في إمطارنا دون هوادة؛ معاينات، تصميمات، تراخيص، بناء، تشطيبات. وبرغم صداقتنا التي امتدَّت منذ أيام الجامعة، صرنا لا نتحدَّث في غير العمل، فقد كنَّا نركض لاهثَين من هنا لهناك، ننجز المقابلات، نستعرض التصميمات، نختار العيِّنات، نستصدر أوامر الشغل ونعتمد المُستخلَصات، ونجمع الصلوات بعجالة بين مواقع العمل، ثم نكمل التباحُث حول العقبات فيما ننتقل لمكان آخر، فلا نترك هواتفنا المحمولة قبل انتصاف الليل، حين تكاد تسيح من فرط السخونة. لم يسعنا الوقت حتى لمناقشة التوسُّع الذي أصبح ضرورة مُلِحَّة، ولا حاجتنا لتعيين مزيدٍ من المهندسين حديثي التخرُّج ومُشرفي التنفيذ، ولا حتى لقراءة

المؤشرات التي صارت تصرخ في آذاننا بأن العالم الذي نعرفه يوشك على التحوُّل عمَّا قريب.

قامت ثورة، وحلَّت لحظة جمود مشوبة بالتوتُّر، كأنما نترقَّب لما ستُسفر عنه حيلة الساحر، فإذا بالأرنب يندفع سريعًا لخارج القبعة، والمناديل الملونة تنطلق من ورائه في جميع الاتجاهات. صرت لا أرى شريكي في غير الجُمُعات، حين أنضم إليه في خيمته التي لا تترك اعتصامًا إلا وتدقُّ أوتادها في ساحته. «قلت لك البلد سيتغيَّر»، كان يُذكِّرني بنبوءته التي سبقت جميع النبوءات، لكنْ حتى أمهر المتنبِّئين ما كان ليتوقَّع شكل التغيير التالي الذي انجرفنا نحوه، فقد تناوب السَّحَرة من كل فريق على تقديم الحيل فوق مسرح الميدان، دائبين لكي يختلفوا في كل شيءٍ باستثناء أمرٍ وحيد: اللون الأحمر لمناديلهم المتطايرة مع نهاية كل فقرة.

اعتُقِل شريكي في ذروة فقرة من الفقرات، ولم يكن قد مرَّ عام منذ اندلاع الثورة، فحُرمتُ حتى من نبوءاته قصيرة النظر. تبخَّرت أحلامنا التي حسبناها ممكنة، وحلَّت مكانها أفكار داكنة، تكاثفت فوق رؤوسنا كسُحُبٍ مشحونة بالتهديدات. مرَّ قرابة شهر قبل أن أعرف مكان احتجازه، وخمسة أشهر أخرى حتى خرج فاقدًا نصف وزنه، وجُلّ حماسه المعتاد للحياة. بينما فقدت أنا معظم مُدَّخراتي، ساعيًا لأن لا تشعُر أسرتانا بانهيارنا الوشيك. حتى موظفو المكتب، اضطررت لتسريحهم بعد سبعة أشهر دأبت خلالها على دفع نصف المرتَّبات، آملًا في عودة الأمور لما كانت عليه. صرت أخرج لعملي في الموعد المعتاد، لكي أشاهد فقط أنقاض عالمنا من شباك المكتب، وأتأمَّل كيف تداعى حولي حتى ساوَته الأرض. كان عملاؤنا القدامى قد توقَّفوا عن تمويل المشروعات القائمة، وتلكَّؤوا في سداد مستحقاتنا المعلَّقة حتى ابتلعها النسيان. أما الزبائن المحتمَلون، فقد تبخَّروا بطبيعة الحال؛ مَن ذا الذي يُطعِم فمَ المجهول بنقوده في تلك الظروف، وقد انهارت تمامًا سوق العقارات.

ومع توالي الشهور، فقدت الأمل في عودة الأوضاع لما كانت عليه؛ وضع السوق وحماسة الزبائن من جهة، ومن جهة أخرى وضع شريكي الذي انطفأت شمعته. صحيح أنه أنفق الكثير بعد خروجه ليُبقي مكتبنا مفتوحًا، لكنه كان يتحرك بدافع الواجب فقط، ربما العادة؛ ليس ثمة حياة تسيل خلف عينيه الزجاجيتين، اللتين جحظتا قليلًا مع فقدانه الوزن. أُجبِرنا على قبول مقاولات صغيرة وتافهة، لا تتناسب

أبدًا مع نجاحاتنا السابقة، لكنْ حَسْبها أن تُبقي الأفواه مملوءة والدولاب دائرًا ولو نسبيًّا.

الأمر الجيد الوحيد - لو كان ثمة أمر جيد - هو عدد القصص اللا نهائي، الذي ظل يتناثر حولي في كل مكان؛ أبطال بلا تاريخ معروف، شخصيات متحولة بدرجة تدعو للضحك أو الرثاء، أغانٍ وأشعار وصور تُجرِّف الأرشيف المعروف كي تصنع البديل. عاودني الشغف القديم لكتابة القصص ونَظْم القصائد، ربما كنوعٍ من التعويض وملء الفراغ، أو كطريقةٍ لتفريغ الشحن والتخلُّص من المخاوف؛ لا أعرف يقينًا، لكنني وفي غضون ثلاثة أشهر وجدت بداخلي الحماس الكافي للبحث عن ناشر لأول مجموعةٍ قصصية أنجزها منذ عاودت الكتابة.

صرت أتلو قصصي وقصائدي على شريكي المنطفئ، كما رحت أطرح عليه أفكارًا عشوائية لتنويع نشاطاتنا، إذ ربما تنتشله إحداها من وَهدَة اليأس وفقدان الحماس، لكنه استمرَّ غائبًا أكثر الوقت، يمنحني ابتسامات مبتورة، ويهيم ثانية بين سكان كوكب الفيسبوك الأزرق، مُكتفيًا بعالَمهم الافتراضي عن سائر مظاهر الحياة.

هو مَن فاجأني بعد فترة بفكرة بدت أكثر عشوائية من كل ما سبق: «ما تيجي نهاجر»، قالها ببساطة اقتراح خروجة مسائية، «نهاجر لأين؟!»، سألته مبتلعًا دهشة المفاجأة، فقال: «أي مكان»، وعاد من فوره لمطالعة الفيسبوك. أخبرني بعد ثلاثة أشهر بأنه ماضٍ في طريق الهجرة؛ سينفق ما بقي من مدخراته لإتمام الأمر، هكذا أوضح بنبرة هادئة وحاسمة؛ هي ذات النبرة التي استمرَّ يتحدَّث بها منذ هاجر لأستراليا، محاولًا إقناعي باللحاق به، «قد تجد الكنز هنا في انتظارك، يحرسه كنغر أجرب»؛ يضحك.

يتوتَّر أبي حين تسألني أمي عن أخبار شريكي: «مبسوط هناك؟»، أرمقها بعينٍ وأُعير العين الأخرى لأبي.. يتصفح المشروعات الجديدة التي تَرِدُ أخبارها في الجرائد الرسمية - صارت كل الجرائد «رسمية» - أو تُذاع عبر زعيق أحمد موسى، يقرأها عليَّ باهتمام لافت، كأنما يملك نصف أسهمها، يرفع صوت التلفزيون حين تُعاد حلقة الأمس التي أُذيع خلالها الخبر، «سيُنشئون مدينة عالمية في العَلَمين، مساكن ومصانع وفنادق وجامعات.. مشروع مذهل!»، أعرف ما يدور بخَلَده، يريد أن يمنحني الأمل في مستقبل البلد. لو تصبر قليلًا - هكذا يودُّ القول - سيقطن أبناؤك في أبراج فندقية، سيتعلمون في جامعات يحسدهم عليها الإنجليز

والأمريكان، سيعملون في مصانع مُفلتَرة الهواء، كاتمة للصوت.. فقط لو تصبر قليلًا!

لا يُطيق صبرًا على رحيلي؛ أتفهم ذلك طبعًا، ولا أظنني قادرًا على الفراق أنا الآخر، لكنْ.. هل ثمة خيار يا أبتاه؟ هل سيكون بمقدوري أن أُعلِّم أبنائي كما علَّمتني؟ أن أزوجهم كما زوجتني؟ أن أطمئن عليهم مثلما اطمأننت؟ تسألني: «أتهاجر وأنت على مشارف الأربعين؟!»، فأقول: «المهندسون مطلوبون في كل مكان، وسنوات الخبرة تدعم فرصهم»، أكذب، وتغتاظ، تنفخ في وجهي، «ماذا تريد فوق ما عندك؟»، تقولها شفاهة أو تُضمرها في تجاويف قلبك، «كلها خمس سنوات وآخذ الباسبور، وأرجع بعدها مرتاح البال»، آمل أن تُسرّي عنكَ كذبتي، لكنكَ تنفخ ثانيةً، كأنما تريد أن تقول: وكم خمس سنوات بقيت لديَّ؟

«جيل يُنتِج، وجيل يحصد ما أنتجه السَّلف»، هكذا يقول أبي فيما يتصفَّح النسخة التي أهديها إليه من آخر مجموعة قصصية نشرتها، وفيما يتفكَّر صامتًا في مسيرتي المهنية المتجمِّدة منذ رحيل شريكي، منذ غلقي المكتب وسعيي خلف مقاولات صغيرة؛ مسيرتي التي وصفها بـ «محلَّك سِرْ». أظنه يُصنِّفني بين أبناء جيلي غير المنتج. وأيًّا ما كان تصنيفه لي، فهكذا يرسم أبي خريطة الزمن، وعلى هذا المنوال يخطُّ شجرة العائلة: حصَد صدقي وكامل وفاضل ما انتهى إليه مسعى أبيهم الشيخ، مالًا كان أو جاهًا أو مشيخة، وحين تنازعوا التركة، أتلفوها.

أرجأ الموت نزاع الميراث حتى حين، لم يفُه صدقي بيك بكلمة قبل مرور أربعين أبيه، لكنه عاد لاستيطان بيت الخرُنفِش بالتدريج. صار يمرُّ على أُمِّه يومًا بعد يومٍ كما كان يفعل في بداية زواجه، يمضي الساعات في ركنه المنفرد في جناح الست أم صدقي، يقرأ ويُدخِّن، حتى إنه ابتاع الجرامافون الوحيد الذي عرفته العائلة، ووضعه فوق طاولة الركن المرتفعة الموشَّاة بالصَّدَف، وعلى رفِّها السفليّ رصَّ أسطواناته التي شُغِف بها، أكثرها للحامولي وعبد الحي حلمي. وقليلًا بقليل صار يقوم بتجديدات في جناح أمه، ويُخلي جناح المرحومة أم كامل من الكراكيب، ليُحِلَّ مكانها قطعًا من الأثاث متباينة الطراز وبعض صناديق الكتب.

أرسل عدَّة مكاتيب لأخيه الشيخ كامل في الفيوم، ليكون في معلومه ما يقوم به في جناح الست أم كامل رحمها الله، كما طلب إليه المجيء لبيت الخرُنفِش لكي يتشاركا في فرز الكتب والمكاتبات التي خلَّفها أبوهما الشيخ، فجُلها يحمل خاتم الأزهر وبعضها يخص نقابة السادة الأشراف، ولا يمكنه التصرف فيها قبل الرجوع لكامل وريث المشيخة، برغم أن وجودها يجتذب الأعراس والفئران. جاء ردُّ كامل بعد أسابيع، وفيه أبلغ أخاه تحياته وأشواقه، وأنه أقام مكتبة من ثمانية جدران في بيته بالفيوم، نقل إليها إرث أبيه من أوراق وأسفار ومخطوطات، وما ترك في بيت الخرُنفِش شيئًا ذا بال، فبإمكانه التخلُّص منه طالما روعِي الشرط الشرعي، وذلك بأن يُفرَز ويُحرَق كل ما فيه لفظ الجلالة أو اسم النبي الخاتم، ثم يُرمى ما دون ذلك دون إسراف. ضحك صدقي من لهجة الأزهريين التي تُغلِّف الخطاب، وشرع يجمع الكتب والأوراق في قلب الفسقية المعطلة في وسط الحوش، تمهيدًا لإحراقها.

كما صار يُناوِش أخاه الأصغر فاضل أفندي أكثر من ذي قبل، فيستدعيه لجناح أم صدقي وينفرد به في ركنه المعبَّق برائحة التبغ والقهوة، أو يصطحبه لمجلسه الجديد

الذي أعده في جناح المرحومة أم كامل، ويبدأ في تقريعه بخصوص ما يصله من أخبار تهتكه واستهتاره كل ليلة، غير عابئ بما يحيق بالبلد من ظروف خطيرة. يتبسَّم فاضل وتزوغ عيناه بعيدًا عن أخيه، وبحياءٍ يقول: «لطالما عشقت المغنَى كحال أخي الكبير»، فيتلمَّظ صدقي بيك بلسانه ويُحدِّق فيه قائلًا: «أُحِبُّ المغنَى حين يجيئني لحد عندي وأنا وسط أهلي، لا حين أجري وراءه حيث الخلاعة والعاهرات. لولا وجودك في هذه الأماكن لكان لي شأن آخر مع مُرتاديها، ولكنتُ دككتُها فوق رؤوس أصحابها».

تحمَّل فاضل فظاظة أخيه الأكبر، فيما ظلت أمُّه التركية تُسائِله في كل مرة ينفرد به صدقي ويُحدثه: «ماذا يريد منك؟»، «ألا يكفيه أنك تغض الطرف عمَّا يفعله بالبيت؟»، «ما شأنه بجناح أم كامل الله يرحمها؟ هل يُفتِّش عن الكنز؟»، «ألا يعرف أن البيت سيؤول إليك بعد عمر طويل؟» تطرح السؤال تلو السؤال دون انتظار إجابة، فولدها البِكر لا يملك غير ابتسامته التي لا تشي بموقف.

حتى كان اليوم الذي قررَت فيه تزويج ولدها مختار، في الطابق الأرضي من جناح أم كامل. «لماذا يا أمي؟»، سألها فاضل واجفًا ممَّا سيحيق بهما جرَّاء فعلتها، فقالت: «ولِمَ لا؟ أليس البيت ملكك، وأنت شقيقه الأكبر المسؤول عن تزويجه؟» انتابه الخوف من ذلك المنحى الغريب عن طبع أمه، خاصة وأنها تعلَم بمسعاه مع شقيقه مختار بحثًا عن مسكنٍ في باب الشعرية، يُجاور بيت العروسة. أصرَّت الأم أن يُفاتِح أخاه صدقي ويطلب مفتاح الجناح، فتلكأ فاضل لأيام حتى تبيَّن إصرارها الذي لا يلين، فاعتذر صراحةً عن هذه المواجهة: «لن أقدر!»، أخبرها مُشيحًا بوجهه عن شرر عينيها، فقالت صارَّةً على أسنانها: «لو لم تتصدَّ له الآن، سيأكلك!»

لم يشغل بال فاضل إن كان سيؤكل أو لا يؤكل، كل ما عناه كان محبة أخيه البيك، بل وشعوره بالاحتماء تحت جناحه والاعتزاز بمركزه، لذلك آثر الصمت وتجنَّب حجرة أمه لأيام، وما كان هروبه ليحول دون تفاقم الأزمة، فقد أخذت الأم على عاتقها حفظ حق أبنائها في مال أبيهم الشيخ، فصارت تتربَّص بصدقي كلما مرَّ بالبيت؛ تتسمَّع صوت حنطوره حين يُشارف الأرض الفضاء المجاورة للبيت، ثم تُرسل إحدى الخادمات لتجلب الماء من البئر المالحة في زاوية الحوش، لتأتيها بخبر ما يفعله صدقي في جناح أم كامل. عادت الفتاة مُهرولة ذات مرة، تحمل سطل الماء من علَّاقة صدئة، وتنثر ما فيه يمنة ويسرة كلما أقبلت.. «ما لك يا بت؟!»، زعقت فيها الست أم فاضل، إذ كانت تتشاءم من دلق المياه على الأرض، فقالت

الفتاة إن سيدها صدقي بيك لاحظ تصنُّتها عليه من ركن الحوش، فتوعَّدها لو اقتربت ثانية أن يُعلِّقها في بوابة البيت. سألتها الست: «ماذا كان يعمل؟»، فقالت: «سِبيني في حالي يا ستي وحياة النبي، وابعديني عن هذا الوحش صدقي بيه». جذبت الست سطل الماء من يد الفتاة، وعصرت أُذنها بعزم قوَّتها حتى خرَّت بما لديها.

كانت الكومة التي أعدَّها صدقي للإحراق قد ارتفعت كأنها هرم صغير، وكانت الفتاة قد رأته يجمع آخر الأوراق ويقذف بها فوق قمة الهرم، لذا وجدت الست أم فاضل الفرصة سانحة لتوقيفه عند حده، فما عاد البيت ومحتوياته تحت إمرته يفعل فيه ما يحلو له. وضعت طرحتها البيضاء الحريرية فوق منديلها المعقود من الخلف، وانطلقت لملاقاته في حوش البيت. «ما هذا الذي تفعله يا صدقي؟»، مسَّته من نبرتها مسحة حدَّة أثارت حفيظته، فبرغم كونها امرأة أبيه إلا أنها تكبره بأعوام قليلة، ومنذ صار حكمدار القاهرة والكل يُبجِّله ويحفظ مقامه. أمسك لسانه خشية إهانة المرأة، وشرع يستكمل ما يقوم به، لكنها اندفعت ثانية: «دَعْ ما في جناح أم كامل حيث هو، فلم يعُد يخصُّك في شيء، وهات المفاتيح وحُجج البيت لأحفظها عندي حتى يقضي الله أمره». تلمَّظ صدقي ومطَّ شفتيه، وقال: «ارجعي يا ست من مكان ما جيتي، أنا عامل خاطر للمرحوم»، ثم ألقى ما بيده فوق الكومة الهرمية وغاب ثانية بداخل الجناح. أما هي فظلت واقفة في مكانها تستمرئ التصعيد.

عاد بعد قليل حاملًا حفنة أخرى من الأوراق، وبيده الأخرى يمسك بلمبة جاز، حلَّ زجاجتها وفتح عُنقها، وسكب ما فيها من الجاز فوق كومة الورق. تهيبت المرأة ممَّا هو مُقدِم عليه، تفَلَتْ في «عبِّها» وتراجعَت قليلًا إلى الوراء، أرادت أن تُنهي الموقف برمَّته قبل إشعاله النار. «بكرة تجيب لي حُجج البيت!»، قالت بانفعال قلِق، بينما أشعل صدقي عود ثقاب طويل، وقذف به نحو الكومة، وقال فيما يتأمل ذؤابة النار الآخذة في التصاعد: «لو شئتِ أن تأخذيها اليوم لما منعتُكِ». تراجعت خطوتين أخريين، زمَّت صوتها لكيلا يهتز: «قل لي مكانها وأنا آخذها!»، فأشار صدقي نحو الكومة المشتعلة، وخطا مُبتعدًا.

على الرغم من تفتيشه الدقيق في جناح أم كامل، بل وقلبه رأسًا على عقب، يبقى صدقي بيك أقل أبناء الشيخ انشغالًا باكتشاف الكنز، فقد أنجب آخر أبنائه بعد النبوءة بسنوات، ولم يُفكر في تسميته «محمد» كما فعل سائر إخوته. ربما كان مُكتفيًا بذاته النبيلة والوجيهة، أو واثقًا في إمكانية استحواذه على الكنز، أيًّا كان مُكتشفه.

تأخَّر في الزواج على غير عادة زمانه، فقد كان مشغولًا بعمله وبرُقيّ منصبه وتوطيد صِلاته بأصدقائه الإنجليز، وكان من حُسن طالعه أن اهتمّوا بدفع ضباط الشرطة لمناصب القيادة بدلًا من ضباط الجيش، على عكس المعمول به أيام العثمانيين. لكنه اندفع منذ زواجه لتعويض ما فاته، فأنجب الأبناء بطنًا وراء بطن؛ حسين، علي، ثم زبيدة وحسن. جميعهم وُلِدوا في حلوان، حيث البيوت السبعة اللصيقة والباحة الرملية الممتدة والنيل الهانئ الكسول، وقادر، ذاك الجواد الأبيض يافع الجسد، الذي كان امتطاؤه لعبتهم الأكثر إثارة.

كانت ولادة زبيدة سببًا في عودة الأمور لمجراها الأول بين صدقي بيك وفاضل أفندي، فقد أقبل أخوهما الشيخ كامل من الفيوم لتهنئة أخيه البيك بمولودته، فنزل أول ما نزل في بيت الخرُنفِش للسؤال عن زوجتَي أبيه قبل انطلاقه لحلوان، واغتنم الفرصة كي يتفقَّد أحوال إخوته، فاصطحبه فاضل في جولة استغرقت نهارًا بأكمله، وفي طريق العودة قال كامل: «بُكرة أزور أخي صدقي بيك، وأُنقِّط المولودة بخمسة جنيهات ذهبية»، فقال فاضل: «بعد الغداء نروح سويًّا بمشيئة الله»، فربَّت كامل فخذ أخيه قائلًا: «فيك الخير يا فاضل أفندي».

بكَّر فاضل بالعودة من نظارة المعارف، وتحمَّم جيدًا قبل الغداء وارتدى بدلته الأثقل قليلًا ذات الصديري المرتفع، اتقاءً لبرد حلوان المسائي، ثم أعدَّ حقيبة سوداء متوسطة الحجم ليحمل بداخلها هدية المولودة. وكان قد سأل أخاه الشيخ كامل إن كان للبنت عقيقة مثل الولد، فقال: «نعم؛ نصف المولود الذَّكر»، فأوصى شقيقه نشأت الصغير بشراء معزاة حوليَّة بيضاء مع طلعة النهار، ليكون كل شيءٍ مُعَدًّا فور فراغ أخيه من الغداء. استوقفا حنطورًا عند مدخل حارة برجوان، ووضع فاضل الحقيبة على المقعد الضيق خلف السائق، وركب بجوار أخيه الشيخ كامل على المقعد الخلفي. سأله أخوه: «هل ستبات معنا؟»، فقال: «أعفني يا شيخ، لديَّ أشغال»، فعاد يسأله: «لِمَ الحقيبة إذًا؟»، فقال: «هدية الست زبيدة الصغيرة».

استقلَّا قطار حلوان ذا العربات المربعة الأنيقة من محطة باب اللوق، وانطلقا يتحدثان فيما يقطع القطار صحراء المعادي، فتظهر الفيلات القصيرة ذات التقسيم المنتظم العجيب، والحدائق الصغيرة المنسقة. أخبر الشيخ كامل أخاه فاضل كيف يسعى صدقي بيك لإقناعه بترك الفيوم، على أن يشتري له بيتًا في هذه التقسيمات الجديدة التي يُروّجون لها ليل نهار، «حتى رواد الأوبرج، لا يشغل بالهم غير سكنى المعادي ومجاورة الأجانب.. أتعقِلها أنت يا أفندي يا متنوِّر؟»، بدا فاضل مُعجبًا بالمباني الحديثة ذات الحدائق المبهجة التي تشرح القلب، لكنه اكتفى بالابتسام. أما الشيخ كامل فاندهش لمرأى حلوان، تلك الضاحية المتطرفة التي تنبثق عنها الصحراء، شوارعها الفسيحة، حدائقها المنبسطة كأنما اقتُطِعَت من الجنة، القصور الفخمة والفنادق الشاسعة، والنخل الإفرنجي الذي يزداد كثافة كلما أوغل القطار في قلب حلوان. قال وقد التمعت عيناه: «أخوك صدقي طلع داهية!»، وقرَّر أن يتتبع نصائح صدقي، حتى إنه اشترى قطعة أرض في حي المعادي قبل أن ينصرم العام.

كان الشيخ كامل قد أرسل برقية لأخيه البيك يخبره بحضوره، فترك صدقي تعليماته لرجال البوليس في محطة حلوان، كي يحملوا إليه أخاه متى وصل. وهكذا نقلوا الأخوين على متن حنطور يحوطه خيَّال من كل جانب، فانتاب فاضل أفندي بعض الوجَل، ولم يجرؤ على فتح الحقيبة وتحرير الهدية كما كان ينوي عند وصوله المحطة. لكن الوجَل تلاشى مع استقبال أخيه الأكبر، خاصة حين تعلَّق به حسين الصغير وراح يجذب طربوشه من زرِّه الحريري، فمضى فاضل حاملًا الصبي والحقيبة إلى التراس المُشرِف على حديقة البيت. هناك أخرج المعزاة الدائخة من جوف الحقيبة ذات السوستة نصف المفتوحة، وجعل الصبي يتحسس شعرها الأبيض الناعم. كانت مبرِّقة بعينَيها كالمذهولة، فخشي فاضل أن تكون ماتت بداخل الحقيبة، وراقب بطنها حتى اطمأن لانتظام نفَسها. «ما هذه؟!»، سأله الشيخ كامل حين لحِق به، فقال إنها عقيقة زبيدة، وأنه وضعها بداخل الحقيبة لكي يحملها معه في القطار. «لا تكون انخنقت!»، قال الشيخ كامل فيما يفحص عينيها، فقال فاضل أفندي: «لا، إنها حيَّة تُرزَق.. كل ما هنالك أني أطعمتها قليلًا من الداتورة مع حفنة برسيم، كي لا تُصدر صوتًا ونحن في الطريق»، فعقد الشيخ حاجبَيه قائلًا: «يا أخي حرام عليك، اسقِها وانثُر بعض الرذاذ على عينَيها حتى تفيق».

مضت الأمور طبيعية بعد هذه الزيارة، وإن استمرت القطيعة بين صدقي بيك وزوجة أبيه، ويوم سعى فاضل لإصلاح ذات البين واجه تحفظًا من أخيه وذهولًا من أمه، قالت كمَن لا يكاد يُصدِّق: «يأكل حقك وتتوسط له؟!»، فأجابها باستياء: «أخي لن يأكلني، وسيبقى ظهري وسنَدي بعد أبي».

لكن الظروف لم تُعِن صدقي بيك لكي يظل ظَهرًا وسندًا لإخوته، فمنذ أنجب حسن آخر عنقود أسرته، خاملًا معدوم العافية لا يظهر عليه أثر لطعام، وأحواله تمضي من سيئ لأسوأ. ما كان يحسب أن يُسرَّح من منصب الحكمدار دون مُقدمات، إلا جنون إمبراطوريات العالم الآخذة في الاستنفار لحرب عظمى، كأنها بطولة في كرة القدم التي يحفل بها الإنجليز. أبلغه قسم الضبط والربط في نظارة الداخلية بتوقيفه عن العمل، وفي اليوم التالي سمع بتعيين لورد إنجليزي مصفر الشارب مكانه في الحكمدارية. لجأ لأصدقائه الإنجليز، فلم يُعنَ أحدهم بالتوسط إليه أو حتى منحه التفسير اللائق؛ كل ما كان يتردد أن الظروف العالمية فرضت بعض الإجراءات، وأن العثمانيين في طريقهم لرفع حمايتهم عن مصر والسودان، وليس أمام الإنجليز إلا التدخُّل. بعد قرابة أسبوع، تم تعيينه مأمورًا لكراكول الأزبكية، ولم يُمنح الفرصة كاملة لنقل أوراقه وحاجياته من الحكمدارية، من بينها حُجج بيت الخرُنفِش التي كان يحتفظ بها في درج مكتبه منذ شجاره مع زوجة أبيه.

كان ينوي إخبار فاضل بوجود حُجج البيت والأملاك سليمة لا تزال، وأنه لم يقُم بإحراقها كما يظنون، غاية ما هنالك أنه كان يؤدبهم ويُعيدهم لصوابهم حتى لا تنفرط أجنحة البيت وتذهب كل في اتجاه. لكنَّ إبعاده المفاجئ عن وظيفته أربك حساباته، وجعله يسعى للقاء فلان ومقابلة عِلَّان، عَلَّه يجد مَن يعيد الأمور لنصابها الأول، فأسقط من ذهنه أمر الحُجج. ومع فشل مسعاه انطفأ نجمه، لم يعُد صدقي بيك المهيب الذي يمضي فوق صهوة جواده مفرودًا كالجدار، ويُلوِّح لجيرانه بأصابع مضمومة وابتسامة تظهر خافتة تحت شاربه المبروم بأناقة، صار يذهب للكراكول كالمتسلل، يبات فيه أحيانًا، أو يعود لحلوان بلا ترتيب مُسبَق. حتى إنه عبَر سنوات الحرب العظمى غائبًا عمَّا يجري في حياة إخوته، فلم يُساند فاضل أفندي بدرجة تُذكَر، وتلقَّى خبر انتقال أخيه مختار لجوار نعمات في البلدة البعيدة بفتورٍ تام. حتى خبر توقيع الهدنة التي أنهت الحرب مع تساقُط تيجان الملوك، لم يشغل باله أو يستعِد أمله، فقد صارت مصر سلطنة محشورة في جعبة الإنجليز، لا تحفل بأشرافٍ ولا تعترف بأصل.

مضت شهور طال خلالها غيابه عن الست أم صدقي، حتى شكَّت في دنُوّ أجلها فأرسلت في طلبه. صار يُقدِّم رِجلًا ويؤخِّر أخرى، حتى تفاجأ باندلاع شغب الطلبة في كل مكان، وانتقال عدوى الشغب مع الهتاف من حي لآخر. تناهَت إليه صيحات الاستقلال والموت في حي الأزبكية الهادئ الراقي، والإنجليز الملاعين يُطلقون النيران على كل مَن يهتف بحياة سعد. وفي ثالث أيام الجنون، أخبره رجاله بزحف الهتاف صوب الموسكي والجمالية، وقتْل الخارجين من صلاة الجمعة أمام مسجد الحسين. خشِي أن يُصيب مكروه بيت الخرُنفِش، خاصة بنات أخيه فاضل وابنه الصغير محمد، فمن الجائز أنهم يخرجون للعب في الأرض الفضاء المتاخمة للبيت. ملأ السيارة بالزيارات كيفما اتفق، وانطلق قاصدًا حي الجمالية. هاله ما رآه من تحطيم في واجهات المحال ومن تلفيّات في محطة الترام بميدان الأوبرا، ثم كانت الصدمة الكبرى حين شارف حي الحسين، وعاين الكر والفر والحواجز الخشبية والمتاريس التي أقامها المشاغبون في مداخل الطرق، ذُهِل لسماعه فرقعات الرصاص التي دوَّت في كل اتجاه؛ كيف تصاعدت الأمور هكذا، وقد قرأ إعلان الإنجليز وقف إطلاق النار في جريدة المقطم قبل خروجه من الكراكول؟!

أقبضَت صيحات الفزع صدره فوق دَوِي الرصاص. ترك سيارته بمحاذاة المتاريس، ومضى على قدميه مارًّا بمدخل الشارع الأعظم، هناك وجد خندقًا حفَره الطلبة المجانين لمنع مرور المدرَّعات لقلب الجمالية. صاح في بعضهم فلم يلتفتوا إليه. خلع طربوشه وأخذ يقفز فوق الحواجز، تمزَّقت ساقه بسيخٍ حديديٍّ كان مزروعًا بين عِرقَين من الخشب. صرخ في الفتيان من جديد: «أفسِحوا طريقًا للعبور.. مَن سمح لكم بعمل المتاريس؟!» صرخة فأخرى، فصوت طلقٍ ناريٍّ يشقُّ الهواء، فصمت أبديّ.

جيل يحصد ما أنتجه السَّلف.. نحن الجيل الحاصد يا أبتاه، نحصد كل شيء؛ ليس المال فقط، ولا الأرض، ولا البيوت، بل الهزيمة.. وغِمامات الأعين، والهتاف الضائع في الفراغات. حتى الجينات نحصدها، والدماء المسمَّمة بهوس البحث عن الكنوز، عن الوعود الجسام، عن المذنَّبات الضائعة في الفضاء، والأيام تحملنا كما عربة قطار، نشعر داخلها باستقرار نسبي؛ بعض الخضخضة ربما، الاهتزاز، هذا كل شيء.. بعض الروائح النتنة بين الحين والآخر، أو الصدمات العابرة، لكنْ ثمة بطء وسُكون يسمح لنا بالبحث في دورات المياه الآسنة، وأسفل المقاعد المخلَّعة، علَّنا نجد الكنز مختبئًا هنا أو هناك، علَّ القرد يكون قد مات.. وكلما توقَّف القطار في محطة ما، أرى انعكاس وجهي على الزجاج الثابت، ويهولني ما طرأ عليَّ من تحوُّل دونما انتباه؛ تحوُّل مفزع، يُشعرني بأن عليَّ اللحاق بشيءٍ فائت، أتسلح بعينين مُفنجلتين لما تبقَّى من زمن الرحلة.. لكنْ؛ ثمة محطة سأُدفَع عندها لخارج القطار، سأترك ولدي وحيدًا يستكمل الرحلة، بلا كنز.. بلا أمل.. ولدي الذي يتأهب لخَوض اختبار «أيلتس» للغة الإنجليزية، تمهيدًا لدخوله الجامعة بعد عامين.

أشارك الولد خطوة بخطوة، أُحمِّل اختبارات الأعوام السابقة من موقع «أيلتس»، أوصل اللابتوب بالطابعة، أطبع نسختين، أضع إحداهما على مكتب الولد بجوار أقلامه المبعثرة، مُتمنيًا له التوفيق في اختباره الذي سيخوضه لأول مرة؛ أُطمئنه أن بإمكانه إعادة الاختبار كيما يُحرِز النتيجة المطلوبة. تستغرب زوجتي من لهجتي اللينة معه، أنا الذي عادةً ما أشدُّ عليه في أمور المذاكرة حتى يبذل ما في وسعه، تتساءل: «لماذا تأخذه برفق هذه المرة بالتحديد؟»، لا تعرف أمر النسخة الثانية التي طبعتها لنفسي، واحتفظت بها في درج مكتبي، حتى أتدرب عليها مساء كل يوم حين يخلدون للنوم، لا تعرف أني سأخوض نفس الاختبار، حالي حال الفتى الصغير، وكما سيقوم هو بتقديم نتيجته لإدارة الجامعة، سأقوم أنا بإرفاق نتيجتي وشهاداتي القديمة ومستنداتي البالية، مع نموذج إبداء الرغبة في الهجرة.

ترتعد زوجتي فرَقًا كلما طرحتُ عليها فكرة الهجرة؛ ولشراء تذكرة الأمان في المقعد المجاور لأبيها اللواء السابق، تُقدِّم لي العديد من القرابين.. مثلًا، تتصنَّع الملل من الخروج مع صديقاتها، لكيلا تثقُب الميزانية في موضع إضافي، كما تدَّعي الحرص على وقتي «المضغوط»، فتستغل السيارة المخصصة لأبيها والسائق الخاص في أغلب المشاوير، دروس الولد الخصوصية، تمارين النادي، التبضُّع من

السوبر ماركت، فيحدث الكثير بمعزلٍ عني وعن جيبي الذي ضمُر كثيرًا مع الوقت، حتى إنها تخلَّصت من تعلُّقها القديم بالتمرين يوميًّا في صالة الجمنيزيوم، واستبدلت به الركض على جهاز منزلي، والتمرين أسبوعيًّا خلال اليوم الذي تقضيه بصحبة أبويها في المجمَّع السكني، فحذفت بهذه البادرة بندًا آخر لا لزوم له.

كنت قد تعرَّفت إليها قبل سبعة عشر عامًا في صالة جمنيزيوم المجمَّع السكني، حيث فيلَّا أبيها لواء الشرطة وأمها الأستاذة الجامعية. عملت في هذا المجمَّع خمس سنوات متصلة قبل التعرُّف إليها، فقد كان مكتبنا أنا وشريكي أحد ثلاثة مكاتب مقاولات قامت من الباطن ببناء المجمَّع، كما تعاقدنا على إنشاء النادي الخاص وتنفيذ الملاعب، وبذلك استمر تعاقدنا ساريًا حتى بعد تسليم الفيلات إلى المُلَّاك. ونظرًا لتواجدنا بداخل المكان لسنوات، فقد أحطنا بكل كبيرة وصغيرة تخص المشروع، ومن تعاملنا الدائم مع الإدارة الهندسية، عرفنا حدود ما يمكن تمريره من تعديلات معمارية بداخل الفيلات، أو التجاوز عنه من إضافات خارجية، فصرنا الأجدر بثقة الملَّاك والأقدر على وضع التصميمات والقيام بالتشطيبات، بل والحصول على أكبر قدر من المكاسب الممكنة وغير الممكنة في بعض الأحيان، من فم الإدارة الهندسية واستشاريّي المشروع، فاستمررنا نعمل فيه حتى مللناه.

كنتُ أتواجد لساعات كل يوم داخل المجمَّع، يضيع بعضها في انتظار عميل يتأخر عن الموعد، أو استشاري هندسي يتلكَّأ في الاستلام واعتماد المُستخلَصات. أجلس على كرسي بلاستيكي بجوار أقرب شباك بحريّ، وأفتح اللابتوب؛ أُنهي أحيانًا بعض التصميمات، أو أقرأ القصص والروايات، وأُسرف في التدخين. وذات نهار حار طويل، وفيما أرفع قياسات ملعب الكرة الخماسية بداخل النادي وأحسب كمية النجيل الصناعي المطلوبة، فكَّرت في استغلال الوقت المُهدَر في الركض حول المضمار، أو في التريُّض في صالة الجمنيزيوم ذات التكييف البارد، سألت إن كان مُصرَّحًا لغير السكان بالاشتراك في النادي الخاص، وكنت على صلة بالمديرين وأفراد الأمن، فقيل إنني مَن أنشأت النادي من الأساس، ويمكنني الدخول في أي وقت. وهكذا صار النادي ملجئي اليومي من حرارة الجو وملل الانتظار؛ أضع ملابس التمرين والصابون وكريم الشعر في حقيبة الظهر، وأنتهز الأوقات لأدخل صالة الجمنيزيوم المكيفة، كي أستعيد صلابة جسدي وأُذيب توتر العمل في كمٍّ هائل من العرق، ولا بأس من بعض المكالمات فيما بين التمارين.

وذات مرة، وفيما أتمشّى بداخل الجمنيزيوم ماسحًا بكرامة مقاول الرخام أرضية الصالة عبر الهاتف، دخلتْ هي.. طويلة، رشيقة، ذات شعر غزير ينساب لما تحت الخصر الضيق، في عبوسها الطفيف جذِّيَّة تناسب الظرف. وضعتْ حقيبتها في ركن الصالة، وسماعة هاتفها بداخل أذنيها، وارتقت أقرب جهاز للركض. صرت أراقبها فيما بين عبارات التقريع لمقاول الرخام، أتلفَّت كأنني أتميَّز غيظًا، وأخطف النظرات لجسمها الممشوق، وارتجاجاتها الهينة تحت سروالها الرياضي الضيق والتيشيرت الشفيف، أقسو أكثر من اللازم على المقاول المسكين، حتى تُعزِّز القسوة عضلات صدري الأكثر بروزًا الآن، وذراعيَّ المنتفختين على نحو لافت. خلعتْ بعد قليل سماعة الأذن وخفَّضت سرعة جهاز الركض، وراحت تتقصَّع بأنوثة خافتة، حتى أنهيت المكالمة.

كنت في طريقي عائدًا إلى حامل الدمبل والأوزان حيث تركت فوطتي، حين استوقفتني: «حضرتك مهندس رخام؟»، تبسَّمت مُستغربًا صياغة السؤال، وقلت: «أي نعم، مهندس رخام وسيراميك وأبواب وشبابيك وكل حاجة»، فقالت: «آسفة، قصدي تقدر تساعدني في مشكلة لها علاقة بالرخام؟»، فتعارفنا. بدَّلنا ملابسنا وقدت سيارتي خلف سيارتها حتى فيلَّا اللواء، واضطررت لصفِّ سيارتي أمام الفيلَّا المجاورة لمفاداة كشك الحراسة والأقماع البرتقالية، فيما انحدرت سيارتها لداخل الجراج، لتظهر هي بعد قليل أمام البوابة، «تفضَّل يا باشمهندس»، هكذا استعدت لقبي الأشمل، وهكذا عاينت بيتها ورخام مدخله الذي نتأ من مكانه، عرضت المشكلة: «ركّبناه منذ خمسة أشهر، والآن شُف منظره!»، تأمَّلته بحسرة بالغت في إظهارها، وقلت: «صنايعي حمار».

احتجت للحمار الآخر الذي سمَّمت بدنه قبل قليل على الهاتف، وبعد أيام كنَّا نفكُّ رخام المدخل، ونزيل طبقة الرمل الملوَّث بقطع صغيرة من الجبس، انتفشت بفعل رطوبة الأرض وتسبَّبت في خروج الرخام من مكانه. تعرَّفت أيضًا لوالدها سيادة اللواء، واستقبلني عدة مرات في غرفة مكتبه بالطابق الأرضي؛ أُعجِب الرجل بتأدُّبي وبشهادتي الجامعية التي تكلَّفت ما يُعادل راتبه لعشر سنوات على الأقل، ففتح لي باب التقدُّم لخطبة ابنته الجميلة بنت الناس.

مضت الأمور بأسرع ممَّا توقَّعْت؛ زواج، فإنجاب، فحياة تتبدَّل على نحوٍ عجيب، فتأخُّر للحمل الثاني يُقلق المحيطين المنتظِرين مجيءَ بنتٍ في حلاوة مامتها، فصدمة يكشف عنها جهاز السونار.. «نحتاج لإجراء منظار مهبلي، وربما نأخذ

عينة من عنق الرحم»، قال طبيب النساء كأنما يخاطب شاشة الجهاز والأشباح التي تتخايل أمامه، فتركنا للأشباح مهمة الرد، وبقينا صامتَين.

أصدر حماي فرمانًا بانتقالنا لفيلَّته، وخصَّص لنا جناحًا للنوم يطل على البحيرة الصناعية والشجيرات المزهرة، وصار يُحدِّثني كزًّا على أسنانه، كأنني السبب في إعطاب رحم ابنته، ومضى يدير الدفَّة مستعينًا ببوصلته الخاصة، رافضًا جميع مقترحاتي بخصوص الأطباء أو سبل العلاج؛ سيُستأصل الرحم بكامله، وليس الجزء المسرطن فقط، أو حتى عنق الرحم والأنسجة المحيطة به؛ هذا قراره النهائي أيًّا كانت آراء الأطباء، فلن يترك للسرطان ثغرة يعود منها لمهاجمة ابنته، «عندكم ولد، ما الضرورة للخلفة ثانيًا؟ والجراحة في مستشفى الشرطة نهاية الأسبوع».

وزوجتي ممَّن يُقدِّسن آراء الآباء والنسور والسيوف المتقاطعة، لذلك مضت في رَكبه دون استماع لأحد، وكانت حالتها المعنوية لا تسمح لي بالضغط عليها؛ أُجرِيَت الجراحة، وأُلحِقَت بعلاج إشعاعي وكيماوي لمدة عام، أمضته زوجتي في بيت أبيها وحوزته، وتناثر الكثير من شعرها الغزير فوق المخدّات، حتى صارت تضع وقت حضوري غطاءً للرأس!

تلهَّيت بعملي أكثر من أي وقت، وصرت أذهب لفيلَّا اللواء بغية السقوط مباشرةً في النوم، فلا أراه ولو لصُدفة عارضة، فقد صار لا يبرح مكتبه لا في الوزارة ولا بداخل البيت، خاصة حين ماج الثوار موجًا كاسحًا لا ارتداد بعده، فأمسى اللواء يخرج دون حراسة في ملابس مدنية ورياضية، لا أدري إلى أين، لكنه ظل يُخلِّف وراءه اضطرابًا مشحونًا في جنبات الفيلَّا، واتهامات تتردَّد من ثلاثة تلفزيونات مفتوحة باستمرار، ومن أفواه لا تكُفُّ عن كيل الشتائم والدعوات على مَن هم في شجاعة شريكي الغائب في الميدان.

لم يقبل حماي بمساعدتي في العثور عليه وقت اعتقاله، وراحت زوجتي تأسف علنًا على صداقتي به، بل وتعترض صراحةً على تكبُّدي عناء فتح بيته ومراعاة أسرته، وصارت الهجرة التي أقدم عليها بعد سنتين دليلًا قاطعًا على صدق حدسها ومزاعم أبيها، وإمعانًا في تتبُّع الأجندات الدولية التي يقرأ فيها ليل نهار، بل إن تركه لشراكتي وقد كان عماد شركتنا بعلاقاته ومعارفه، لهو وسيلة ضغط يريد بها إخضاعها هي وأبيها، وما يمثلانه من حائط صدٍّ فشلوا في اجتيازه لسرقة البلد. والآن، يريد أن يجرجرنا وراءه، الوغد! ومتى؟ بعدما شمَّت البلد نفَسها وبدأتْ تفيق!

ربما يتوجَّب عليَّ أن أمضي وحيدًا، بدونها وبدون الولد، فالقطار ماضٍ في طريقه الحتمي لن يُثنيه شيء، يطحن الأحلام دون صخبٍ يُذكر، لا تشغله المانشيتات، لا يُخفِت ضجيجَه صياحُ أحمد موسى، عالمي يهرع إلى الخلف، لا يمكنني الإمساك به، كل ما أستطيعه هو النظر إليه عبر زجاج القطار الأصمّ؛ البيوت الشائهة تتكاثر، حالها حال البشر، مياه النيل تغور حتى تمسي لا مرئية، القمامة ترتفع كأنها علامات الطريق.. لا أعرف شيئًا يربطني بهذا العالم الممسوخ، إلا حاجتي للكتابة عنه.. هل ثمة رابط آخر لا أدركه؟ يمكن، ولا سبيل أمامي لاكتشافه غير الكتابة؛ لولاها لكان القرار أسهل كثيرًا.

«ما أخبار الكتابة؟»، تسألني أمي حين نكون منفردَين، أجيب: «يعني، مرتاح منها شوية، أترقَّب آراء القراء في المجموعة القصصية، هذا كل شيء»، تقول: «يعني متوقف تمامًا عن الكتابة؟»، أظنها ترمي لشيءٍ محدد، لا بد أن أبي حدَّثها عن فكرة روايتي المبنية على سيرة العائلة، أقول: «ليس تمامًا، أتسلى أثناء فترة الراحة بتدوين قصص الأجداد»، تتصنَّع الدهشة وتومئ بالإعجاب، فيما أفكِّر: لن يكون في صالحي الآن لو تدخَّلت أمي، يكفيني ما أنا فيه من شَتات؛ إنه أول نص روائي أشرع جديًّا في كتابته.

ذات يوم سأصطدم معها بسبب الرواية؛ ستقول: «جدي صدقي مات شهيدًا، حتى أبوك يعرف ذلك»، سأرد بارتباك: «ماما، لا أحد يعرف الوقائع بحذافيرها.. أو لأكون أكثر دقة: ليس هناك واقع وحيد تتفقون عليه، جميعكم ينقل ما انطبع في ذاكرته من وقائع، ويملأ الفراغات من خياله». ثم أقول بحسم: «هذا ما سأقوم به: سأجمع ما يمكنني جمعُه، وأسُدُّ الفجوات من خيالي».

قطعًا لن يُعجبها كلامي. في ذهن كلٍّ منَّا حقيقة وحيدة يرتضيها ودونها الكذب، فيما لا أصدِّق في وجود حقيقة من الأساس؛ جميعها تصوّرات، روايات، ولست مستعدًّا للتنازل عن روايتي لكي أُطابق تصورات أحد.

تتذكر أمي صورةً قديمةً لجدها صدقي بيك الحكمدار. كان يرتدي بزَّة رسمية، ويُمسِك بقبضة سيفٍ رشيق، النياشين تُزيِّن صدره، والسيور الذهبية معقودة أسفل كتفيَّته، والطربوش يميل ميلًا هيِّنًا جهة اليمين. «وجهه مُضيء كالبدر»، تقول أمي، وتجزم بأن صدقي بيك مات شهيدًا أثناء تصدِّيه للإنجليز، ما أراه تحويرًا غير منطقي لنهاية الضابط الموالي للسلطة منذ الأزل، كما أنه قُتِل بعيدًا عن دائرة القسم الذي ترأَّسه، غير مُصاحب بعساكر ولا ذخيرة إلا سلاحه الشخصي، فضلًا عمَّا يرويه أحد أقاربنا من جيل أبي، من أن سيارته الفورد السوداء وُجِدت في اليوم التالي لمقتله عند مدخل الشارع الأعظم، ملآنةً بالزيارات والهدايا التي لا بد وأنه كان يحملها لأمه.

أعتمد رواية أبي، وأعود للكتابة.

***

مدَّ الطلبة عروق الخشب عبر الخندق، وحملوا صدقي بيك فوق أكتافهم حتى وصلوا إلى سبيل كتخدا، وهناك احتموا أسفل مظلته البارزة من رصاص الإنجليز.

استدعوا طالبًا بمدرسة الطب ليُعاين الرصاصة؛ كانت قد أحدثت ثقبًا أسود أسفل صدره، تدفَّقت منه الدماء كنبع فوَّار. ضغط الطبيب الصغير مصدر النزيف وبيده الأخرى تحسَّس النبض؛ سرعان ما تفلطح الصدر وخبَت نبضات العروق بلا عودة.

تزاحم الناس حول القتيل، صاح أحد صِبية المقهى الخاوي من الزبائن: «دا الحكمدار! قتلوا البيه الحكمدار!» انتشر الخبر مُستدعيًا كلَّ مَن تصادف وجوده، حتى أشار أحدهم لبيت الحكمدار المجاور لدار كسوة الكعبة في شارع الخرُنفِش. «لا حول ولا قوة إلا بالله»، «الرجل الكبَّارة».. زُفَّ صدقي فوق أكتاف الرجال الذاهلين المهللين حتى بيت أبيه الشيخ، عاد إليه بعد غياب، ونام بمحاذاة الفسقية المعطَّلة حيث بقايا الأوراق التي قام بإحراقها، فاشتمَّ الرجال رائحة الحريق وحسبوها من أثر الرصاصة، وانهالوا بلعناتهم على الإنجليز والحرب والبارود.

كانت الخادمة مَن فتح البوابة المرتجة تحت خبطات الرجال، وكان الأطفال أول مَن أقبل على الحوش وأبصر المشهد الدامي، ازدردت كبرى بنات فاضل ريقها الجاف، وجذبت أخواتها عائدة بهن لجناح جدتها الست أم فاضل، فيما توارى أخوها محمد خلف جدار البئر، وراح يرمق الجثة الدامية من بعيد ويتساءل إن كانت فعلًا لعمِّه الأكبر صدقي بيك، وما إن دلفت الست أم صدقي لداخل الحوش، مُحاطةً بالخادمات، مكشوفة الرأس جاحظة العينَين، حتى أدرك محمد الصغير فداحة المصيبة. كان لقاءه الأول مع الموت، مع شقِّ الثياب وحَسو التراب فوق الرؤوس مرات ومرات، مع اللطم والصراخ ومُعاتبة السماء. قبَضَته أمه هنّومة من طوق جلبابه، وكادت ترفعه عن الأرض بينما تجرجره لداخل الجناح وتدفع به بجوار أخواته، «إيَّاك أن تُعتِّب خارج الحجرة!»، صاحت مُحذرةً بجماع خوفها، وهرولت صوب حجرة حماتها الست أم فاضل.

ضمَّ الشؤم بيت الخرُنفِش ضمَّة شديدة لا فكاك منها؛ مُنِع الأطفال من اللعب خارج البيت أو بداخل الحوش، وضرب البرد أجواف الأفران والخرس أفواه البوابير، فلم تعُد رائحة الطبيخ تبعث الرغبة في الحياة. عمَّ الصمت والسواد أرجاء البيت، حتى فاضل امتثل للغم، فصار لا يُرى خارج البيت إلا ذاهبًا لعمله أو عائدًا منه. ما عاد بالخارج ما يستدعيه، فأكثر المسارح أُغلِق مع تصاعُد العنف، وصار أصدقاؤه لا ينتظرون حضوره في المساء، حتى الجرامافون أصابه الخرس، وتوارى الغناء عن فاضل كحُلم غامض قديم. حاولت هنّومة الترويح عنه، صارت تُكثِر من الحديث وتزيد من شدَّة الإضاءة عند حضوره، تصرِف الأطفال بعيدًا عن حجرته،

ترتدي قمصان الحرير الملونة، وتزيّن ساقها البيضاء الملفوفة بخلخال من الخرز، أو تنتعل شبشبًا ذا كعبٍ يطرق في صدره ناقوس الرغبة، ثم تُدندن: «يا حليوة يا مسلّيني»، بنبرة نشاز تُضايق أُذنه المرهفة، مثلما تشرح قلبه الظمآن للمَغنَى.

أما الست أم صدقي فقد جُنَّ جنونها بعد موت ابنها البكر، فصارت تشتاط غضبًا بلا مناسبة، وتشتم الغادي والرائح بأقذع السباب، بل إنها صارت تقذف الخادمات إذ يعبرن بجناحها بأي شيءٍ تطاله يداها، وتُهدِّد «عَمَّال على بَطّال» بصدقي بيك الحكمدار وقسوة انتقامه، ما جعل الست أم فاضل تأمر الخدم بنقل الأزيار إلى مدخل البيت لصق البوابة، حتى لا يضطر السقاء للمرور عبر الحوش، فقد تناله مقذوفة عشوائية تطير من مشربية قاعة جلوس الست أم صدقي. حتى دير الشهيد العظيم مارجرجس لم يسلَم من قذائفها ولا شتائمها البذيئة، فقد كانت تقف في شباك غرفة معيشتها في مواجهة الدير، وتكيل الشتائم للإنجليز إذ يتصادف مرور مجموعة من الرهبان البيض، فلا يتمكن أحد من سحبها لداخل الجناح باستثناء نعمات، التي قطعت إقامتها في البلدة البعيدة عند وفاة أخيها صدقي، وصارت تُقيم هنا وهناك بالتناوب. «تعالي يا ماما.. يرضيكِ صدقي بيه يجي ويلاقيكِ على دا الحال؟ هيا بنا نستحم». هي الوحيدة التي لم تقذفها الست أم صدقي بشيءٍ قط، شتمتها غير مرَّة فلم تغضب نعمات، بل ضاحكتها كأنما تتبادلان المزاح. صارت لا تأكل إلا من يد نعمات، تقبل مرة وترفض مرّات، فلا تُصيب إلا وجبةً كل عدة أيام، وفيما عدا ذلك تشرب القهوة فحسب، وتنام في مكانها في وضع الجلوس بعينَين نصف مغمضتَين، حتى ظن الجميع أنها لن تعيش طويلًا.

لكنها كابدت الحياة ما استطاعت، ظلت على جنونها لعدة أعوام، وأمست هزيلة كعود الغاب. وذات يوم طلبت فاضل، فحضر مُهرولًا مُتمتمًا بالدعاء، «استُرها يا رب»، صار يقول، وامرأته هنّومة تلطم خدها بلطف وتتوقع الأسوأ. «تأمرين بحاجة يا أمي؟»، سأل أم صدقي واقفًا عند عتبة قاعة جلوسها، فأومأتْ إليه بأن يقترب. دنا منها وقلبه يرتج كقربة ماء، يكاد يسقط بين ساقيه، أشارت بإصبع جافة كعود البخور نحو الجرامافون، وقالت: «شغِّل هذا، صدقي يُحبُّ الإنصات إليه»، انتابته رعشة في أطرافه، وبصعوبة أمكنه تشغيل الجرامافون، كانت أم صدقي قد أغلقت عينَيها وأخذت تميل برأسها يمنة ويسرة، فتسلَّل خارجًا من القاعة مع النغمات، حتى استوقفه صوتها المحشرج: «افتحوا الهوّايات، البيت رائحته مكتومة، صدقي بيك سيقصم رقابكم حين يصل!»

خبَّ فاضل خارجًا من القاعة، من الجناح كله، ودَّ لو يخرج من البيت أيضًا فلا يسأله أحد. كانت هنّومة في انتظاره ولا زالت تُربِّت خدها برفق، سألته: «كيف حالها؟»، فتناول قُلَّة الماء من جلسة المشربية، وحسا منها جرعة هائلة بلَّت طوق جلبابه، ثم قال: «يظهر أنها تُودِّع».

أستطلع نتيجة اختبار «أيلتس» في المركز الثقافي البريطاني، أجدها قد تخطَّت توقعي بمسافة تدعو للفخر؛ يبدو أني سأودِّع عمَّا قريب.. أسارع بإدخال النتيجة في الحاسب الآلي لموقع «ڤيتا أسِس» مع باقي البيانات المطلوبة، يُبشرني الموقع بارتفاع أسهمي بين المتقدمين برغبات الهجرة لأستراليا، كوني مهندسًا ومتزوجًا ولديَّ ابن، فوق ما أملك من مهارة لغوية تبدَّت في نتيجة «أيلتس»، وتسامُح إثنيّ وثقافي أحسنت إبداءه في أجوبتي على استمارة التعارف. تفعمني الغبطة، تجذبني من طرف كُمّي، فيما تُمسك الرهبة بالكُمِّ الآخر. مَن لي ليُقاسمني سعادة اللحظة واضطرابها المحموم!

في المساء أبعث رسالة لشريكي المهاجر، أُطمئنه كما وعدته قبل أسبوعين: «نتيجة الأيلتس تمام التمام.. الظاهر سألحق بك قريبًا»، يُجيب بإبهام مُنتصب للأعلى عوضًا عن الكلمات، يبدو أنه استيقظ لتوّه من النوم، وبرغم ذلك أزيد عليه: «لكنْ عليَّ أولًا أن أفرغ من كتابة روايتي الأولى. بدأت الكتابة بالفعل، أظنها ستُعجبك»، أُذيِّل الرسالة بثلاثة وجوه ضاحكة؛ أُلاحظ كيف يعكس شكلها سعادتي، فيما يفضح تكرارها اضطرابي الناشئ. أما هو فلا يُجيب. أستاء من نفسي، من تسرُّعي. أنهض في الصباح شاعرًا بألم في أسناني؛ يبدو أنني كزَزْت عليها طيلة الليل. أحتاج لأن أفِشّ غِلّي في الكتابة.

أُرتِّب لزيارة العم زين، قريبنا الذي تقول أمي إنه يحفظ التاريخ كله، ما يبدو لي دقيقًا لحد كبير حين ألتقيه، بل إنه الوحيد الذي أسمع منه حكاية جدي الثامن والعشرين، إدريس الأكبر الفاتح، الذي لم يسمع به لا أبي ولا خالي. يحكي العم زين كيف أفلت الجد إدريس من مذبحة أعدَّها له العباسيّون، مع مَن تبقّى معه من آل البيت، فصار ممَّن أمكنهم الهرب إلى المغرب، وهناك وجد مَن يُبايعونه خليفةً للمسلمين، فأسَّس دولة الأدارسة التي سبقت دولة الفاطميين بقرون، وأنشأ مدينة فاس العظيمة.. يصِف لي العم كيف استطاع هارون الرشيد أن يغتال جدنا إدريس في النهاية. «هارون الرشيد؟!»، أسأله مدهوشًا من غرابة حكايته، فيقول: «أي نعم، هارون الرشيد هو قاتل جدّك إدريس الله يرحمه». أُمسِك عن الضحك خشية أن يظن بي السخرية من كلامه، وأشرد مُتخيِّلًا هارون الرشيد وقد أزاح من حوله الجواري وعن رأسه العمامة الكبيرة المرصَّعة، واندفع يركض وراء جدي إدريس - الذي يُشبه في هذياني جدي محمد بن فاضل - لكي يجزَّ عنقه بسيف عريض

ينتشله من يد مسرور السيّاف.. أُحدِّث نفسي بأنني لو نقَّبت أطول من ذلك في تاريخ عائلتي، لربما وجدت السندباد أو الملك شهريار بين قائمة الجدود.

يستمر العم في قصِّ أعاجيبه ببساطة إيجاز مباراة للتنس، وبصوت جهوَري له حِسٌّ مسرحي، يتردد من أشجار الحديقة المواجهة لبيته في مصر الجديدة، فيما نتمشى تمشية العصاري طبقًا لروتينه اليومي الذي أخبرني به، يُلقي السلام على بائعة الذرة المشوية، ويُخرج من جيبه حبّات البونبون إذ يتحلَّق حوله أولاد البوابين، من البنايات المحيطة بالحديقة. أتأمَّل هيئته العجيبة مع كل توقُّف؛ قبعة الجاز الأنيقة، والبدلة الكتّان الصيفية المحبوكة، والعصا الأبنوس الدقيقة ذات المقبض العاج، التي يضرب بها الحصى دون أن يتَّكئ عليها، يبدو كما لو كان مُنتزعًا من زمنٍ آخر لا يقل غرابة عن حكاياته. أسأله فيما يقضم حبات الذرة بأناقة قبطان يُشارف جزيرته: «حضرتك من فرع نشأت، صح؟»، يقول: «آه طبعًا، ألم يقُل لك أبوك؟»، أُؤكد أن أبي أخبرني بكل شيء، لكن العائلة كبيرة وفروعها متشعبة ومتشابكة، والذاكرة ما عادت تُسعفني في استحضار التفاصيل وقتما أحب، لذلك أحتاج لتدوينها كتابةً.. يميل بجذعه إلى الخلف قليلًا ويرمق السماء، بابتسامة مَن وجَد السعادة الحقَّة، ويومئ برأسه طويلًا كأنما يُبارك نبيًّا سيخلفه.

***

العم زين حفيد الأمير الاي نشأت، الشقيق الأصغر لفاضل ومختار والست نعمات. كان نشأت وسيمًا شغوفًا بدهان شعره والاعتناء بأناقته، يحسبه الناس سليل أمراء حين يلتقونه، فقد ورث أكثر قسمات أمه التركية وخصالها النبيلة والسيئة معًا، فلم يفُته صلفُها وعنجهيَّتها، ولا نشاطها وإقدامها المشهودان، فصار نسخة الست أم فاضل الرجولية، بجمالها وعِنادها وكبريائها الأصيل.

توسَّم فيه أبوه الشيخ أول ضابط جيش يدفع به لسجلِّ العائلة المسطور بأسماء التجار والمشايخ، فسعى لإلحاقه بأولى دفعات المدرسة الثانوية الحربية في كوبري القبة، واصطحبه بنفسه لداخل مبناها المتواري خلف سورٍ عالٍ وبوابة هائلة، آملًا أن يصنع منه قائدًا عسكريًّا يُعزِّز مكانة العائلة فوق ما أنجزه الابن الأكبر صدقي بيك الحكمدار، وما كان ليتصوَّر أنه يصنع من صغيره رجُلًا ذا كبرياء شديدة، وعاهة مستدامة في الوقت نفسه.

تخرَّج نشأت ضابطًا يافعًا جميل الطلعة، أطلَّ عليه أبوه الشيخ من فوق مصطبة احتضاره المغطاة بالكليم، فيما تُحلِّق أمه الست أم فاضل وراء كتفَيه بمبخرةٍ نحاسيةٍ

تفوح بالأريج، وكانت أول مرة تدخل فيها جناح ضرَّتها الست أم صدقي، منذ شقَّ عيشهما خلاف البيت. تمادت الأخيرة وتوارت في حجرة نومها كي لا تهنّئ الولد، واكتفت بأن أرسلت صينية شرْبات مع خادم صغيرة، وما كانت الست أم فاضل لتغفر لها وقاحة كهذه، لولا أن غفرت لها جميع إساءاتها دفعةً واحدة، حين انتابها الجنون.

وما إن استبدل نشأت بأول رُتَبه كتفيَّة الملازم الأول الأكثر أناقة، حتى جُنَّ الأورُبِّيون وانهالوا بمدافعهم فوق رؤوس بعضهم البعض، ما جعل الإنجليز يضطربون ويحمرّون فوق احمرارهم، ثم أخذوا يضمّون أطراف إمبراطوريتهم ويتربَّعون بها فوق رقعة مصر؛ الإنجليز في المعادي، النيوزيلنديون في هليوبولس، الأستراليون والهنود في صحراء الأهرام، بينما حوَّلوا أحياء الإسكندرية وشوارعها لقاعدة عسكرية ومستشفى مفتوح. ومع تواتُر أنباء الحرب، تملَّك الست أم فاضل قلق مبهم، مبعثه تلك التحوّلات الدقيقة التي تطرأ كل صباح في قعر فنجان القهوة، حتى إنها أضافت لروتين يومها فنجانًا مسائيًّا غير مُحلّى، فإما أن تمضي ليلتها بهدوء بعد قراءته، أو يُناوشها الأرق. استعانت أيضًا بما يتناقله كبار الحي من أنباء الحرب العظمى، فكانت توصي السقاء بجمع نُتَف الأخبار من البيوت والدكاكين وجلْبها مع ماء الصباح كل يوم، حتى حدَّثت ابنها البِكر فاضل بمخاوفها ذات مساء، فقالت: «أخشى أن تمتدَّ الحرب حتى تطالنا»، فاستشعر قلقها على نشأت الصغير، وقال إن الحرب قامت بين الأورُبيين ثأرًا لمقتل أمير من أمرائهم؛ ماذا يجيء بهم ليتعاركوا عندنا، ولديهم قارة بأكملها يتقاتلون فيها؟! لكنْ لم يُرِحها كلامه، خاصة وهذه الجيوش تحتشد يوميًّا في قعر فنجانها وفوق صفحات الجرائد. ثم بلغ الرعب ذروته حين أعلن الأتراك مناصرة الألمان، ربما حدث ذات ليلة أن حثَّها الفنجان المسائي على التفاؤل قليلًا، إذ تمنَّت لو يُخلِّصها الألمان مع أهلها الأتراك من نجاسة الإنجليز والخراب الذي يجرّونه على البلاد والعباد، لكنَّ عموم مخاوفها ظلت تتلبَّد كل ليلة.

أما ما وقع حقيقةً، فكان أسوأ من جميع ما ساورتها به القهوة أو تناقله الجيران، إذ أخذ غياب الولد يطول في المعسكرات، ولم تعُد تراه إلا لليلةٍ يبيتها فيُعاود الرحيل قبل طلوع النهار، حتى أخبرها ذات ليلة بتكليفه بالذهاب صوب الحدود الشرقية، سألته والقلق يُثقِل لسانها: «أين يا بني هذه الحدود؟!»، فقال: «الإسماعيلية يا أمي،

أو القنطرة، لا أعرف بالتحديد. سنحمي القنال على كل حال»، سألته وقد سقط قلبها في حِجرها: «تحمونها مِمَّن؟!»، فلم يعرف بِمَ يُجيب.

رحل نشأت، وذهب التفاؤل في إثره إلى الأبد، لم يبقَ غير فناجين القهوة السادة التي صارت بلا عدد، وصفحات الجرائد المفرودة طيلة الوقت فوق المناضد، علَّ نعمات تُفسر من كلامها العويص أيَّ خبر، أو تُخمن الست أم فاضل في المساحات البيضاء الفارغة خبرًا محذوفًا أمر الإنجليز الملاعين بحَجْبه عن الناس. فقد أعلن الإنجليز انتزاعهم لمصر من هيمنة الأتراك، فلم يعُد للعثمانيين وجود بعد اليوم، وتحولت مصر لسلطنةٍ يحميها البريطانيون، ففهمت الأم بحدسها ما لم تُفصح به الجرائد أو ترسمه بقايا القهوة؛ لقد صار الإنجليز الذين يمضي أصغر أبنائها في رِكابهم أعداءً لأهلها الأتراك، وربما يدفعون بالولد الصغير لقتال أخواله.

أبرق فاضل لعددٍ من معارف أخيه صدقي بيك، يرجوهم في سؤال النُّظار وكُبارات البلد عن أخيه نشأت، ويُناشدهم أن يأتوه بخبر يُطفئ نار قلبه وقلب أمه، لكن الرد تأخر طويلًا؛ ويوم جاء، كان قلب الست أم فاضل قد احترق فعلًا وصار مُهيئًا لتلقّي المصائب أكثر من ذي قبل. قيل إن الملازم أول نشأت يقوم بدوره الوطني على أكمل وجه ضمن قوات الطوبجيَّة، وإنه في خير حال لا ينقصه شيء، غير أنه من المستبعَد أن يقوم بإجازة قبل أن تهدأ اشتباكات القنال. تلقى فاضل الرد كضربة على أم رأسه، ولم ينقله بحذافيره لأمه المكلومة المتشائمة؛ أخبرها فقط بأن كبار الضباط طمأنوه على أخيه، وأخبروه بأن نشأت يقوم مع زملائه بحفر الخنادق وتمديد السكك الحديدية، ولن يتمكن من العودة قبل انتهاء مد الخطوط الموكلة إليهم.

ظلت الأم مُرتابة من حديث ابنها البِكر، مدهوشةً من كونه يَكذِبها وهو ابن بطنها، ولم يبقَ أمامها غير اللجوء إلى الله؛ نذرت لله مصاغها لو عاد نشأت الصغير سليمًا معافى، وكادت توجب على نفسها، واضعةً يدها على مصحف الشيخ مُذهَّب الحواف، أن تُصالح ضرتها الست أم صدقي؛ لكنها أمسكت واكتفت بنذر المصاغ حتى حين، عازمةً إن تأخَّر الولد أكثر من ذلك أن تصنع بيدها «سَدّ الحَنَك» الذي تُحبه المرأة، وتحمله بيديها لجناحها الذي أقسمت من قبل ألا تُعتِّبه، علَّ الله يرأف بحالها ولا يفجعها في ولدها الصغير.

وبفضل إلحاحها على الله، لم يطُل غياب نشأت لدرجة تستوجب قيامها بهذا التنازل، فلم يمضِ أسبوعان آخران حتى عاد تحمله عربة عسكرية يجرُّها بغلان، ولم تملك المرأة نفسها حين سمعت زغاريد الخدم، وانطلقت تجري لخارج البيت دون بُرقُع،

ما جعل ابنها فاضل يُعاتبها فيما يُسنِّد أخاه المحاط بجبيرة تُماثل وزنه. لكنها ظلت ذاهلةً تُراقب صغيرها الملفوف كالمومياء، وتحمد الله بقلبٍ يحمل شيئًا من العتاب؛ فكم تمنَّت ألا يُعفيها الله من نذرها المصاغ، وحتى من مراضاة أم صدقي، على أن يُعيد إليها ولدها سالمًا مُعافًى من كل سوء.

كان جدي محمد بن فاضل مرشحًا قويًّا لشغل مقعد الفتى المدلل في بيت الخرُنفِش، فقد تربّى فوق وسادة جدة تركية ذات باع طويل في تدليل الذكور، فضلًا عن كونه ابنًا وحيدًا على تسع بنات وآخر عنقود أبيه وأمه، وفوق ذلك كان جميلًا ذا عينَين زرقاوين ناعستين، ووجنتين بيضاوين في نعومة البفتة البيضاء. غير أن طبعه الناري وميله الجارف لاستكشاف المجهول، حصَّناه من ذاك المصير البائس لشاب مدلل ينبت في أعطاف الجمالية والموسكي.

لم يرَ عزَّ جده الشيخ ولا ليومٍ واحد، فقد وُلِد بعد وفاة الجد بأشهر، لكنه استأثر وحده باهتمام جدَّته، حيث أنساها بمولده وجود أخواته البنات، وظل حفيدها الوحيد حتى حانت ساعتها. وقبل أن يُتقن تمامًا مهارة الوقوف دون تسنيد، نشبت أول حرب عظمى، وأخذت نيرانها ترعى في محيطه أربعة أعوام حتى جرَّدت أباه فاضل من جُلّ مُدّخراته وقراريطه سهلة البيع، وأطفأت في نفسه شهوة التنعُّم بالحياة. وما إن انقضت سنوات الحرب حتى تبيَّن أبوه أنْ لا جديد سيجد في البلاد، وأن الضيم سيستمر كابسًا على كواهل الناس، ما جعله ييأس من تحسُّن الأحوال، فإذا به يُسِرُّ لزوجته هنّومة ذات ليلة بأن زميله المُستجَد في نِظارة المعارف يبحث عن مسكن في حي الجمالية، وأنه يُفكر في تأجير جناح المرحومة أم كامل لهذا الزميل الكريم الأصل. صكَّت المرأة صدرها اللحيم وقالت: «تُدخِل علينا غريبًا يا رجل؟»، هنالك نحّى جانبًا تلك الفكرة الخائبة، وارتاح من هَمِّ مُفاتحة أخيه الأكبر صدقي بيك بشأنها، فقد كان يخشى من تحوُّل مزاجه الذي صار أشبه بفوَّهة بركان منذ ترك الحكمدارية.

كان مهمومًا ببلوغ محمد الصغير سنَّ المدرسة، ولم يكن غليل الست أم فاضل قد شُفِي بعد من ناحية صدقي، فصارت تُجادله بعلو صوتها لإصرارها على دخول محمد مدرسة الفرير الكائنة في شارع الخرُنفِش؛ تقول بنبرة تطشُّ مثل الزيت المقدوح: «مدرسة على بُعد خطوتين من البيت يتعلم فيها أولاد الوجهاء والباشوات.. لن يتعلم محمد إلا في الفرير!»، فيُقسِم لها فاضل أنْ ليس بمقدوره سداد المصروفات كل عام، «لو قدرت أول سنة فلن أقدر الثانية!»، لكن الجدة تربست دماغها المصنوع من صفيح: «حتى لو بِعت صيغتي»، صارت تقول، فلن تسمح بتفوق ابنَيْ صدقي على حفيدها الوحيد في المدارس، فغريمتها الست أم صدقي ليس لها حديث إلا مدرسة الليسيه الفرنساوي، وكيف يأكل حفيداها البيض

نصف المسلوق في كأس مصنوعة من الخزف، ويقولان «بون ابيتي» قبل الشروع في الأكل. كاد يُسقَط في يد فاضل أمام عناد أمه وصلفها التركي، ولم يُفلته من حدَّتها إلا مصيبة أكبر بكثير من سابقاتها، فقد باغتهم الموت وانتشل صدقي في غفلة منهم، فانعقدت ألسنتهم وأُضرِمت النيران في قلوبهم.

كان أكثر القلوب حُرقةً بعد قلب الست أم صدقي المكلومة في ضناها، هو قلب الست أم فاضل العصِيّ على الفهم، فكأنما كشف الحزن عن سره المخبوء بداخلها، وإذا بوجهها يحتقن كحبَّة طماطم تُشارف النضج والعطَب معًا، ونهنهة البكاء تُغالب أنفاسها طوال الوقت، تتربع على جلسة شباكها المُطل على الحوش، وتفتح كوَّة المشربية، ثم تسند خدَّها بيدها الممصوصة كعود القصب، وتُهدهد الصمت كأنه رضيع ينام. تُطل على الحوش كلما سمعت حفيف شبشب أو برطمة خادم، أو صوت ارتطام شيءٍ ألقت به المسكينة أم صدقي في فضاء الحوش، فتُمصمص بشفتيها وتعود لجلستها دون أن تنبس بكلمة، وتتمايل وتنتظر كأنما تحرس الوَحشة.

تساءل فاضل في مخدع زوجته عمَّا انتاب أمَّه؛ لم يرَها حزينة هكذا قط، فمصمصت هنّومة بشفتيها وقالت: «ضروري تزعل.. ألم يمُت صدقي بيه زعلانًا منها!».. كان فاضل يعرف أمه كعدد شعراته البيضاء، ويقول إنه من غير المحتمل أن تُغلِّط نفسها لدرجة الحزن، بل عساها تكون حزينة على صدقي نفسه أن لم يُمهله العمر حتى يُصالحها ويأخذ بخاطرها. كل ما هنالك أنها تخشى اقتراب الموت، تشعر به يدنو منها أقرب من أي وقت مضى، فزوجها الشيخ الراحل كان يكبرها بعشرين عامًا على الأقل، والمرحومة أم كامل ليست أبدًا من دورها، بل كانت في مقام أختها الكبيرة، أما صدقي فيصغرها بأعوام، وأنْ يخطفه الموت قبلها لهو نذير بأن قبضة الموت تضرب البيت خبط عشواء.

حاولت هنّومة معها دون فائدة؛ تسألها عمَّا تطبخانه لعشاء الليلة، تحكي لها ما تناقلته الجارات من أخبار الحي، أو تضع أمامها صينية بامية ستقوم بتقميعها وعليها سكّينتان، إذ ربما تستحثها السكّينة الإضافية على المشاركة، حتى إنها صارت تختلق الأعراض وتدَّعي ظهورها على محمد الصغير، آملةً أن يقيلها الخوف على حفيدها من وَهدَة الصمت، فكانت الجدة تُعاين الولد بنظرة عابرة فتجده يتنطط من أريكة لجدار، ويتلاشى من فتحة باب ليعاود الظهور من كوَّة شباك، فتنصرف عن هنّومة وتعود للاهتزاز.

أما فاضل، فسرعان ما سلَّم أمره لله وأنفق من جيبه على مدفن العائلة فوق ما أنفقه المرحوم صدقي بيك حين مات أبوهما الشيخ. صنع حول بوابة المدفن إفريزًا جديدًا من الحجر المزخرف بنقوش نباتية، واستبدل الشجيرات والصبارات والمقبض النحاسي المطوَّس، كما رفع مصطبة الزائرين وزاد من عرضها، وثبَّت في الجدار لوحةً من الرخام الأبيض نُقِش عليها لقب أخيه بنفس الخط العثماني الأنيق، الذي كُتِب به يومًا اسم صدقي على الظرف الفضي لفنجان قهوته.

أطفأت نار قلبه هذه الإجراءات، فعاد لانشغاله بمستقبل محمد ودخوله المدرسة، بل إنه استشار أصدقاءه المفتشين في نِظارة المعارف في هذا القرار المصيري، واصفًا لهم كيف يحلُم الولد بأن يصبح ضابط بوليس مثل عمِّه صدقي بيك الحكمدار، وكيف أن القسم المجاني في مدرسة القديس يوسف - التي يُسمونها مدرسة الفرير - مقصور فقط على أبناء الكاثوليك، وجدة الولد رأسها وألف سيف أن يدخل الفرير. تجاوَب معه الزملاء في موقفه، ولم يرَ أيٌّ منهم سببًا وجيهًا لتكبُّده ما لا يُطيق، فمدرسة خليل أغا في باب الشعرية ليست ببعيدة، ولا تفوقها في تعلُّم اللغات أي مدرسة، وما علا من شأن القديس يوسف إلا تردد اسم سعد باشا في الآونة الأخيرة، حيث تخرج في هذه المدرسة الكاثوليكية وأكسبها صيتًا فوق ما تستحق، بل إن مبنى خليل أغا أكبر وأكثر شراحةً من مبنى الفرير، ويقوم عليها أساتذة مسلمون موحِّدون، ستكون توصيتهم على محمد الصغير أمرًا هيِّنًا.

هكذا حزم فاضل أمره وتوكَّل على الله، فألحق محمد بمدرسة خليل أغا بباب الشعرية، وشرع يصطحب إليها الولد كل صباح حتى اعتاد الطريق، فصار يذهب ويعود بصحبة الخادم، يُغافلها كل حين فتشد قبضتها على رُسغه الصغير وتحمل عنه حقيبته القماشية ذات الفم المربوط من أعلاه، كي لا يُفلت من يدها ويغوص في الأزقة والحارات، أو يختبئ خلف عربات الكارو. وهكذا صارت ملاعب طفولته تتسع وتزحف في كل حارة وعند كل سبيل، وصار مع الوقت يذهب وحيدًا لمدرسته خليل أغا، يركل الحصوات فوق بلاط الشارع مارًّا بمحاذاة القديس يوسف، ويُطوِّح الحقيبة القماشية قرب نهاية عَطفة القاضي ليتلقَّفها عند ناصية الشعراني، وصولًا لميدان باب الشعرية.

هناك ينبسط أمامه الأفق وتتسع الطرقات، وتتمطّى الأحلام حيثما يتمدد الخيال. يتراءى لنفسه ممتطيًا صهوة قادر، قابضًا على رسنٍ أحمر في لون الطرابيش، فيما يتهافت شعر الجواد الأبيض الحريري على جانبَيه كأنه الموج، يجوب به شوارع

باب الشعرية في لباس عمِّه الحكمدار ذي النياشين البراقة والسيور الذهبية المجدولة، يسمع صوت امرأةٍ تصرخ من بعيد، فيخبُّ تجاهها ويقبض مَن تعرَّض إليها من قفاه، ثم يودِعه بدرومًا ذا سياج حديديّ يطل على الميدان، ومن حوله يُصفِّق الرجال ويهتفون بحياته، فيتبسَّم لهم ويمضي نحو منتصف الميدان ليُراقب الحيَّ مُمتطيًا حصانه مثل إبراهيم باشا، يُشير بإصبع آمرة نحو الجناة فيُقبض عليهم على الفور.

لم تُبارحه يومًا هذه الأخيلة، وإن اتخذت أحوالًا أكثر نضجًا عامًا بعد عام، حتى شارف حُلمه على التحقُّق وما عاد يفصِله عن مدرسة البوليس إلا خطوات. وفي نشوة الحماس تلك، ما كان لينتبه لما يتربَّص به قرب نهاية الطريق، فيما كان سوء البخت في انتظاره عند آخر خطوة بالتحديد.

بيت العم من جديد. أركب المصعد، أجده مُعطَّلًا. لا ليس عطلانًا؛ ثمة جهاز ثُبِّت في لوحة المفاتيح، يفصل التيار الكهربائي عن المصعد ويُعيد توصيله بكارت بصمة يحمله السكان. ربما يريحون المصعد من عبث فِتية توصيل الطلبات إلى المنازل. لست المقصود على أي حال؛ أُفكِّر في مناداة حارس البناية، ثم أقرِّر الصعود على قدميّ، حاملًا ألبومات الصور القديمة التي احتفظت بنُسخ منها في ملف الرواية على الكمبيوتر، وأتيت لكي أعيدها لبيت العم الراحل.

أرنُّ الجرس، أجد الباب مواربًا وأسمع صوت زوجة عمي الواهن يطفو من الداخل: «ادخُل». لا تتحقَّق من هويَّة الطارق وتستقبل أيًّا مَن كان، هذه المرأة يُمكن سرقتها بسهولة هشِّ الذباب، لكنْ حتى السرقة قد تُحدِث تغييرًا لا بأس به في حياتها الفارغة من لذة المفاجآت ومخالفة التوقعات. مسكينة. بموت العم فقدت محور حياتها وأي معنى لوجودها. يتأكد لي ذلك حين أحتضنها وأُقبِّل رأسها المضروب بالمشيب دون رادع من صبغة أو حنّاء، فألمح قلادة تتدلّى أسفل عنقها المغضَّن بخدوش الزمن، عليها صورة العم مطبوعةً بتقنية الليزر. «ما هذه الحاجات الحلوة؟»، أسألها، فتقول بنصف حماس: «حلوة صحيح؟!»، وتقلب الصورة ناحيتها لتنظر إليها ببهجة تُثير الشفقة، ثم تلثمها وتُريحها على صدرها المُثقل باليأس.

«ما أخبار السكَّر؟»، أسألها عن مرضها الأخير، فتقول: «طالع نازل»، أُعلِّق: «لازم تأخذي بالك»، تبتسم دون اكتراث وتقول: «لا أستطيع شكَّ نفسي.. حين أجد مَن يشكُّني أعمل الاختبار، وآخذ جرعة الإنسولين»، أسألها: «ألا يجيئكِ أحد من الصيدلية؟»، فتقول: «ملّوا طلوع السلم في اليوم مرتين، الأسانسير لم يعُد يعمل، وكل ما أسأل امرأة البواب تقول إن الأسانسير يعمل. ما عاد باستطاعة أحد أن يزورني. أنت كيف صعدت؟»، أرنو إليها باسمًا وأقول: «على السلم».

تقوم لتجيء بالشاي والبسكويت، فأتسلَّل لداخل غرفة العم كي أُعيد بعض الصور التي جمعناها أنا وابن عمي لمكانها في درج التسريحة، أحشر صورة الجد بحرص أسفل الزجاج، وأجذب الدرج وأبحث عن فجوة أحشو فيها بقية الصور. تُلامس أصابعي جسمًا صلبًا، تنتابني قشعريرة الفضول، أزحزحه؛ إنه طاقم أسنان العم، تزداد قشعريرتي، ثمَّة ما بقي منه بعد ذهابه، أخذ معه الحقيقي، وخلَّف الصناعي.. هل ثمة ما يبقى من ذلك الحقيقي؟ تبقى العظام، وبقايا الأسنان، لكنْ هناك، في

الخفاء، بعيدًا عن إدراكنا المُرهف وشعورنا القلِق. ندفن موتانا كي لا نتعذَّب بتهديدهم لوجودنا المُفعم بالحياة، ماهرون نحن في خداع أنفسنا، لكن الحياة أكثر مكرًا منَّا، تدفِس لنا إشارات الفناء حيث لا نتوقَّع؛ ساعة يد توقَّفت عن متابعة الزمن، طاقم أسنان ما عاد يعضُّ أو يُشكِّل مخارج الأصوات، دبلة تخلَّت عن إصبعها حالما ابتلعته هوَّة الفناء.

يرنّ جرس الباب، تُعاود زوجة عمي مناداة الطارق بصوتها الواهن: «ادخُل.». أنتبه لكوني قد أغلقت الباب ورائي حين دخلت، أمضي سريعًا لأفتحه؛ أجد ابنها الأكبر سنًّا قد دخل بالفعل، وأخذ يُعيد مفتاحه لجيبه الخلفي وهو يحمل ابنته الصغيرة. الطفلة نائمة، تتلقَّفها زوجة عمي وتُرقدها في حِجرها الدافئ، وتشرع تقص على ابنها أحداث اليوم كعادتها كلما مرَّ عليها في طريق عودته إلى البيت؛ الجيران يُبيِّضون الشقة والعمّال يوسِّخون سلم البناية؛ مَن هاتفَتْها لتطلب منها سُلفة؛ مَن هاتفت هي فلم تُجِب مكالمتها؛ مَن قال إن المياه ستنقطع بدءًا من العاشرة مساءً وحتى الصباح. يظل يُنصِت دون تعليق، ثم يقوم مُتوجِّهًا لبلكونة الشقة. يُدخِّن سيجارة فيما يبدو.

أتأمَّل زوجة عمي؛ بشرتها الشاحبة ويأسها العميق يُذكِّراني بالست أم فاضل، التي لم أرَ لها صورة قط، لكني أثق أن ثمة شبهًا كبيرًا بينها وبين زوجة عمي القريبة الشبه من الممثلات الكبيرات في المسلسلات التركية.

***

ظلت الست أم فاضل تُنيم حفيدها محمد الصغير في حِجرها، طوال فترة غياب عمه نشأت عند الحدود الشرقية. كان نومها خفيفًا كهَبْو لمبة جاز، وظلت تفزع بشدة حين يفز محمد أثناء النوم، خشية أن يكون مكروه قد أصاب نشأت الصغير، فالتقطته روح الطفل شديدة الشفافية. تبقى قلقةً حتى يرفع المؤذن أذان الفجر، حين يتناهى إليها وَقْع قبقاب هنّومة إذ تجيء لتطمئن على ولدها محمد، فتُطمئنها بأن الولد في حِجر جدَّته، وتطلب إليها أن تعاود النوم، لكي تستطيع النهوض مع زوجها فاضل بعد ساعتين، فلا يخرج من بيته على لحم بطنه. تتذكَّر إذّاك وَقْع خطوات زوجها الشيخ المرحوم وقت صلاة الفجر، ويلومه قلبها المكدود أن صمَّم على دخول نشأت الصغير مدرسة عسكرية.

كان برد الشتاء قد نخر عظامها طوال شهور، يوم عاد نشأت مهشَّم الضلوع، ملفوفًا بقماش ثخين، ما ضاعف شعورها بآلامه المبرحة. وظلَّت تُنيمه في وضع

الجلوس لمدة شهر، مُحاطًا بالوسائد من كل جانب حتى لا يتحرك يمينًا أو شمالًا أثناء النوم، فيما يتَّكئ برأسه على وسادة طرية من ريش النعام تستدعيه ليغطس في النعاس برغم الوضع غير المريح، فقد استمرَّ محبوسًا بداخل جبيرة من قماش الخيام المشدود فوق طبقةٍ سميكة من القطن، وكان فوق ذلك يُصدر صفيرًا خافتًا مع الشهيق والزفير، نتيجة التهتُّك الشديد، الذي أصاب جزءًا من رئتَيه حين كُسِرت ضلوعه، ما تسبَّب في مُعاناته من ضيقٍ مُزمنٍ في التنفس لما بقِي من سنوات عمره.

كانت الأم تُراقب ولدها أثناء نومه بحزنها المشفوع بالاطمئنان، فليس أغلى عندها من نَفَسِه الداخل بصعوبة لتجويف صدره والخارج منه، وليس أقسى عليها من سُعاله الذي لا يلبث أن يشقَّ صدرها في جوف الليل. يفزّ محمد الصغير لسماع كُحَّة عمِّه، فتفزع من نومها كما كانت تفعل طوال شهور، وتبقى مؤرَّقةً لا تُسلم للنوم حتى يهدأ سُعاله ويعاود الشخير، فتُغمض عينيها وتُغمغم بحمدٍ مشوب باللوم.

صارت أكثر أوقاتها سعادة حين يعُوده أصدقاؤه، خاصةً زميله الأسمر خفيف الروح عابدين، الذي تزوَّج كبرى بنات فاضل أفندي فيما بعد. كانت توصيه بألا يُضحكه، ثم تجلس بعيدًا عند مشربية قاعة الجلوس تُنصت إليهما، فتملأها البهجة كلما ارتفعت ضحكة نشأت الصغير، وتزداد قلقًا من مُعاودته السعال. كما كانت تفرح كثيرًا لزيارة قائده الأميرالاي حمدي، ذلك الذي أهداه كتفيَّة الأميرالاي يوم نزعوا عنه جبيرته، وأصرَّ أن يُلبسه بنفسه البزة العسكرية ويُعلق الكتفيَّة الأنيقة، حتى يلتقط له صورة على هذه الهيئة المهيبة، كتعويض عن حرمانه من التكريم اللائق من قبل السلطات الإنجليزية. ومن يومها أطلق عليه أصدقاؤه لقب «الأميرالاي نشأت»، وصار كُنيته التي اشتُهر بها.

كان القائد لا يكف عن التغزُّل بشجاعة نشأت وكفاءته النادرتَين، فتنسحب الأم سريعًا كلما تطرَّق الحديث لتفاصيل المعارك التي خاضاها جنبًا إلى جنب؛ كانت لا تُطيق وصف القائد تربُّص ابنها بالآلاي التركي، حتى دنا من القنال ومدَّ الكباري النقالة عبر صفحة الماء، وكيف انتظر حتى بدأ الجنود الأتراك في العبور فصاروا في مرمى نيران الطوبجيَّة على وجه الدقة، فأمطروهم بمدافعهم من داخل الخنادق ومن وراء المتاريس، حتى إن نشأت استهدف زورقين أنزلهما الأتراك كي يعبُرا القنال، فأغرق بمفرده عشرات الجنود قبل أن يبدأ انسحابهم في غضون ساعات.

كان افتخار الأميرالاي حمدي بما أنجزوه يصيب بطنها بكركبةٍ مفاجئة، فلا تُبدي امتعاضها خشية أن تؤذي مشاعر نشأت فوق ما يُقاسيه، فهذا أول ولد تفوز بتسميته

باسمٍ تُركي خالص على عكس إرادة زوجها الشيخ، فإذا بالمرحوم يزجُّ بولده في معركة ضد الأتراك المسلمين، لا تدري إن كان قد عاد منها يحمل الشرف أم العار، ولا إن كان سيتخلَّص من ذنبها ومن عاهتها المستديمة التي سيُعذَّب بها مع كل نَفَس.

ارتضت لنفسها الصمت ولا شيء غيره، فحسبها أن عاد إليها ولدها الجميل بعد طول غياب. لم تُدرك ساعتها أن نشأت قد تغيَّر لغير رجعة، أن بذرة المجد والبهجة ماتت في صدره التالف إلى الأبد، أنه سيتوق صامتًا إلى التحرُّر من كل قيد، وسيرحل يومًا وراء حُلمه فلا يعود.

في جيب ذاكرتي ثقب آخذ في الاتساع، ترتقه الصور القديمة. أختلس ساعة بين مواعيد العمل، أمرُّ خلالها على أمي وقت غياب أبي، أقعي على الأرض أمام مكتبة غرفة المعيشة، أستخرج الألبومات القديمة البالية، أتصفَّحها؛ ثمة صورة لجدي حسين في بلكونة بيتنا القديم، على المنضدة أمامه فنجان قهوة ومنفضة سجائر. أسمع أمي تقول: «تشرب قهوة؟»، وتشرع في صنعها قبل أن يصلها الرد. تعشق أمي القهوة، كأبيها حسين، كجدها صدقي بيك، تتطابق أجيال سلسالهم على نحو عجيب، لولا رقة أمي وهوسها الصحي لعشقت التدخين أيضًا كأبيها وجدها، فقد ورثت عنهما كل شيء آخر.

أمي هي الحكمدار في صورته الأنثوية الحنون؛ شديدة الحزم والتنظيم، قائد ميداني يجوس ساحة المعركة ليل نهار، لا تُرى جالسةً إلا أمام ماكينة الخياطة، ولا تصبر على الراحة مهما ارتحلت بها السنون. ما يمكن إنجازه في ثلاث خطوات، تُنجزه أمي في ستّ، حتى تملأ الوقت بمهام صغيرة وضرورية. «تَبرُم» في البيت طوال اليوم كما يقول أبي، تُذيب النِّعال رواحًا وجيئة، تُعد ماكينة الخياطة، تُسرِّح أهداب السجادة، تعدل التابلوه المائل، وتَحُول بين أبي وشاشة التلفزيون عند هدف وشيك، فتفوته متابعته. تنتهي المباراة بتعادل له طعم الخسارة، فيغتم، بينما تسحب أمي مفكرتها الأنيقة وتُدوِّن كل صغيرة وكبيرة حدثت أثناء اليوم. يشتاط أبي ويخلد للنوم.

«يقولون إنكِ نسخة من جدي حسين»، أقول لأمي كي أسحبها لنهر الحديث، مُمسكًا في يدي صورة جدي. تقول: «يا ليتني نصفه.. ساعات أحس أني أتشبَّه به، لكنْ أبدًا لن أكون مثله. كان نموذجًا لا يتكرر في الجِد والنشاط»، ثم تشرع في وصف أبيها بتفصيل دقيق: «كان يعمل كل شيء بيديه، يجيء لزيارتي فيُراجع الحنفيّات السائبة، محبس الأنبوبة المهوَّى، أُكرة الباب المحلولة، يُثبِّت ترباسًا هنا وشنكلًا هناك. يا بابا سيجيء السباك، سأطلب النجار، تعالَ كُل الجاتوه.. لا يسكت. يظل يتحرك ويعمل طول الزيارة».

تبدو كأنها تصف نفسها.. لا أكثر ولا أقل.

***

كان جدي حسين غُلامًا لم يبلغ الحلُم بعد، يوم مات أبوه صدقي بيك. كان أكبر أبنائه، يليه في الترتيب علي، ثم زبيدة، وأخيرًا حسن. وبصفته الكبير، لقَّنه أبوه أن يكون رجل البيت في غيابه، يقع كل شيء تحت مسؤوليته، بدءًا من نظافة إخوته

ومذاكرتهم وحفاظهم على الصلوات، وليس انتهاءً بإطعام «قادر» وتمشيته ومتابعة شؤون البيت. حتى مع وجود الخدم والخولي، كان صدقي بيك يطلب تقريرًا شفهيًّا من أكبر أبنائه حالما يصل البيت، وكان الغلام جاهزًا في أي وقت.

مع موت أبيه، انتقل من خانة تقديم التقارير لتلقّيها؛ صار يوزّع المهام على زبيدة وعلي، ويستثني من المهام الجادة شقيقه الأصغر حسن، الذي وُلِد بداءٍ جعل نموه بشكل طبيعي أملًا ضعيفًا، ثم مستحيلًا، يوم أعلنها صراحةً طبيب فرنسي أشارت به مدرسة الليسيه، فتلقّاها أخوه حسين بصلابة الرجال.

توطَّدت صلاته بأبناء عمومته منذ صار عمّه فاضل يتردد كثيرًا على بيت حلوان بعد وفاة صدقي بيك، مُصطحبًا هنّومة أكثر المرات ومحمد طوال الوقت. كان محمد في سن زبيدة؛ يصغر حسين بأربع سنوات، وعلي بنحو سنة، وبه يكتمل مثلث اللعب الذي يظل مبتورًا في غياب محمد، فزبيدة المدلَّعة لا تحفل بلعب الصبيان ولا تُشارك فيه. فإذا حضر محمد نُصب ملعب الفتيان في طرفة عين؛ يُمسك بالصفارة السوداء ويصبح العسكري الذي عليه الإمساك بأحد الشقيقين في عسكر وحرامية، أو يُعيدها لجيبه فيكون الكلب الحيران الذي يقطع الكرة الشراب، أو يضعها بين شفتيه فيصير حكمًا حين يقتصر اللعب على ضربات الجزاء. هكذا صار محمد مصدر البهجة في بيت حلوان، كما صار البيت ملعب طفولته. وحين أصبح حسين طالبًا في الثانوي التجاري، صار يصطحب أخاه علي في قطار القاهرة لزيارة الخرُنفِش، حيث محمد وشقيقاته، والخالة هنّومة الجميلة المعطاءة، والجرامافون السحري، وركن أبيه صدقي بيك وكرسيه المرتفع الظهر الذي يحتفظ برائحته عند مسند الرأس، حتى دبَّت الروح من جديد في جناح المرحومة أم صدقي، وصار يُهوّى ويُنظَّف كل جمعة، فقد تحول ركن صدقي بيك لقعدة الشباب، وإن احتفظ باسمه الأول عند أهل البيت، وأخذت أصوات حناجرهم تزداد خشونة كلما جمعهم لقاء، وتعلو بحماس أكبر بما يُردده الطلبة من شعارات وأحاديث حول الدستور الجديد، وحول انتصار الوفد في معركته ضد الإنجليز، فلا يُخالفهم الرأي إلا محمد، الذي يُقدِّم الولاء للملك على أي شيء آخر. ومع مرور الوقت، استبدل علي أسطوانات السيد درويش ونعيمة المصرية بأسطوانات أبيه صدقي ذات الأغلفة السميكة المترَّبة، جاذبًا عمَّه فاضل للانضمام أحيانًا لقعدة الشباب للحديث عن المغنى.

غير أن السر الأعظم الذي جمع علي ومحمد تحت إمرة حسين، كان سيارة صدقي بيك الفورد السوداء. فبعد وفاة صدقي بأيام، تم تكليف ضابط مصري وكونستابل إنجليزي مدرَّب على قيادة السيارات، بنقل سيارة البيك المأمور من ناصية الشارع الأعظم إلى ساحة كراكول الأزبكية، ومنه لبيت حلوان بعد تحرير محضر بالواقعة. وعلى مرأى من أهالي الجمالية وشيوخ الحارات، أدار الكونستابل الإنجليزي كرَنك السيارة مرات كثيرة حتى استجاب المحرك وأفاق من سُباته، فصفَّق له بعض المتحمسين، فيما شيَّعه أكثر المتجمهرين بهتافهم «كُبَّة تاخُد الإنجليز» مع انطلاقة السيارة. وفي بيت حلوان، حُرِّزت السيارة في الباحة الأمامية تحت تكعيبة العنب، وقد نُزعت لوحاتها وانطفأ بريقها الأسود الغطيس، وهناك نامت في سُبات لم يوقظها منه غير شلة الفتيان بقيادة حسين.

كان يعشق الآلات، ويحلم بأن يصير مهندسًا ومُخترعًا لا يقل نباهةً عن هنري فورد، الذي تحمل سيارة أبيه اسمه مكتوبًا بخط رشيق مائل على شبكة الراديياتير الأمامية. ظل يجمِّع ما تقوله الصحف عن رحلة صعود فورد؛ عن هوسه بالمحركات والماكينات، عن لقائه بتوماس أديسون داعمه الأول في تطوير السيارات، عن سياراته السوداء معقولة الأثمان ودأبه المتواصل في تطوير خطوط إنتاجه والوصول لأقصر زمن ممكن لصناعة سيارة كاملة. يستعير حسين مقص الخياطة، ويقصُّ حيِّز المقال من صفحة الجريدة، ثم يلصقه بعجينة النشا على جدران غرفته؛ مقال يجاور مقالًا حتى كوَّن أرشيفًا لإنجازات فورد، ألحقه بأرشيفات أخرى لصناعة الدبابات والطائرات والطفرة التي شهدتها أثناء الحرب العظمى، فيما ظلت سيارة أبيه تجسيدًا حيًّا - وميِّتًا أيضًا - لهذه الطفرة الفريدة التي ترسم خريطتها الأرشيفات، فانشغل حتى حين عن حصانه قادر، الذي صار مُسنًّا بما يكفي لتجنُّب شقاوة الصبيان، وانشغل باستكشاف عالم الآلات الساحر تحت غطاء السيارة الفورد «موديل تي» الشهير، مُشركًا أخاه علي وابن عمه محمد في شغفه المثير.

كانوا يتسلَّلون أول الأمر بعيدًا عن مجلس خالة هنّومة وماما خديجة - أرملة صدقي بيك - ويرفعون غطاء المحرك ويتأمَّلون الكائن العجيب النائم أسفل منه، الأسلاك التي تُغذّيه، صندوق الإشعال الملاصق للكابينة، السَّير الذي يُحرك مروحة التبريد خلف شبكة الراديياتير، يحلمون لو يوقظونه من سُباته ويُنصتون لصوته المحشرج الطروب. وخلال تردُّده على محطة قطار حلوان، تقرَّب حسين لرجال البوليس

وعرَّفهم بنفسه، وكانوا يُبجِّلون البيك الحكمدار ويحفظون له ودَّه وكرمه، فاهتموا بابنه البكر حسين وعاملوه معاملة الرجال الأكفاء. أخبرهم برغبته في دراسة هندسة السيارات، ومن خلالهم حصل على دليل تشغيل الفورد «موديل تي» المصوَّر، الذي أعاد قراءته حتى حفظه عن ظهر قلب، وأخذ يشرحه مرارًا وتكرارًا لأعضاء فريقه الاستكشافي. وبدافع من أسئلتهم ومن عيونهم المبرّقة، وجد في نفسه الجرأة على اختبار معلوماته في أول تجربة عملية، وشرع ذات يوم في تحريك الكرَنك حركة دائرية مرة بعد مرة، لدفع الوقود لداخل السلندرات، ثم أدار المفتاح على وضع التشغيل ورفع قضيب الإشعال، وأمسك بيُمناه رفرف السيارة وبيُسراه مقبض الكرَنك، ليدعم نفسه بمزيد من العزم فيما يدوِّر الكرَنك دورة التشغيل.. مرة.. مرتان؛ كاد رسغه الدقيق ينفصل عن ذراعه مع الدورة الثالثة، ومعها أصدر المحرك كَحَّة مطَمْئنة تلاها صوت حشرجة جعلهم ينفجرون في التصفيق والتهليل وتبادل الأحضان، ومع ذلك استدعى العقوبة الأكبر في تاريخ شلة الفتيان، فقد مُنعوا من اللقاءات ومن تبادل الزيارات طوال إجازة الصيف عقابًا لهم على تهوُّرهم، ما ترك في نفوسهم أثرًا باقيًا لم ينسوه قط، رغم ذلك منحهم أول نادرةٍ يتندَّرون بها كلما ترحموا على الأيام السعيدة السالفة، أو نشدوا الصُّلح إذ يدبُّ بينهم خلاف.

يومها، عاد محمد مبكرًا بصحبة أمه هنّومة، يتميَّز غيظًا ويكتم ألم القرصة التي كادت تقتلع أذنه من جانب رأسه، وكان أبوه فاضل ينتظرهما في محطة باب اللوق، وسريعًا لاحظ تجهُّمهما غير المعتاد؛ «ماذا فعلت يا محمد؟»، فهم الكارثة على الفور، وسمع تفاصيلها على مهل وهو يُمسك بضحكة كادت تُفلت منه. «عاجبك عمايله!»، صاحت هنّومة، فردَّها بقوله: «عيال يا هنّومة، عيال». طمأنها بحسِّه المرتاح على الدوام، ثم ابتعد عنها خطواتٍ ليُهامس ولده الوحيد: «بكرة تبقى ضابطًا عظيمًا مثل عمك الحكمدار، وتملك سيارة أفتك منها».

كانت نعمات أخرى مَن عادت من زيارة البلدة البعيدة؛ نعمات جديدة أتى بها شقيقها فاضل من محطة القطار مع عم عِرفان الحوذيّ، لها نفس الوجه الأسمر والقَد البض برغم نحافته، لها نفس الخِفة والحركة الرشيقة الدائبة في جنبات بيت الخرُنفِش؛ لكن ثمة نظرة امرأة أخرى تلمع أسفل حاجبَيها المستقيمين بميل طفيف، وابتسامة ما عادت تطفو فوق سطح وجهها إلا حين تلمح مَن ينظر إليها، ليست هذه ابتسامتها التي تبزغ من أفق الإشراق بداخلها، ولا هذا حسها الرنان المرح، بل حس امرأة بعيدة بُعد البلدة، تُحادث أمها عبر سلوك سوداء تمتد لأميال.

«أختك ما لها يا فاضل»، تسأله أمه، فيقول: «ما لها يا أمي؟»، تجيبه: «متغيّرة»، فلا يملك فاضل المزيد من طاقة الحديث، ويتوق لسهرة المساء التي تواعَد عليها مع شلة المقهى، فما عاد يسهر منذ قديم الأزل، لكنه لا يملك أيضًا إلا أن يصدِّق حدس أمه، فهي الأعرف بهم جميعًا وهي مَن تُساورها فناجين القهوة ليل نهار. يقول ليفضَّ يده من حديث سيُضجره لا محالة: «نسألها يا أمي، نسألها».

تُراقب ابنتها عبر مشربية قاعة الجلوس؛ صارت تقود السقاء لداخل البيت لسقاية شجرة ذقن الباشا التي زرعتها بجوار البئر المالحة يوم عادت من البلدة، كما أضحت تخرج بنفسها إلى السوق لنقاوة الخُضر، ولم تعُد تحمل محمد الصغير طوال الوقت كما كانت تفعل في السابق؛ تقول إن ظهرها صار يؤلمها من الشيل، تلك الحجَّة التي لن تخِيل على أمها مهما كررتها. تسأل الأم ابنتها: «ما لك يا نعمات، متغيّرة يا بنتي»، فتبتسم قائلة: «ما لي يا أمّاه»، «ما وحشكِ محمد؟ ما عُدتِ تُلاعبينه إلا نادرًا»، فتقول نعمات: «هنّومة غيّارة، ولا أريد إغاظتها»، فترفع الأم نصف حاجبها وتقول: «طول عمرها غيّارة، وطول عمر دماغكِ كبير».

أما مختار، فكان الأكثر عِلمًا بما يحدث خلف ستار الكتمان، يسعى طيلة الوقت وراء أخبار شقيقته نعمات؛ لِمَن تؤجِّر أرض البلدة، كم تبلغ نسبتها من المحصول، كم من أوراق القطن أفسدته الدودة، وكم غبنها الأنفار في قطن التصييف؛ وكان يستغرب السرية التي تتعامل بها شقيقته مع شؤون البلدة. وبإيعاز من فضوله وفضول زوجته جمالات، ومن حيرة أمه وقلقها المحموم، تقصَّى المزيد من أخبار نعمات، فعرف أنها باعت ثلاثة قراريط، ويُقال أكثر، وشرعت في بناء استراحة تنزل فيها حين تُسافر لتتفقَّد الأرض. قال لأمه حين زارها ذات عشيَّة بنبرة تنضح

بالفضول والحسد: «ليست هذه تصاريف مَن يؤجِّر أرضه. إنها تتصرَّف كالأعيان!» فأخذ الشك ينهش قلبها والوساوس تُساورها.

مرَّرَت نهارين قبل أن تسأل ابنتها: «أتتركين بيت أبيكِ يا نعمات؟»، كانت تبِل كِسرات البتّاو الذي جلبته نعمات من فلاحي البلدة، فيما أشعة الشمس تعبر متكسرة من فتحات المشربية، فتتخذ أشكالًا شائهة ومُنتظمة فوق وعاء الماء والمنديل الأبيض حيث تضع البتّاو. قضمت نعمات نُتفة بتّاو مبتلة دون أن تنظر في عينَي أمها، وقالت: «مَن قال لك هذا يا أماه؟»، فهزَّت أم فاضل رأسها علامة التأكد من صدق ما نقله مختار، ولم تُجِب ابنتها بشيء، بل قامت تضع البتّاو المبلول في صينية نحاسية، عليها وعاء من الصاج مُقشر الحواف يحوي قطعة جبن بيضاء، وذهبت بها لحجرة نشأت.

كانت نعمات قد حسمت أمرها بالفعل، فما عاد البيت يعني لها ما كان يعنيه في سابق عهده؛ تحوَّل بفقد أبيها لمقبرة كبيرة، تتوسطها محرقة الأوراق التي تحتفظ برائحة الشياط والشِّقاق، كما صارت غير مُرحَّب بها في جناح الست أم صدقي صديقتها القديمة، لمجرَّد أخوَّتها لشقيقها فاضل الذي استولى على البيت. حتى جناح أمها ما عاد يخصُّها، فمنذ أنجبت هنّومة محمد الصغير، صارت بجمالها وحضورها الفتّان سيدة الجناح، كما أضحى الجناح كئيبًا بتردّي حال أخيها الأصغر نشأت، بعد أن كان أمل أسرتها في العزوة والمكانة. هل تُصارح أمها بمشاعرها هذه؟ أم تحتفظ بها وتسعى وحدها نحو الخلاص؛ نحو متنفَّس جديد لحياتها المنذورة للفَقد.

في البلدة يتجدد الرجاء، تنحلُّ القيود وينشرح الصدر، تنبُت الأجنحة، تتشمَّم بكارة الحياة وتُحلِّق فوق مروج خضراء هربًا من أشجان العالم، من سياط زواجها الفاشل ومهانة ضيق الحال وقت الحرب. ويوم أعدَّت حقائب السفر، تعجَّبت لكون حقيبة متوسطة الحجم قد استوعبت ملابسها وحاجياتها؛ كأنها لم تعش ثلاثين عامًا تحت سقف هذا البيت، لم تكن عروسًا ذات يوم، تُزف بالشيء والشّويّات؟ أدهشتها خِفَّة وجودها في بيت أبيها منذ رحيله؛ أدركت أن وجوده فقط هو ما كان يمنحها الإحساس بالثِّقل، لمكانتها عنده ومكانته لدى الجميع، أنها اليوم صارت تطفو فوق واقع البيت، تخدش الموجودات فلا تخلِّف أثرًا.

أقسمت عليها أمها ألا تغادر البيت، فماذا يبقى لو رحلت نعمات؟! فاضل الذي لا يُحرِّك ساكنًا، أم مختار الذي انتقل للسكن بجوار أصهاره، أم نشأت الصغير الذي

غار في قاع غامض ومظلم؛ لو لم يجد هواء البيت مَن يتنفسه، أيظل ساكنًا على حاله أم يأخذ في التلاشي؟! لكن نعمات طمأنتها: «سأغيب يومين وأرجع على طول»، وأضافت: «وزيادة في الاطمئنان سأروح وأعود مع مختار». وهكذا فعلت، وكان شقيقها مختار يتوق لرؤية بلدة نعمات، وبيتها الذي تُقيمه هناك كما يفعل كبار الأعيان، وكان ما رآه فوق ما توقعه، إذ بعثت فيه انكسارة الفلاحين في الحديث إليه شعورًا بالهيبة وبعِظَم المكانة، كما تآلف سريعًا مع العم حفني خولي البلدة، ومضى يستجوبه بصَنعة لطافةٍ حتى أحاط بكل ما يخص شقيقته صاحبة الأرض، ولم يكن لفضوله حد، ما جعله يستمر يسأل عن شؤون الزراعة وخباياها، فصارت غيَّته.

وما إن عادت نعمات حتى حزمت أمرها بغير رجعة؛ ستستكمل البيت وتقيم فيه، هكذا صراحةً، وسينضم إليها شقيقها مختار، فقد ارتضيا أن تمنحه ربع مساحة الأرض حال انضمامه إليها، فقرَّر الذهاب سواء رغبت زوجته في الانتقال أو لم ترغب. كانت نبرة نعمات هادئة، راسخة، ليس فيها عجالة ولا تردد، ما أذهل أمها وجعلها تُبلِّم في صمت، فما عادت نعمات صغيرة ولا أهلًا لزواج جديد وهي تُشارف الثلاثين، وقد حزمت أمرها وانتهى الأمر.

هكذا مضت نعمات تغرس النبتة الجديدة في الأرض البِكر، أرض تعاف أقدام أسرتها أن تطأ طينها وتستنبت سرَّها. بنت بيتها المهيب ذا الحجر الأبيض، الذي ستقوم من حوله بيوت الفلاحين كما فِراخٍ تحوِّط دجاجة سمينة بيضاء، وسيُلحَق به مع مرور الزمن بيت فلاحي يحوي الزريبة وفرن الخبيز. هناك انضم إليها مختار بعائلته؛ وبعد سنوات طالت لحق بهم محمد بن فاضل، وراح ينفث في النبتة البيضاء روحًا لم تعرفها قبلًا؛ هناك بلغ الأمل مداه في اكتشاف الكنز.

لو كان ثمة كنز بحقٍّ وحقيق، فلن يظهر بعيدًا عن البيت الكبير الذي بنته نعمات، والذي عُرِف باسمها لما بعد مماتها بفترة وجيزة، ثم سُمِّي «بيت محمد بيك»، حين اتَّخذه جدي محمد بن فاضل مقرًّا يُدير منه الوسيّة الناشئة.

يربض البيت الكبير في صدارة البلدة، بحيث يستقبلكَ بزاوية حادة حين تُقبِل عبر الطريق الزراعي، كأنما بتعالٍ شديد. أستغرب لماذا بنته نعمات بهذا الشكل؛ لو أنني رأيته وقت كان «بيت نعمات»، لكنت اعتبرت اعوجاجه عن موازاة الطريق من قبيل الحياء، لكنني عرفته منذ قديم كبيت جدي محمد، فلم يمسَّني من زاويته العجيبة إلا الغموض والاستعلاء. المدهش أنك حين تعبر الجسر العجوز وتدخل البلدة من مدخلها المُعتاد، تنتقل الصدارة تلقائيًّا لمسجدها المُطلِّ على الجُرن الواسع، فيُصبح المسجد المحاط بنوافذ مُشرعة هو ما يستقبلك، مُصوِّبًا نحوك مئذنته المهدَّمة كتحذيرٍ أخير.

كنت أدهش حين تزحف سيارتنا لداخل البلدة، حيث يتوراى البيت الكبير الذي أشار إليه أصبع أبي قبل لحظات خلف بيوت الفلاحين، وخلف المسجد الذي أُعيد بناؤه قبل سنوات على هيئة جُرم مكعَّب الشكل، ولم تكفِ أموال التبرعات لإعادة بناء المئذنة المهدَّمة، فبقي بلا مئذنة تُشير لوظيفته. تمرُّ السيارة ببطء عبر شارع مُتلوٍّ كأنما يبتلعها جوف ثعبان، فنُصبح مضطرين لأن نُلقي السلام كلما مررنا بباب مُشرع، حتى نُفاجأ - وكنت أُفاجأ في كل مرة - باتساع الشارع بطريقة مُباغتة، حين يظهر البيت الكبير في الصدارة من جديد، بواجهته العكسية هذه المرة، كأنما كان يتعمَّد ألا يستقبلكَ بحفاوة صريحة.

يحفُّ بنا المستقبِلون عند مدخل البيت، أمام الدرجات الخمس المفضية إلى الشرفة، والمصطبة الكبيرة المُتاخمة للبيت. أتطلَّع لبيوت الأقارب المحيطة به، وسماء الريف الشاسعة المُعلَّقة فوق شواشي النخل وسطوح البيوت الطينية؛ سماء تبتلع بسهولة أصوات الضيوف والمُستقبِلين، وكلاكسات السيارات، ونهيق الحمير البعيدة، ونباح كلاب البلدة المحموم، وضرب النيران في المناسبات السعيدة، دون أدنى اكتراث منها. لم يكن الوضع هكذا يوم بنته نعمات بالتأكيد، فأول سيارة دخلت البلدة كانت سيارة جدي اللينكولن الداكنة، ولم يكن ثمة بيوت إلا عُشَش صغيرة يسكنها الفلاحون، وبيتان طينيّان يخصان مأمور الزراعة والخولي العجوز.

عادةً ما يُترك لأبي الجراج المُعرَّش بتكعيبة عنب تنغرس جذورها في حياة جدي، فالجراج لا يستوعب إلا سيارة واحدة، كانت سيارة جدي في زمانٍ ما، ثم احتلَّت مكانها سيارة أبي. أما اليوم، فأغلب الظن أن التكعيبة تهدَّمت، فقد لاحظت في آخر زيارة قمت بها قبل سنوات، أن أحد أعمدتها مال ميلًا ملحوظًا يُنذر بسقوطٍ وشيك. كنَّا نُنزل الحقائب أولًا قبل أن تلج السيارة تحت التعريشة الضيقة، تحملنا أرجل تخدَّلت من طول ما انحشرت طوال الطريق، فتكاد تخذلنا أمام الريفيّين الأشداء. تتناول أيدينا الطرية أيادٍ خشنةٌ سميكة الجلد، تهرسها وتُحطِّم مفاصلها، في مزيج من الترحيب الحار والتهديد الخفيّ، ويكون أول واجباتنا قبل انعتاقنا للأكل واللعب، أن نمرَّ على بيوت الأقارب والفلاحين بصحبة أبي وأعمامي، ونمكث دقائق في كل بيت يعبق هواؤه بتلك الرائحة الفريدة التي لم تغادر أنفي، أظنها خليطًا من الروث والتراب وبقايا الحلبة، ومع نهاية الجولة نؤمر بالذهاب لبيت عمّتي عفاف، لكي نستحم فرادى وجماعات، ونرتدي ملابس أكثر ملاءمة لأجواء البلدة. يُقلِّد بعضنا الكبار في ارتداء الجلابيب أو العباءات، بينما يلبس أكثرنا السترات الرياضية. كنت أنتعل حذاءً رياضيًّا أبيض يحيل لونه قبل نهاية الإجازة، فأتركه تذكارًا لأحد الأقارب أو الفلاحين قبل مغادرتي. كثيرًا ما كنت أحتمي من سياط الشمس بكاب رياضي، تركت واحدًا تذكارًا في بيت بديعة - إحدى الفلاحات اللاتي يخدمن عمتي - فأثار حسدًا كبيرًا في نفوس الأخريات، ولما ماتت بديعة، سمعت بأن إحدى المغسِّلات أخفت الكاب بين حاجياتها وغادرت به.

نخرج نظيفين من بيت العمة، لنتعرَّف معنى القذارة على حقيقته، فلا نترك أظهُر الحمير ولا فراء الكلاب حتى آخر النهار، ونستمر نلعب الكرة ونُسامر أترابنا من أبناء الفلاحين حتى يجِنُّ الليل ونُؤمَر بالعودة إلى البيت، فنمكث في الشرفة الفسيحة نلعب الكوتشينة أو نتهامس بمعارفنا حول الجنس والسِّباب، والقرد الجاثم فوق الكنز في انتظار محمد. ومهما أمضينا من وقت ممتع، فلا مفر من دخول البيت آخر اليوم، حين يُعلن الساهرون رغبتهم في النوم، فأقفز مُستجديًا ساعة إضافية أو ساعتين. تنهرني عمّاتي ويتحججن بضرورة خطف ساعات نوم قليلة قبل صلاة الفجر - التي لا يقُمن لأدائها على كل حال - ومهما نجحت في زحزحة ختام السهرة لبرهةٍ وجيزة، تبقى نهايتها المحتومة في انتظاري، حين يسُقنَني للنوم داخل البيت الكبير.

كنت أخاف بيت البلدة، خاصة في هدأة الليل، ربما ليقيني بأن القرد الحارس يكمُن بين دهاليزه وأركانه المظلمة، فضلًا عن كون البيت تجسيدًا لهيبة الجد الراحل، الذي كنت أخشاه دون أن ألقاه، ولم أُطالع صورته إلا بداخل إطار عتيق مُفكَّك الأوصال، يترجرج زجاجُه مع أهون حركة فيُصدر تكتكةً كأنها رسالة مُرمَّزة من الجد المرحوم، تُخبرني بإمكانية عودته في أي وقت. كانت عيناه الزرقاوان الناعستان ترمقانني بحنان مُفتعل، وباستخفاف دائم، إحداهما تنحرف نحو جانب الوجه كأنما تزدريني، أو كأنها ترمق شيئًا خفيًّا يلوح من خلفي، فكنت أبادل عينَيه بابتسامة مصطنعة، فيما يرتج قلبي كما زجاج صورته العتيقة. وحتى لو كان باستطاعتي تجنُّب النظر لصورته، فلن أجد مهربًا من المبيت في بيته كل ليلة.

كان بيتًا ضخمًا كوصفهم صاحبه؛ قديمًا ومرتفعًا وأبيض قليلًا من بشرة جدي الشاحبة، جدرانه مغضَّنة بالشقوق كجِلده، أسقفه الخشبية مائلة كطربوشه، يسكنها الغموض والأشباح والوطاويط. كانت الوطاويط أكثر ما يُخيفني من المبيت هناك؛ تجوب فضاء البيت طوال الليل، وكثيرًا يحلو لها أن تضرب الهواء فوق رأسي مباشرةً حالما تلتحم جفوني، وتظل تحوم فوقي في دوائر عشوائية لا يمكن تجنُّبها. أجذب الغطاء فوق رأسي وأتيبَّس كالمومياء، كاتمًا نَفَسي.

ذات ليلة، كنت أختبئ على هذا النحو في خندق الخوف، فيما تمرُّ الساعات ثقيلةً لا تتحرك، حتى تناهى لسمعي قرآن الفجر من مسجد البلدة، فإذا بي أنغز عمتي النائمة بجانبي عدة مرات، في كتفها بسبابتي وفي ربلة ساقها بإبهام قدمي، وأهمس إليها: «عمتي، الفجر أذّن.». مضت برهة قبل أن تنتبه إليّ وتمنحني نصف استدارة، «ماذا صحّاك؟»، سألتني، فقُلت: «راديو المسجد». أدركت بحدسِها أن ثمة ما يُقلق نومي، قالت: «أنت محصور؟»، أومأت بالنفي وظللت أرمقها، فعادت تسأل: «خائف من حاجة؟»، ترددت قليلًا قبل أن أقول: «الوطواط!»، قالت: «لا تخف، لقد أمسكته»، «بجد؟!»، سألتها برعب أشد من سابقه، فقالت: «نعم، هل تُحِس بوجوده الآن؟»، هززت رأسي نافيًا، فقالت: «ذلك لأني مسكته»، واستدارت عائدةً لعالم أحلامها. نمت الساعتين التاليتين بنهم واطمئنان، حتى أقلقني قبل الجميع صوت ماكينة المياه، فمكثت أرمق السقف الخشبي الخالي من الوطاويط، وتبيَّن لي بهاء عروقه وعظَمة تكوينها. كنت أتحرَّك كثيرًا في السرير، ما أقلق نوم عمتي بعد برهة، وإذا بها تُطالع وجهي بتحنانٍ مغموس في النعاس. سألتني: «هل نمت

جيدًا؟»، هززت رأسي وعاجلتها بالسؤال: «صحيح مسكتِ الوطواط؟»، أشارت ليدها المدفونة بين فخذيها، وقالت: «هنا أهو.».

انتفضت من جانبها، وسَرَت بداخلي موجة فزعٍ رفعتني وأخفضتني، لم أعِ مقصدها على وجه الدقة، لكنني حدست بأنها تُشير لأمر خارق ومُرعب. تأكدت حين تبعتها لخارج الغرفة، وراقبت عن بُعدٍ قميصها القطني، فيما ترفعه كمنديل ساحر، وتكشف عن أغرب مشهد رأيته في حياتي؛ فرجَت بين ساقيها البيضاوين قليلًا، فانبثق من بينهما فأر رمادي مُجنَّح يخفق جناحاه باضطراب عنيف، حتى غاب في شقوق السقف الخشبي. قالت حين لمحَت دهشتي: «شُفت؟ إنه مجرّد فأر يطير!»

يعود شريكي في زيارة لمصر، أدعوه لسهرة مسائية نستعيد خلالها ذاكرة ما قبل الزواج والخِلفة؛ «نتفرج على فيلم»، أقترح عليه، فيُراجع الأفلام المتاحة في دور العرض ولا يتحمس لأي منها. يُفاجئني: «تعالَ نشوف فيلم باب الشمس»، ثم يشرح لي الفكرة؛ سنكذب كذبة بيضاء، سنُخبر زوجتَينا بأن الفيلم يُعاد عرضه في سينما زاوية - يعلم يقينًا أنهما ترفضان كل ما يتعلَّق بهذه السينما - وأن مدة العرض سبع ساعات، ثلاث لكل جزء، وساعة استراحة في المنتصف. أوافقه: «فكرة حلوة»، أرفع إبهامي علامة الإعجاب، تنتابني نشوة غامضة، ربما بفعل التآمر المشترك.

يشرع صديقي في التنفيذ. يحمِّل الفيلم على اللابتوب، نتقابل في المكتب قبل التاسعة، نترك النوافذ مغلقة ونُشغِّل المكيف، نفرد الشاشة البيضاء ونجرُّ كرسيين جلديَّين لمسافة ثلاثة أمتار منها، نوصل اللابتوب بجهاز العرض المصوَّب نحوها ونُطفئ الأنوار. يبدأ العرض.. ثلاث ساعات هي مدة الجزء الأول: الرحيل، الصورة مُبهرة، المشاهد حميمية، الحب يُذيب صخور المغارة ويهزم الخوف. أتذكر تأثُّري حين شاهدته لأول مرة، أستطيب الصمت حتى بعد نهاية الفيلم. «ما لك؟»، يسألني صديقي، أقول: «الفيلم حلو جدًّا»، يضحك، يُنبهني لكوننا شاهدناه مرارًا من قبل، فأقول: «كأنها أول مرة.. حتى هذه الليلة التي نُمضيها سويًّا، كأنها الأولى».

نتمشّى لمقهانا المفضَّل على بُعد شارعين، لنشرب الشاي بالنعناع. «أنا عازمك»، أشترط عليه قبل أن نُطالع قائمة المشروبات التي نحفظها. هكذا كنَّا نفعل قديمًا، حين كانت النقود قليلة، وكذلك المتطلَّبات؛ يتطوع أحدنا لدفع الحساب، فيُذكِّره الآخر حين تحين المرة التالية بأن الدور عليه، ونمضي هكذا نتناوب الأدوار حتى ننسى مَن عليه الدور، فيتطوع أحدنا ثانيةً ونُعيد الكرَّة. تُرى متى ستحين العزومة القادمة؟

«لازم تدخل أستراليا خلال شهرين»، يُعاود التأكيد عليَّ، «ضروري تأخذ ختم الدخول خلال هذه المدة، لكي تحصل على ڤيزا الخمس سنوات»، يُصوِّب نحوي شعاع عينيه، أُفلِت منه قائلًا: «أخشى أن أترك أبي وأمي في هذه السن؛ ليس لهما غيري». يصمت لبرهة. يحسو بقية الشاي بالنعناع فيُحدث صوتًا على غير عادته. يقول: «أنا محتاجك هناك، وابنك سينبسط آخر انبساط، بنات قمرات ونظافة وحياة..

حرام عليك تدفنه هنا»، أقول: «أنا ماشي في الإجراءات، أحتاج فقط شوية وقت كي أُمهِّد أبي لتقبُّل الفكرة»، يومئ قائلًا: «ربنا معك».

لا يريد أن يضغط عليَّ، وهو موقف أُثمِّنه تمامًا، مع أنه أعرف الناس بما أُعانيه، فالسوق العقارية تمرُّ بفترةٍ هي الأصعب منذ سنوات؛ العمل قليل، والعمالة في ازدياد مُطَّرد، وهامش الربح في أضيق حدود، بالكاد يُغطي مصاريف المكتب والانتقالات، لا مجال لأي خطأ، لأية إعادة، لأية خسارة مهما كانت طفيفة. بدأنا سويًّا منذ تخرجنا معًا، عملنا يدًا بيد، تسنَّد كلٌّ منَّا على كتف رفيقه، كسبنا الكثير، وخسرنا أيضًا، وحصلنا على العديد من المشروعات والترشيحات كانت علاقاته سببًا رئيسيًّا في الفوز بها. صارت الأمور أصعب الآن، أستشعر التعاطف في نبرة صمته، ربما الاحتياج. قد يكون بحاجةٍ لوجودي فعلًا، أو يسعى للتكفير عن ذنب سفره قبل سبع سنوات. أُعطيه مُغلَّف سكر، أعرف كيف يُحبُّ استحلابه بعد كوب الشاي، تتَّسع ابتسامته.. ستمرُّ يا صديقي، مثلما مرَّت كثيرًا من قبل؛ هكذا تقول سكتتي الأخيرة.

نمضي عائدَين إلى المكتب. نجلس صامتَين نُشاهد الجزء الثاني من الفيلم: العودة. المشاهد جافة، الموسيقى غائبة، مرأى الحرب الأهلية اللبنانية يُشيع الكآبة بداخلنا، ينشر هالةً سوداء تغمُّ النفس. أتصبَّر حتى نهاية الفيلم. «الرحيل شيء، والعودة شيء آخر»، هكذا أقول فيما نخرج للشارع الخاوي، ونمشي بمحاذاة السيارات النائمة. أنفاس الفجر الباردة تُداعب أنفَينا.

«فاتحت زوجتك في موضوع السفر؟»، يبغَتُني سؤاله، أقول: «لا، ليس بعد»، وأشرد مفكِّرًا في رد فعلها حين تعرف. ستثور بالطبع، وتتهم شريكي بالعبث بدماغي وتضييع مستقبلنا، ستبكي لأبيها على التليفون، فيقوم الرجل باستدعائي بحُجة استشارتي في مشكلة هندسية في البيت أو المكتب، إلى آخر الخطوات المنصوص عليها في دليل حل المشاكل الزوجية المعتمَد لدى سيادة اللواء.

أودِّع شريكي أمام بيته، وأقود السيارة بأبطأ ما أستطيع، إذ ربما يُلهمني الليل بحلٍّ للمعضلة، أو يُخفف عني بفصل جديد في مخطوطة الرواية..

***

صار نشأت يأتنس للسجائر أكثر من مجالسة الناس، فقد تعوَّد التدخين منذ أيام القتال، حيث كانت السُّلطات البريطانية توزع السجائر ضمن مؤونة الجنود، وظلَّ الصليب الأحمر يحرص على توفيرها على الجبهة حتى في أحلك الأوقات، وحتى

بعد إصابته وخروجه من الخدمة، استمر الأميرالاي حمدي يُزوِّده بعلب سجائر «الثلاث قلاع» كلما حضر لزيارته، ويتندر بكونه لا يجد بديلًا كفئًا يقوم بحشْو تجاويف الخنادق بعلب السجائر والكبريت قبل ذخيرة البنادق، كما كان نشأت يفعل أيام الجبهة. تعوَّد لاحقًا تدخين الغليون، منذ أهداه الأميرالاي حمدي علبة خشبية أنيقة ممَّا يُعيَّن للرُّتب العليا، تحوي غليونًا وحزمة سجائر أنيقة وأعواد ثقاب طويلة، ولبانًا منكَّهًا بالنعناع، ومنديلًا قطنيًّا خِيطَت عليه علامة المعونة الأسترالية.

تزايد قلق الست أم فاضل حيال تدخين ولدها الصغير هذا الكم الهائل من التبغ، حتى إن حجرته صارت تعبق طوال الوقت برائحة الدخان العطِنة. يتبدد تماسكها أحيانًا فتقول: «يا بني صدرك يُصفِّر طول الليل، خِفّ عليه ورحمة أبيك!»، وسرعان ما تندم أن لامته على المتعة البسيطة الباقية التي يجدها في التدخين، فتعاود السكوت. لكنَّ نشأت صار يتجنبها حين يرغب في التدخين، فكان يرقى سلم البيت إلى السطح، ويمر أسفل حبلَي الغسيل، ويتَّكئ على السور المواجه لمدرسة القديس يوسف، وهناك يُشعل غليونه.

وذات ليلة، أبطأ النوم عليه طويلًا حتى استبدَّ به الضجر، فتناول علبة الدخان من أسفل السرير وصعد بها لسطح البيت، واتَّكأ عند نفس البقعة من السور حيث نسي كوب القهوة الزجاجي الصغير قبل ساعات. وحالما أشعل عود ثقاب لمح سراجًا يُضاء في غرفة صغيرة فوق سطح بيتٍ مُجاور؛ غرفة خشبية ذات باب أخضر قصير، موارب. وإذا بالباب يُفتح عن آخره، ويظهر في فتحته المضاءة هيكل رهيف أقرب للوهم منه للحقيقة. أطفأ سريعًا عود الثقاب ليغطس ثانيةً في الظلمة الحالكة، وحرص ألا يرمش بعينيه كي لا يُضيِّع لحظة من مرأى الحُلم الماثل أمامه.

كانت تقف مُستندةً بظهرها لفتحة الباب، ساقها مفرودة كوتر مشدود، والأخرى مثنية مرتاحة على الجدار، تُمشِّط شعرها الهفهاف، تجمع خصلاته خلف ظهرها الملصوق بالجدار، فتنفلت خصلات متطايرة ترسم هالةً ذهبيةً حول رأسها الصغير، أو تنسدل فوق قميصها الفضفاض الذي يصل بالكاد حتى منتصف فخذيها المنحوتتين. كان ضوء المصباح يتماوج عبر أثير الغرفة، تحبسه الجدران الخشبية، يتخلل الشقوق الدقيقة ويغمُر فتحة الباب، يُضيء حواف هذه الجِنِّية الساحرة، شافًّا قميصها الفضفاض راسمًا حدود جسمها المقدود من عجينٍ لا يعرفه البشر. كانت فوق البشر بدرجة، ولم يعنِه موقعها نسبةً إلى الملائكة؛ إنها كائن نوراني لا يجوز في حضرته غضُّ الطرف.

كان أول لقاء مع ليليت، ومع فتنة امرأة نصف عارية في العموم.. لم يرَ جمالًا كهذا قبل هذه الليلة، وسيسعى للقائه كل ليلة، مُتسللًا صوب السطح مُستغنيًا عن متعة التدخين في جُنح الظلام، كأنما يتستَّر بداخل خندق من هجوم وشيك؛ هجوم يُشيع السلام في العالم ويُبدد الحزن.

منذ انتقلا سويًّا للبلدة البعيدة، مضت شراكة مختار ونعمات على نحو يُبشِّر بالنجاح، فمثلما احتاج الأول فرصة كهذه تمنحه العزوة والمكانة التي يرجوها، كانت نعمات بحاجة لمَن يتولى أمور الزراعة والتفاهم مع أصحاب الأراضي المجاورة. وبرغم استياء زوجته جمالات وتنغيصها المستمر، استطاع مختار أن ينهض بمسؤولياته بجدارة لافتة، فقام بمعاونة العم حفني خولي البلدة باستعادة أكثر الفدادين المُستأجرة لحوزته، وشرع يزرع الغلال والخضراوات بدلًا من القطن، الذي تهاوت أرباحه جراء الحرب العظمى. وكان قد قصد أخاه الشيخ كامل في الفيوم، وحصل منه على توصية ذهب بها للمستر بونار، رئيس القلم الإداري بنظارة الزراعة حديثة النشأة، وهناك تعرَّف إلى عدد من الموظفين الإنجليز المتحمسين لإحداث طفرة ملموسة في الإنتاج الزراعي، فكانوا هم مَن أشاروا عليه بالمحاصيل التي يزرعها خلال تلك الفترة المضطربة، وأقنعوه بالتخلّي تمامًا عن زراعة القطن «الميت عفيفي»، كما اصطحبوه لمعاينة المزارع النموذجية التي أنشؤوها في العديد من المديريات، فانبهر بها مختار واتَّخذها مثالًا يحتذيه في إدارة أرض البلدة.

لكنه ظلَّ مهمومًا بضآلة حصَّته في أرض نعمات، وكثيرًا ما كان يتدبَّر الأمر في ذهابه وإيابه من وإلى الأرض. «الكفَّة لازم تنعدل»، كان يُحدِّث نفسه كلما انفرد بها تحت شجرة الكافور، حتى انضم إليه ذات يوم حفني الخولي، ولـمَّح من بعيد لبعيد لاحتجاجه على المنحى الجديد الذي يُصمم عليه البيه مختار، وكان يقصد قراره بالتحوُّل عن زراعة القطن، التي لو خابت عامًا فلا بد أن تُصيب في العام التالي، فأمره مختار أن يُعلِّق على الشاي، وأن يُفتِّح مخَّه قدر ما يستطيع حتى يعي ما سيقوله، وشرع يشرح له ما طرأ على تجارة القطن من مُستجدات منذ بدأت الحرب، وكيف احتكرت بريطانيا محصول القطن كي تبيعه لحسابها وتجمع المال اللازم لسداد فاتورة الحرب، فيما تدفع لأصحاب المحاصيل نصف ما اعتادوا الحصول عليه. «أليس حرامًا؟»، قال مختار، فهتف العم حفني: «حرام طبعًا!»، فناوله مختار السؤال التالي، والذي سيعجز حتمًا عن الإجابة عنه: «فماذا يضطرنا لقبول البخس والتجارة في الحرام؟»، وحين وجد الخولي غائصًا في حيرته، أجهز عليه بالحجة الثانية: «حتى لو زرعناه وشوَّنّاه، سيفشل المحصول كما فشل في العام الفائت، فأصل الداء لا يزال قائمًا»، دهش الخولي وسأله: «وما أصل الداء يا

مختار بيه؟»، فأجابه: «الصرف الزراعي يا عم حفني، الأرض لازم تصرف مياهها».

احتار الخولي فيما يمكنه عمله لإنقاذ المحصول، وأحسَّ بالصَّغار لكونه المسؤول مع مأمور الزراعة عن مشاكل الأرض، فكيف يُحيط البيه مختار حديث العهد بالزراعة، بما لم يُحِط به هو الخبير بشؤونها؟ وكيف يقف مكتوف اليدين أمام فساد المحاصيل التي يشقون في زراعتها موسمًا بطوله؟! حتى هداه طول التفكير لما يجوز أن يحلّ مسألة الصرف الزراعي، فقال لسيده ذات عصرية: «ما تشتري يا بيه الأرض المجاورة لأرض الست نعمات من جهة الغرب، فهذه الأرض تطلُّ مباشرةً على المصرف، لو ضممناها لأرضنا لصار بإمكاننا أن نشق مجرى يصرف المياه في قلب المصرف، فتصِحُّ التربة ويُثمر القطن». أخذ مختار يحسو من كوب الشاي الحبر المغلي، فيما يُقلِّب الفكرة في دماغه. لم يعنِه منها التخلُّص من مياه الصرف، قدر ما عنته فكرة الحصول على تلك الأرض المميزة المطلة على المصرف، فتصير مِلكًا خالصًا له من دون نعمات، ويضُمُّ إليها ربع الأرض الذي وعدت به شقيقته، فيفوز بأجود أرض على الإطلاق، ويصير الكلَّ في الكل. وهكذا اتَّخذ قراره مع آخر رشفةٍ من كوب الشاي، وأوعز لحفني الخولي باستطلاع طلبات أصحاب الأرض بتكتُّم تام.

أما نعمات، فقد مضت تُرتِّب البيت وترعى شؤون البلدة والفلاحين، فأنشأت حوضًا لسقاية الدواب في الجُرن الفسيح عند مدخل البلدة، وجعلته سبيلًا ينتفع به مَن يرِد البلدة دون تخصيص، كما دقَّت بجواره طرمبة المياه الحلوة ليشرب منها أهل البلدة. لاحظت أيضًا أن الفتيات اللاتي يُساعدنها في مهام البيت من بنات الفلاحين، لا يعرفن الألف من كوز الذرة، ولا يستطعن عدَّ أكواب الأرز المُعدَّة للغداء، أو تقسيم أرغفة الخبز لمجموعات متساوية، فانتبهت لكون البلدة ينقصها كُتّاب يُعلم الصغار، وأوصت ببناء تعريشة من جذوع النخل في الجهة البحرية التي تمتاز بطراوة دائمة، سقفتها بطبقة من الجريد تتخللها فجوات دقيقة، تُسقط نُدفاتٍ من ضوء النهار على الأرض المفروشة بالحصير، ومضت تتأمل الطواقي والمناديل الصغيرة حيث تتجمع أمامها تحت التعريشة كل صباح؛ تحفظ القرآن وتتعلم مبادئ الحساب. بدأت بنفسها تعليم الصغار، حتى أمكنها أن تستقدم شيخًا مُعمَّمًا من البندر، ليُقيم في البلدة لثلاثة أيام في الأسبوع، وأوصته بأن يُشير فقط بالخيزرانة دونما ضرب، فالأولاد غير معتادين على العَلام وأدمغتهم كقوالب الطين.

وكان لمختار بيت يُجاور بيت نعمات، يصغره حجمًا ويتراجع عنه مسافة أربعة أمتار، خلَّفت بين البيتَين فُسحةً يتجمع فيها الفلاحون للتسامُر والمشاورة. وكثيرًا ما كانت نعمات تُرسل إليهم بالعصيدة المحلّاة بالعسل، حتى ضاق بهم مختار ذات مساء وأمرهم بالذهاب كلٌّ لبيته. اشتكى بعضهم للست نعمات نهار اليوم التالي، فطيَّبت خاطرهم وسمحت لهم ببناء مصطبة عريضة لصق بيتها يرتاحون عليها في ساعات السمر، على أن تكون مصطبة ذات مستويَين حتى يزحف مدكور الكسيح فوق جزئها المرتفع، فيسهل عليه ركوب حمارته.

أثار ذلك حنق شقيقها مختار، وجعله يُحسُّ بأن نعمات تتعمَّد تصغيره أمام الفلاحين، وتهوي بكلمته تحت أقدامهم المقشَّفة، فدبَّ بينهما خلاف طويل حصل أثناءه مختار على الأرض اللصيقة بالمصرف، وبدأ يُرتِّب لأن يستقلَّ بحصَّته عن أرض نعمات. ثم كان أن أنجبت زوجته جمالات بنتًا سمّاها بدرية، فصنعت لها عمَّتها نعمات مهدًا مُبطَّنًا بالساتان الأبيض، وجعلته نُقطتها مع خمسة جنيهات ذهبية ملفوفة بداخل منديلٍ من التُّل الأبيض، فانشرح للهدية صدر مختار وقرر أن يتجاوز غضبه ويُؤجل إفصاحه عن مُخططه. لكنْ ما إن مضى العام حتى أنجبت جمالات بنتًا ثانية، فاستشاط غيظًا وغادر البيت مُغاضبًا، رافضًا مكافأة الداية أو تسمية البنت. فحملت نعمات الرضيعة وراحت تُهدهدها، وتنظر لعينيها الدقيقتين اللتين توسَّمت فيهما روحًا شفافة، فأسمتها روحيَّة.

وقبل طلوع النهار سافر مختار مغمومًا إلى القاهرة، ولم يشأ أن ينزل في شقة زوجيَّته حتى لا تعلم بقدومه أسرة حميه، فاتجه مباشرةً لبيت الخرُنفِش، وادَّعى مجيئه لزيارة أمه. غير أن الست أم فاضل فطنت لاغتمامه وانشغال خاطره، فسألته فيما تضع له صينية العَشاء فوق الطبلية الخفيضة: «كيف حال نعمات؟»، فقال: «بخير، تُبعزق المال على الفلاحين يمينًا وشمالًا»، فقالت بنبرة لائمة: «كفاية أنها لا تُفوّت جُمعتين دون أن تزور أمها، وتملأ بيت أبيها بالزيارات». كان قد أقبل على عَجَل فلم يحمل معه شيئًا، فانتابه الوجوم حتى عادت تقول: «لم أرَ بِنتك بدرية منذ العيد الصغير، زمانها بقت تمشي»، فقال من تحت ضرسه: «تمشي وتركض، وتُبرطِم بالكلام»، فقالت أمه: «وامرأتك المغلوبة على أمرها، ألم تتعود بعد على العيشة المرار التي غصبتها عليها؟»، فقال بانفعالٍ مكتوم: «لا مغلوبة ولا حاجة، أهي جابت بنتًا ثانية لأجل حظي العكر»، فصكَّت أمه صدرها وهي تقول: «كدا يا مختار! زوجتك تضع بنتًا، ولا تحملهما إليَّ لأراها؟ صحيح أنك ناقص!»

غمغم بحنقٍ دافعًا طبلية الطعام، وقام ليغسل يديه فلم يسأل أمه أن تصُبَّ له الماء. وبعد قليل عادت تسأل: «ماذا سمَّيت البنت؟»، فظل صامتًا على حاله حتى قالت: «ألست أُكلمك؟».. فار غضبه قائلًا: «يا أمي لم أُسمِّها، سبتها لأمها بخلفة البنات التي لا تعرف غيرها، وجئت هنا أشم نفَسي.. هلّا تركتني أرتاح قليلًا؟!»

أدركت لحظتها صنيعة مختار، وأنه ترك زوجته التي وضعت لتوّها في بلدة غريبة تعيش فيها مُكرهة، وجاء هنا ليقضي وطره ويشوف مزاجه، فغضبت عليه غضبتها التي لن تبرأ منها حتى تموت، وكلَّفت ولدها فاضل بأن يُسافر نهار اليوم التالي، فيحمل إليها زوجة أخيه وابنتَيه. وبالفعل، وضَّب لهن فاضل جناح الست أم كامل، وجاء بهن من بلدة نعمات كما أمرت أمه، فارتاحت كثيرًا إذ ضمَّت حفيدتيها أسفل جناحها، رغم حدس السوء الذي تأكَّد لديها في زوجة مختار، فلم يمرّ أسبوع منذ قدومها لبيت الخرُنفِش، إلا وحطَّ الموت بثقله الباهظ فوق كاهل البيت.

كنت في الثالثة عشرة أو نحو ذلك، يوم بلغت بي الرغبة مداها في استكشاف الكنز، وكان شارباي قد اختطّا موقعًا بارزًا فوق شفتيّ، فأثارا حسد أبناء العمومة ودهشة أبناء البلدة أثناء زيارتنا في إجازة الصيف. صرَّحت برغبتي لابن عمي محمد، أكبر أبناء عمومتي، واقترحت عليه أن يترأس فريقًا كشفيًّا للبحث عن الكنز في أرجاء البلدة، لكنه رفض الفكرة واستخفَّ بي، ربما من باب ترفُّع الطالب الجامعي عن ألعاب الصبيان، أو بسبب شاربيَّ وما اختصراه من مسافة بيني وبينه. الأدهى أنه لم يكتف فقط بالاستخفاف، بل حاول إفساد خطَّتي حين شرعت في التنفيذ، وكنت قد جمعت عددًا من المتطوعين المتحمسين لهذه المغامرة، وتعاهدنا على التكاتف معًا إزاء الأخطار التي لا بد سنواجهها، فحاول محمد تثبيطنا بقصِّ حكايات عن القرود السوداء التي تظهر بالليل في محيط البلدة، وتتدلَّى من أفرع الأشجار الغارقة في العتمة، فتُلاحق الصِّبية قفزًا بين الأشجار كأنها مروحيَّات مُحلِّقة، حتى إذا ما تخطَّت رؤوسهم بمسافة قصيرة، تلفَّتت بغتة، وواجهتهم بأفواه مفتوحة تكشف عن أسنانها الكبيرة المرعبة.

صمَّمت ألا أُظهر خوفي لأحد، واتَّهمته بمحاولة إخافتنا فقط، لكنه استشهد بكبير من أبناء البلدة، فتوجَّهنا إليه وسألناه، فقصَّ علينا هو الآخر حوادث لا تبتعد كثيرًا عمَّا ذكره محمد، بل وأضاف رتوشه الخاصة التي تُفسِّر نهيق الحمير ونباح الكلاب ونعيب البوم وحفيف الأجنحة في عتمة الليل، بأنها إشارات لظهور المرَدة والعفاريت، وحذَّرنا من الإيغال في الغيطان بعد المغرب، حيث يظهر المرَدة متشبِّثين بالنخيل أو ممتطين أسراب الطيور والوطاويط، وكذلك من السير فوق الجسر العجوز صوب الغرب، حيث يظهر العفاريت بقاماتهم القصيرة وأدمغتهم الكبيرة، وهم أكثر شراسة ورغبة في الإيذاء من المرَدة الضخام. واستمر يُعدِّد تنويعات من الجن حتى ظننَّا أن جيوشهم تحاوط البلدة كل ليلة مع حلول الظلام.

وبرغم قيامي بتغيير مواقيت المهام الاستكشافية، إلا أنني خسرت نصف أعضاء الفريق في اجتماعنا التالي، فمضيت بصحبة الثلاثة الباقين نضع الخطة النهائية بأصابع مرتعشة، ونرسم أول خريطة في تاريخ البلدة، معتمدين في قياس المسافات على عدِّ الخطوات؛ الجرن، معجَنة الطوب، المسجد، بيوت الأعمام والفلاحين، الشوارع الملتوية والتفريعات، حظائر المواشي، بيت الجد والبيت الفلاحي الملحق به، برج الحمام، بيت العمة عفاف وجُنَينته الخلفية، وهكذا.

اتَّخذنا من مصطبة البيت الكبير مقرًّا لاجتماعاتنا، وصرنا نضع الخريطة على الجزء المرتفع منها، ونشرع في تحديد المهام وتخطيط التحركات. استعنَّا غير مرة بالشيخ محمود، الذي لا يبرح مكانه على المصطبة إلا نادرًا؛ فاستفسرنا منه عن وظيفة هذه المباني التي رسمناها على الخريطة، وعن شكلها من الداخل ومدى خطورتها، فكان يشرح لنا ويوجِّهنا بلهجته الريفية التي لا نفهم منها إلا نصف الكلام. حتى قاطعه ذات مرة أحد أعضاء الفريق، وكان أكثرنا نباهةً فيما أذكُر، مُشيرًا لكون هذه المباني قد بُنِيَت بعد نبوءة جدنا الشيخ بعشرات السنوات، فكيف يمكن للكنز أن يكون مخبوءًا بداخلها؟ هنا نزل علينا سهم الله، وحطَّ الصمت التام إيذانًا بفشل المهمة قبل بدئها، فلم نجد في جُعبتنا غير النظر للشيخ محمود، وانتظار تأكيده لكلام الفتى حتى نفُضَّ هذه السيرة ونعود لدوري الكرة المقام في الجرن، لكنَّ الرجل ظل يرمق الغيطان من فُرجةٍ بين بيتين مُواجهين للبيت الكبير، كأنه ينتظر وحيًا يتنزَّل عليه، حتى قال: «هاتوا لي سيجارة من علبة عمكم عادل».

تشاورنا في جدوى استئذان العم عادل من عدمها، وخلُصنا لأن نسرق السيجارة من سُكات، لكيلا نفتح بابًا للسين والجيم والشكوك التي ستلحق بطلب شائك كهذا. وكان العم عادل مغرمًا بقصص الأنبياء، فشغلناه بالسؤال عن حجم الحوت الذي ابتلع سيدنا يونس، فيما يسلِت أصغرنا السيجارة من علبة موضوعة فوق طاولة جانبية، فقام بسَلْت اثنتين، زاعمًا بأن الشيخ محمود قد يطلب أخرى عند أول معضلة جديدة نواجهها؛ وحسنًا فعل، فقد كانت أول سيجارة نتشارك في تدخينها استعدادًا للمغامرة.

وبالفعل، لم يُخيِّب الوحي رجاء الشيخ محمود، فمع ثالث نفَس من سيجارة العم كان التفسير قد جرى على لسانه؛ فالرؤيا الصادقة لا ترتبط بزمان ولا مكان، فكما يُخبر الله عمَّا يقع في آخر الزمان، تُخبر الرؤيا - التي هي وحي من الله - بما سيقع بعدها بعشرات السنوات. صوَّبنا نظرات واخزة كالسهام لعضو الفريق الذي أثار البلبلة، وسرعان ما عاد الشيخ محمود يتمايل يمنة ويسرة مثلما يفعل أهل الذِّكر، مُردِّدًا لازمته المعتادة: «بردًا وسلامًا.. بردًا وسلامًا»، فقُمنا وتركناه.

كان علينا أن نُقرِّر في أي الأماكن سنفتِّش أولًا، ولم يكن ثمة مفر من الأخذ برأي العضو مثير البلابل، فهو أنبهنا على كل حال، وعادة ما يجيء بأقوى الأفكار منطقًا حتى يدحضها الشيخ محمود؛ قال الفتى: «غالبًا سيكون الكنز مخبَّأً في أحد الأماكن التي تكثر فيها الزلعات الفخارية»، وكان يقصد مكانَين عاينّاهما أثناء رسم

الخريطة: قمينة الطوب، وبرج الحمام. فأمام قمينة الطوب ترتصُّ زِلَع الفخار في صفوف أفقية ورأسية، فهمنا من شرح الشيخ محمود أنها قواديس تُستخدم في بناء أبراج الحمام؛ الأسطوانيّ منها يصنع أنفاقًا يعبر منها الحمام لداخل البرج، أما المخروطيّ فبيوت لأزواج الحمام فتحاتها من الداخل، كما تُصنع منها القباب في أعلى البرج، حتى تكتمل هيئة العظَمة ومقاومة الزمن لهذه القلاع الطينية؛ والطين مادة الخلق الأولى التي أُنشئ منها الإنسان، وكذلك البيوت، ما يجعل البيت صِنو الإنسان وأخاه في الخليقة، فسبحان الله، وبردًا وسلامًا، وتمايُلًا لجذع الشيخ محمود.

استمررنا لثلاثة أيام نُفتِّش في القواديس المرصوصة أمام قمينة الطوب، ونفُضُّ أفواه المسدود منها، حتى تلف تمامًا حذائي الرياضي من كثرة انغماسه في معجنة الطوب والطين اللزج، ولم ندخل قلعة الحمام غير مرة وحيدة، مُتعلِّقين بجلباب الشيخ محمود الذي يفوح برائحة الحُلبة والتراب، فيما يُردِّد الشيخ: «عليك أمان الله، لا تؤذِ ولا تضُر.. كُن بردًا وسلامًا، لا تؤذِ ولا تضُر، ولا تخُن.». وكان مشهدًا خلّابًا رؤية البرج من الداخل، برغم عجزي عن استيعاب المشهد آنذاك، لرهبة المواجهة مع المجهول تحت ستار من تلاوة الشيخ، مع ذلك تبقى اللحظة الأهم في سجل بحثي عن الكنز، لحظة ولوجي في هذه الرحم الهائلة؛ الضوء النافذ من فتحات دائرية كأنها عيون راعية، وعروق الخشب المتقاطعة في طبقات تصل بالسماء، والقبة المدبَّبة التي بلا نهاية، وهذه الأرحام التي بلا عدد، والجدران الطينية، كلها من مادة الخلق الأولى، ما يجعلها أقدم من رؤيا جدنا الشيخ، أيًّا ما كان زمن البناء.. تساءلت حينها لو كان ثمة كنز أكثر إبهارًا من هذه المعجزة.

«لولا الكتابة لكنت حصَّلتك من زمان»، هكذا أخبر شريكي فيما أُهديه إصداري الأخير ليلة سفره، يفِر بعينيه عناوين القصص، يسألني: «مشيت شوية في كتابة الرواية؟»، أقول: «يعني، إلى حد ما»، فيقول: «تعالَ وأنا أروّق لك الجو وتكتب كل يوم»، أضحك: «تفتكر؟»، فيومئ واثقًا من كلامه. أصمت، ثم أقول: «أخشى أن تصبح كتابتي مهاجرة، كصاحبها»، يتبسَّم مُستغربًا كلامي، فأُكمل: «الروح تُهاجر وراء الجسد، حتى لو تأخرت قليلًا في اللحاق به»، فيقول: «ليتها تفعل يا صديقي.. فات عليَّ سبع سنوات ولا تزال روحي عالقة».

***

بخلاف الحكمدارية، لم يملأ عين صدقي بيك كنز مثل زبيدة، درَّة تاج عائلة الشيخ. وليس ذلك لجمالٍ لم تفُز به غيرها، ولا لجاه أبيها البيك الحكمدار، بل لسِحرٍ مُتأصِّل فيها وبذرة اختلاف فاتن أفعم روحها، فأحالها طيفًا غريبًا عن محيطه؛ كأنها طير مهاجر يحطُّ قليلًا في غير موطنه، فيظل الناس يُتابعونه حتى يضرب بجناحيه عائدًا لمداره.

استبشر بولادتها صدقي بيك، لِما سمِعه عن خِلفة البنات من أنها تُرقق القلب وتوسِّع الرزق، غير أن حاله انقلبت بعد وصولها بأشهر قليلة، إذ أُعلنت الحماية على مصر وانتُزِع منه منصبه المرموق. مع ذلك دلل زبيدة فأحسن تدليلها، فقد كانت ذات جاذبية آسرة، تحمَرُّ وقت البكاء كأطفال الإنجليز، وتضحك بصوتٍ رقراقٍ كالماء المنساب من عين حلوان. وجد فيها سلواه بعد انتقاله لكراكول الأزبكية، حيث استُبدِل بلافتة الحكمدار النحاسية الأنيقة فوق باب مكتبه، لافتة خشبية حُفِر عليها لقب المأمور بخط تعوزه الدقة. وعلى عكس المتوقع بعد زوال المنصب، صار يغيب مُددًا أطول عن بيت حلوان، وحين يحضر لا يأكل إلا لقمة يسيرة بلا شهية، ثم يغمر قدميه الكبيرتين في وعاء من الماء الدافئ فوق طبقة من الملح الخشن، وفوق حِجره يحُطُّ زبيدة، مُدلَّعة أبيها وعزاءه الأخير.

ويوم مات أبوها، لم تكن زبيدة قد أتمت الخامسة، واستمرت تجهل حقيقة موته حتى بلغت التاسعة، فقد اتفقوا ألا يُخبروها بوفاة أبيها قبل تعلُّمها الصلاة والصوم، ولم تقدر زبيدة على الصوم بدءًا من السابعة كما فعل شقيقاها حسين وعلي، بل كانت تحسو الماء خلسة أثناء الوضوء وتدسُّ في فمها نُتفات القمر الدين والفواكه المجففة، فيكشفها شقيقها حسين من تغيُّر نبرتها إثر الشرب والطعام، ويُقرر تأجيل

إخبارها بوفاة أبيهما عامًا آخر. ومع أول يوم تصومه بعد إكمالها التاسعة بأشهر، شرحوا لها حقيقة الموت؛ حقيقة أن يذهب المرء فلا يعود، ولا يُعاود اللقاء بأهله مهما اشتاقوه، ربما يطرق باب أحلامهم كي يُطمئنهم عليه، أو يطلب إليهم إكرام روحه بالدعاء والصدقات، لكنْ دون ذلك لا يظهر ثانية. تكدر مزاجها لحديث الموت الغامض، فلم تقوَ على معاودة الصوم لأسبوع آخر، لكنْ سرعان ما تجاوزت كدرها وعادت لطبيعتها الرائقة والمدللة، فلطالما اعتادت غياب أبيها منذ سنوات، واستبدلت بشفقته الشديدة عليها مكانة خاصة في قلوب شقيقيها وأمها خديجة، ومن بعدهم شقيقها الأصغر حسن.

كبرت زبيدة، وارتسم قوامها على هيئة آلة الكمان التي صنعها شقيقها حسن، كما كبر معها ولعها بالموضة والأزياء، حتى إنها فاقت زميلاتها بصورة لافتة في الفنون التطريزية، وصارت مُعلِّمتها الفرنسية تُهديها الأعداد السابقة من مجلة ڤوج الأمريكية، ومجلة الأزياء المصوّرة في نسختيها الفرنسية والإنجليزية، فتعكف عليها وتدرس موديلاتها، وتمكث تُقلدها رسمًا على الورق الأبيض وشدًّا لقطع القماش حول جسمها الآخذ في النضوج، كما باتت تُقصقص صفحاتها وتلصقها بعجينة النشا، كما كان شقيقها حسين يفعل بمقالات السيارات وتصاوير الطائرات. ثم صارت تمشي على مشطَي قدميها رواحًا وجيئة في جنبات البيت، تُحاكي الإيماءات التي تراها في عالم الصور، فتعقص ذراعيها بدلال فوق خاصرتها الرهيفة، تلتفت بنصفها الأعلى دون النصف الأسفل وتنظر إلى الوراء، ثم تمضي بخطوات أنيقة ترسم خطًّا مستقيمًا في باحة البيت الأمامية، فتقف مُتَّكئة على غطاء محرك السيارة الفورد السوداء، ترمق الشمس في عينيها دون أن يرمش لها جفن، ضامَّةً سبّابتها ووسطاها على سيجارة متوهَّمة.

صارت محطَّ إعجاب المُعلِّمة الفرنسية، فأخذت تُغذّي حُلمها بأن تصير نجمة براقة في سماء الموضة. كانت أورُبا قد تعافت أخيرًا من وعكة الحرب، وشرعت تبني عالمًا جديدًا مقطوع الصلة بماضيها المخزي؛ عالمًا حديثًا ينعم فيه البشر بالحرية والرخاء، ترتدي فيه النساء قبعات صغيرة وضيقة، وتنانير قصيرة فوق جوارب من الحرير، قد يرتدين حتى البناطيل، مَن يمنعهن.. أما رجال العالم الجديد فيرتدون بِدلًا أنيقة بسيطة التفصيل، تمكنهم من الركض، من القفز، من مجاراة الزمن الآخذ في التسارع في كل شيء؛ في الصناعة والتشييد، كما في الرقص والموسيقى. إنه

عالم السيارات المسرعة والطائرات المجهزة لحمل الركاب، عالم لن يتسامح ثانيةً مع أي قيد، سواء فُرِض على الأفكار أو الملابس.

كانت زبيدة تُنصت بانبهار لما تقوله المعلِّمة، كما تحفظ عنها أشعار جون كوكتو وأغاني لوسيان بواييه، وتحلم بسُكنى عالمها الجديد. لذلك لم تُجارِ ابن عمها محمد حين تقرَّب إليها. كان يُماثلها تقريبًا في السن، مع ذلك كان يتراءى في عينيها كولد صغير شغوف بألعاب الصبيان، يزورهم بصحبة أبيه فاضل وأمه هنّومة، مُرتديًا بدلة مُقلَّمة بسروال قصير، وطربوشًا يلتهم نصف رأسه، لو رأته مُعلِّمتها الفرنسية لضحكت من هيئته المقسومة نصفين؛ أحدهما لصبي والآخر لرجل، ولو تصادف أن أكلت معه على مائدة واحدة، لهالتها كثيرًا قِلَّة تأدُّبه، بل كانت حتمًا ستزدريه إذ تتلون أصابعه بعُصارة الطعام.

ولطالما أبغضت زبيدة بيت الخرُنفِش، وكرهت الذهاب لذلك الحي البائس ذي البيوت الشائهة والشوارع المرصوفة ببلاط متهالك، وكانت تُبدي ضجرًا صريحًا حين يعتذر سائقو سيارات الأجرة عن دخول الحارات الضيقة، التي تصطف على جانبيها الحمير، فيضطرون للنزول عند ناصية حارة الشعراني والمشي حتى بيت الخرُنفِش. يمشي شقيقها حسن مُتَّكئًا على ذراعها، ويصف باندهاش جميع ما يراه في وِرش النجارة والمشغولات النحاسية، كما يُشير بإعجاب يُثير غيظها لدار كسوة الكعبة، التي قصَّ عليه محمد ابن عمه حكايتها، وكيف تبدأ رحلة المحمل الجليل كل عام من أمام بوابتها الصغيرة الواطئة، فيُزايد عليه علي بالحكاية الأدهش على الإطلاق: حكاية الكنز المدفون بداخل سردابٍ سريّ أسفل بيت الخرُنفِش، والذي يُفتِّش عنه محمد سرًّا في أرجاء البيت.. «وهل توصَّل لشيء؟!»، يسأل حسن مبرّقًا عينيه، فيقول علي: «أظنه اكتشف مدخل السرداب، لكنه لا يزال يُفكِّر في طريقة يُواجه بها القرد الذي يحرس الكنز. قرد أجرب، مخيف، جدنا شافه في المنام!»..

يشمئز وجه زبيدة لسماع تخاريفهم، وتدهش كثيرًا لوَلَع إخوتها بهذا العالم البائس.

وبدخولهم البيت لا يجدُّ جديد، فأخَوات محمد يرتدين القباقيب وينقرن بها أرض البيت الحجرية، فلا يكون وقعها إلا صدًى لطريقتهن الفجة في الحديث، وأظافرهن التي لا يعتنين بها كما يجب. كانت تُحب الخالة هنّومة، سِلفة أمها وصديقتها المقرَّبة، وترثى لجمالها الأورُبّي الحبيس في الزيّ البلديّ، غير أنها كانت تمقت طريقتها في إبداء الاهتمام، حين تتحسَّس مفاتنها واستدارات جسمها أو تضع الطعام في طبقها بيدها المثقلة بالغوائش. كانت تستغرب رضاهن عن حياتهن المملة لدرجة لا

تُحتمل؛ كنَّ لا يقرأن المجلات، لا يحفظن الأشعار، لا يذهبن للسينما أو المسرح، حتى تفصيل الملابس لا يعرفنه في غير المناسبات، تلك التي لا تأتي أبدًا.

كثيرًا ما كانت هنّومة تُشيد بجمال زبيدة وقوامها المتناسق، فتمتلئ أمها خديجة بالغبطة إذ تَصدُر الإشادة عن هنّومة بالتحديد، فقد كانت تراها أجمل النساء جميعًا. أحسَّت بحدسها ما ترومه المرأة من تزويج زبيدة لوحيدها محمد، وكانت تستنكر الأمر في داخلها، فالولد من دور زبيدة تمامًا لا يكبرها إلا بأشهر، كما أن أباه مثال للسَّفه والإسراف، لا يملك ما يزوّج به بناته الكثيرات، فما باله بأصغر أبنائه. ولطالما خشيت أن تخسر صداقة هنّومة، ومداومة فاضل على التردد على أبناء أخيه الميت، لذلك ظلت تتجنب حديث الخطبة المبكرة، فتُبادر بالكلام عن تطلُّع زبيدة لاستكمال تعليمها وطموحها الذي يُناهز طموح الفتيان، ومع تكرار الإشارات فطنت هنّومة لما ترمي إليه خديجة، فلم تعُد تُفاتحها ولو من بعيد في مسألة زواج الأولاد، لكنها بقيت تُراقب زبيدة وتحلم بيوم يرقُّ فيه قلبها لولدها الوسيم، الذي كان هيامه بزبيدة واضحًا وضوح الشمس لا يحتاج لإفصاح، ولذلك ظلت تدفعه نحو التفوق في دراسته، ومداومة الحرص على بناء جسمه واستنفار قوَّته، فلن يرجح كفَّته إلا التحاقه بمدرسة البوليس التي يحلم بها.. عندها سيكون الأجدر بالبنت والأقرب لاستعادة أمجاد أبيها صدقي بيك.

أما زبيدة، فلم يشغل بالها هذا الهراء؛ كانت أحلامها تتجاوز واقعها الخانق، حتى بيوت حلوان السبعة وباحتها الفسيحة وسماؤها البراح لا تسع طموحها الفوّار، فما كانت لترضى بأقل من مجاورة النجوم، من أن تصبح هدفًا للأنظار والكاميرات وربما التلسكوبات، ما أيقنت بكونه ممكنًا حين زارت صديقتها جراسيا التي تعيش على مسافة خمس دقائق مشيًا من بيتها، حيث التقت هناك بخالها العائد من أمريكا حاملًا تلك الأعجوبة المطويَّة بداخل حقيبة جلدية سوداء، تلك التي سلبت لُبَّها من أول وهلة.

كان الخال إفريم مهووسًا بالتصوير الفوتوغرافي، وكان قد نجح في الحصول على كاميرا أنسكو موديل ١٩٢٦، حتى قبل طرحها في محلات بيع معدات التصوير في فيلادلفيا. كان يحملها معه في كل مكان، يترقَّب سطوع الشمس ليفتح بابها الأمامي، فتنقض العدسة المطوية بداخلها كما صقر فُكَّ أسره. قبل وجود الكاميرا الأنسكو، كانت زبيدة تحلم فقط، تُمنّي نفسها بأن تصير ذات يوم نجمة أزياء كاللاتي تُعلق صورهن على جدران غرفتها، أما بعد اكتشافها الكاميرا - أو بعد اكتشاف

نفسها من منظور الكاميرا - فقد رأت نجوميَّتها رأي العين، بدت في الصور أكثر ألقًا وتناسقًا من أغلب موديلات الأزياء الأمريكية والباريسية، ما أكدته جراسيا بحماسة متَّقدة، وصدَّق عليها الخال إفريم؛ قال لها: «أنتِ نجمة بحق، سأُسمّيكِ نجمتي الصغيرة بدءًا من الآن»، ومنذ تلك اللحظة والحلم لا يخطر ببالها فحسب، بل يسكُنها، يرسم إيماءاتها ويضبط اتِّساع بَسَماتها وسرعة مشيتها، يُسلمها للنوم نهاية اليوم ويأتي لإيقاظها في الصباح الباكر. لا وقت للاسترخاء. لا مساحة لما يراه الآخرون. ستصير كما يراها إفريم، هذا كل ما يهمُّها، فوحده كان يراها على حقيقتها، كما تُرى النجوم في السماء.

أفشل في إقناع أمي بتحويل معاش التأمينات الاجتماعية على حسابها البنكي، فلا نضطر للذهاب كل شهر لمكتب البريد. أستغرب منطقها إذ تقول: «أُفضِّل أن أقبض أولًا، ثم أقرر كم سأودع في الحساب وكم سأُبقي لمصاريف الشهر»، يستفزني عنادها وإصرارها على الخروج لمشاوير لا معنى لها، في مدينة خُطِّطت شوارعها بحيث يُفضل سُكانها حبس أنفسهم بداخل البيوت على الذهاب لأي مكان. ماذا لو سافرْت، مَن سيصحبها لقضاء المشاوير؟ أتفهَّم أسبابها مع مُضيّ الوقت؛ لطالما كانت امرأةً نشيطة، تعمل دوامَين مُنفصلين على امتداد اليوم، تقضي مشاويرها بنفسها دون استعانة بزوج أو بسائق خاص، تستضيف فلانة وتسعى مع عِلانة لقضاء حاجاتها دونما كلل. صارت اليوم حبيسة منزل فارغ من المهام الضرورية، نظيف ومُرتَّب كما تُحب، لكنه ساكن فوق الاحتمال، لو أُغلِق التلفزيون لصار البيت صامتًا كقبر. تحتاج لأن تخترع المشاوير اختراعًا حتى تُنقذ روحها من العزلة، لا بد أن تُصافح هذا أو تُناكف ذاك، تسحب ورقة وتنتظر دورًا وتتأفف من ضياع اليوم، تتعارك مع موظف يُريد تعطيل مصالحها لا لشيء إلا لذة التحكم في مصائر الناس، وفي طريق عودتها تشتري الفواكه والخضراوات، تُفاصل بدافع الواجب لا أكثر، ثم تشتري بالسعر نفسه بعد طول مُناهَدة.

أمرُّ عليها ذات صباح لنذهب معًا إلى البنك، «صباح الخير»، تقول فيما تتدلق بثقلها على المقعد المجاور «صباح النور يا ماما»، أقول بنبرة السأم الصباحي الذي لا يُطلق سراحي قبل الظهيرة، لكنها وبعبارة واحدة فقط تبعث الحماس بداخلي؛ تقول: «كتبت لكَ كل ما افتكرناه أنا وإخوتي عن أسرة جدي صدقي»، أسألها باستغراب: «إخوتك؟»، تقول: «نعم، جمعت من خالك وخالاتك الكثير.. طالعه وقل لي إن كان ينفعك، بإمكاني أن أكتب المزيد».

لقد تورطت معي لدرجة تجعلها لا تكتفي بالحديث، بل تدوّن كتابةً ما يخطر لبالها وبال إخوتها من الذكريات. يدفعني الحماس للإسراع نحو البنك. تتوالى الأرقام، يوشك رقمها أن يظهر على الشاشة، تتقدَّم نحو مسافة بينيَّة تتوسط شُباكَي (٥) و(٦)، تتربص بتحوُّل الشاشة الرقمية لكي تنقض سريعًا على الموظف المحفوظ خلف ساتر زجاجي، أتركها لصيدها وأتصفح النوتة التي امتلأت منها نحو عشر صفحات بخطِّ أمي. يتكرر بين السطور اسم حسن، أصغر أبناء صدقي بيك الحكمدار، كأنما يُلوِّح لي لأنتبه إليه. أتذكر كيف تمرُّ أمي سريعًا بقصته، لا تُفصص

تفاصيلها كما تفعل مع الباقين، في حين يرمقها أبي بتهكُّم مكتوم، كأن لديه ما يقوله لكنه يؤثر الصمت. أقرأ بتدبر أكبر، ويشرع خيالي في ملء الفراغات.

***

كان آخر أبناء جيله قدومًا للحياة، وأسبقهم إلى الرحيل. أسماه أبوه «حسن»، فصار أول سَميٍّ لجدِّنا الأكبر هازم الفرنساوية، أبرز وجهاء العائلة. ربما تمنى البيك الحكمدار لأصغر أبنائه وجاهة الجد حسن، أو قد يكون توسَّم فيه روح الجد الشفافة، ومقدرته على الإتيان بالمعجزات. ولم يُخيِّب حسن الصغير ظنَّ أبيه بدرجة كبيرة، فقد كانت له روح وثّابة لا نظير لها في تاريخ الأسلاف؛ روح رجل فذ تولد على يديه المعجزات، لولا أنها ظلت حبيسة بداخل جسد مُعتَلّ، كُتِب عليه ألا يعيش ليرى معجزاته.

يوم وضعته الست خديجة، حملت لحضنها القابلات قطعة لحم حمراء كالدم، لا تتجاوز الخمسة أرطال، لها شعر أسود ناعم شديد اللمعان. سرعان ما التقم حلمة أمه، وشرع يمتص ثديها بمهارة مَن تدرب على الرضاعة طوال فترة الحمل، وما كان يصرخ كسائر الرضَّع إلا لمغص شديد أو لجوع فاتك، بل كان يُحدِّق أكثر الوقت بعينين سوداوين تلمعان كعقيقة خاتم أبيه الحكمدار، ما جعل إخوته يُكذِّبون فيما بينهم ما يدَّعيه الكبار، من أن المولود لن يميِّز الوجوه قبل مرور أسابيع، فقد كان حسن يُحدِّق فيهم حين يكلِّمونه ويتابع أصابعهم كلما لاعبوه. وسرعان ما أظهر استجابة لكل شيء؛ لصليل الملاعق الفضية، لصهيل قادر في الباحة الخلفية، لغناء زبيدة الأكبر منه بعامين، حتى أضحى كتلة شديدة الحساسية لكل مُثير.

في عمر سنتين، صار يُجيد محاكاة غناء أمه وشقيقته، ومع بلوغه الثالثة وقت مات أبوه، صارت ملهاته في القلم الرصاص والأوراق البيضاء، وأظهر موهبة فريدة في الرسم لا تُناسب أصابعه الدقيقة. وفي نفس العمر ظهرت عليه بوادر مأساته، فقد بدأت مشيته تتخذ إيقاعها الفريد، الذي استمر يضرب أطرافه حتى أفلتت روحه من ردائها المعطوب. كانت زبيدة أول مَن لفت انتباه أمها خديجة لمشية حسن، فقد هيَّأ لها خيالها الجامح أن الولد يُراقصها كلما خطا نحوها، فتضحك الست خديجة من أوهام ابنتها السابحة في فضاء آخر، لكنْ مع تكرُّر الأمر بدأت تُلاحظ تلك التموجات الدقيقة في الكتف والردفين، التي تسري في أطراف حسن كلما ترك الطبلية التي يرسم عليها، أو هبط درجات البيت وراء زبيدة. كانت تُطمئن نفسها بأن الولد أذكى أبنائها، لكنه أضعفهم جسمًا على الإطلاق، وقد يستغرق بعض

الوقت ليُتقن المشي والركض واللعب، مع ذلك ظلت تُراقب ابنها بعينين قلِقتين، فليس ثمة تحسُّن يظهر عليه، بل إن وساوس الشيطان هيَّأت لها أن الحالة تسوء.

وقبل بلوغه الخامسة، مضت به أمه لمدرسة الليسيه حيث يدرس إخوته، فكان أكثر ما لفت انتباه ناظرها الفرنسي - المهووس بالنظر في ساعة جيب مشبوكة في عروة الصديري - هو مهارة حسن الفريدة في الرسم، ومشيته التي تُحاكي خطو الدجاج.

«هل عرضتِ الصبي على طبيب؟»، سألها الرجل بعربية مكسَّرة، فنظرت لحسن وقالت: «ماذا به؟!»، لوى الرجل شفتَيه وأجاب: «الطبيب يعرف ماذا به، أنا لا»، وعاد ينظر لساعة الجيب.

وكان للناظر أخ طبيب في مستشفى قصر العيني، ذهبت إليه الست خديجة برفقة فاضل أفندي عم الصبي، وهناك وقف الطبيب في ردهة المستشفى مُمسكًا بغليونه، وأخذ يُراقب حسن الصغير بينما يخطو فوق سجادة البلاط الملون المغسولة بالفنيك، فيما تُتابع الست خديجة وجه الطبيب الجامد كتمثال. بعد برهة أومأ الطبيب بغليونه أن يتبعوه، وكاد قلب الست خديجة ينخلع من مكانه فيما تمضي وراء الطبيب، كأن هواجسها التي ظلت تتغافل عنها طيلة شهور، تجسدت أمامها في ردهة قصر العيني، وراحت تستولي على حواسها التي صارت الآن أكثر إرهافًا من أي وقت؛ تزهق روحها رائحة الفنيك، تضرب طبلتَي أذنيها طرقات كعبَي حسن فوق البلاط المزخرف، يدهم عينيها ضوء النهار كحقيقة مُفجعة تتكشَّف أمامها.. ماذا بالولد؟! يتردد السؤال في فراغ صدرها المصدوع، وتطرق دماغها إجابة الناظر القلق من ضياع الوقت: الطبيب يعرف ماذا به، أنا لا.. أنا لا.

كادت تختنق، والطبيب يتلكأ في الإفصاح برأيه، جذبت بُرقعها الحريري أسفل قليلًا، حتى تُحرِّر أنفها الدقيق من قبضة الموت، لم تعرف إن كان بإمكانها أن تُجلِس حسن فوق حِجرها، انتابها الرعب أن تؤذي عظامه، أن تُفكِّك أطرافه التي يُراقبها الناس كظاهرة تُثير عجب الجميع باستثنائها، يا لها من غافلة! «تبدو حالة ضمورٍ في العضلات»، أخيرًا قال الطبيب، «حالة مُلغِزة، يدرسها أطباء الأعصاب في فرنسا»، سحب نَفَسًا من غليونه، وأخذ يرمق الصبي بابتسامة رقيقة، ثم قال مُحدِّثًا فاضل: «مسيو صدقي».، قاطعه قائلًا: «أنا عمه، أبوه صدقي بيك متوفَّى»، فأكمل الطبيب: «آسف لسماع ذلك، أنت في مكان أبيه، امنحهُ حياةً طيبةً، ولد بعينَين كهاتَين يستحق حياة طيبة. سأراسلكم لو جدَّ جديد في علاج الضمور العضلي، أما الآن فليحفظكم الرب».

مضى أمامها فاضل مُمسكًا بيد الصبي، يسير على مهل مُراعيًا حالة الحوض السائب والساقين المفكَّكتين. كانت في أمسِّ الحاجة لصوتٍ يؤنس عزلتها الموحشة، يُخبرها بأنها ليست وحيدةً في مصيبتها. قالت بصوتٍ يتهدَّج يأسًا: «الواد سيروح مني يا فاضل أفندي»، استدار بجانب وجهه قائلًا: «تفّي من بُقّك يا ست خديجة، بكرة تُفرَج.. ترقيه الست أم فاضل ويصِحُّ بمشيئة الله». لكن خديجة كانت تعلم كم للموت من أظافر طويلة، وقد نشبها في لحم صدقي قبل عامين، ولن ينتزعها بغير دماء حارة تسيل. دفست راحتها تحت البرقع ومسحت وجنتيها المبلَّلتين، وفي الحنطور أغمضت عينَيها على الدموع الباقية، وسألت الله اللطف والعافية، وأن يجعل يومها قبل يوم حسن.

أفشل في أداء دور وكيل المبيعات، الذي يُجيد استدراج الزبون وغلق الصفقة من أقصر طريق؛ عادةً ما يلعب على حبلَين: طمع الزبون، وتهوين الثمن.. زوجتي ليست بالزبونة السهلة؛ لا هي طمعانة في حياة أفضل، ولا هي مستعدة لدفع الثمن، مهما كان هيّنًا.

«يفتح الله يا أحمد.. أنا لن أسيب البلد دي!»، هكذا تسد في وجهي الباب قبل أن أُكمل العرض، ولا تَفُوت خمس دقائق حتى يرن هاتفها، فتشير إليه وتقول: «سبحان الله، كأن قلبه حاسس!»، أفهم أنه حماي العزيز، بحاسَّته الأمنية التي لا تُضاهى.. راسلته طبعًا فيما نتحدَّث: «كلِّمني فورًا»، أو شيء من هذا القبيل، فسارع للسؤال على ابنته!

«أنا تمام يا بابا.. صوتي طبيعي، لا تقلق»، تقوم لتستكمل المكالمة في البلكونة، تغلق وراءها الباب الزجاجي، وتقتعد المرجيحة التي أهداها بها سيادة اللواء، وقت كان يُجدد فرش الشاليه. لا أرى منها غير جانب وجهها، وساقها المثنية فوق شَلتة المرجيحة، والأخرى المدلّاة لتلامس الأرض بمشط قدمها.

جميلةً لا تزال.. أحبها كثيرًا من خلف الزجاج.

***

صارت لحظته التي يترقب حلولها طوال اليوم، ولأجلها يتأهب بالإسراف في التدخين بعد العَشاء، حتى يصلها صائمًا زاهدًا في كل شيءٍ عداها.. ليليت؛ ذلك الطيف الوضّاء، الذي سكن خياله واستراح، واستباح. وبرغم أنها لا تظهر كل ليلة، ظل نشأت يندم بحُرقة على الليالي الضائعة التي أمضاها بعيدًا عن صبوة انتظارها.

بحث عن وسيلة للسؤال عنها؛ متى حلَّت في شارع الخرُنفِش؟ في أي طابق سكنت في البيت المجاور؟ أبصفة مؤقتة أم دائمة؟ وكيف تُضيء هكذا في جُنح الليل، لا بد أن عجينها الشفاف يُشع من ذاته! إن لم تكن ثمة إجابة مريحة على هذه الأسئلة، سيُصيبه الهوَس لا محالة. لا.. ليس هذا نشأت الجسور الذي يربض خلف مدفعه ليفتك بمَن يسوقه الموت لمرمى نيرانه. ماذا دهاه؟ كيف أضحت نيرانه حبيسة قلبه، تكوي أحشاءه بحرارة الصبو والترقب؟

أحيانًا تختار الظهور على هيئة شهابٍ يعبر السماء، فتمرق سريعًا خلف باب غرفة السطح، وتنزوي في أحد أركانها. قد يستطيع تحديد موقعها، إذ تُظلِم بقعة ما خلف شقوق الجدران الخشبية، فيعرف أنها استندت بطيفها المخملي في هذا المكان

بالتحديد، ويستمر يرمق البقعة المظلمة الشهية حتى يُشع النور منها من جديد، فيقفز ببصره سريعًا صوب الباب المفتوح، آملًا في عبور الشهاب ثانيةً قبل أفوله الليلة. قد تُغدق أحيانًا بفيضٍ من نور، فتخرج بكامل هيئتها إلى السطح المظلم، يُشع ضوء الغرفة عبر ثوبها الشفيف، كأنها العذراء تظهر في السماء في ثوب وهّاج. وقد تغيب تمامًا فيعود خائبًا لمضجعه، ويُطبق عينَيه على صورتها المنطبعة في خياله.

عرف عنها النزْر اليسير من طُلبة السقاء، إذ تحجج ذات صباح بانزعاجه الشديد من صرير باب البيت، ووقف يتصايح في الشباك المُطِل على حوش البيت: «جاك خابِط في دماغك يا طُلبة! ادفع الباب بالراحة يا بني آدم، خرمْت أذني!»، فارتبك الرجل في جلبابه القصير المعقود عند الخَصر، وكاد ينكفئ بقربة الماء حين رفع بصره صوب مصدر الصيحة: «لا مؤاخذة يا نشأت بيه!»، فأكمل نشأت بنبرة آمِرة: «صُب الماء وانتظرني عند البوابة حتى أجيء بشوية شحم». سرعان ما نزل نشأت، وارتقى كرسيًّا واطئًا وضعه أمام الباب، ووقف يُشحم المفصلات النحاسية المُهبَّبة، فيما وقف طُلبة السقاء لا يعرف له دورًا مفيدًا، قال لنشأت: «تأمرني بحاجة يا بيه؟»، فقال له: «أمسِك الكرسي جيدًا كي لا أقع»، ولم تكن ثمة حاجة للإمساك بشيء، لكنه أطاع الأمر خشية إغضاب البيك الصغير.

وفيما يحشو الشحم في المفصلات، قال نشأت: «تعرف يا طُلبة أوضة صغيرة للإيجار، فوق أي سطح قريب؟»، انتبه الرجل قائلًا: «لمَن سعادتك؟»، فزمجر نشأت: «وأنت ما لك يا بني آدم! لي أو لغيري، تعرف ولا لا؟»، فأوضح الرجل: «أسأل لسعادتك، لكنْ لازم أقول لصاحب البيت صِفة مَن يرغب في استئجار الأوضة، هكذا الأصول»، فقال نشأت: «ماشي يا أبو الأصول، قل له الأميرالاي نشأت يُريد استئجارها، الست الوالدة يُضايقها الدخان، وأرغب في أوضة صغيرة على سطح قريب آخذ فيها راحتي في التدخين»، فقال السقاء: «إذا كان كدا أسأل لجنابك».

نزل نشأت من فوق الكرسي، واتَّكأ بتباسُط فوق كتف الرجل، قائلًا: «بُص يا عم طُلبة، أنا لمَحت أوضة فوق سطح البيت الذي وراءنا، أوضة خشب لونها أخضر، أظنها تفي بغرضي. فاتِح صاحب البيت في الموضوع وأنا جاهز»، فقال السقاء: «الأوضة التي فوق السطح سعادتك؟ دي مُستأجَرة من يجي شهر»، عقَّب نشأت بدهشة مُصطنَعة: «مُستأجرة؟! لا طبعًا.. مَن أجرها وقد كانت خالية من مدة قصيرة؟»، فقال السقاء: «مضبوط يا بيه، لكن الست ريتا الأرمنية الساكنة بالدور

الأرضي استأجرتها، السيد جاد الله صاحب البيت جارها في نفس الدور، وكل يوم يتشاكل معها ومع بنتها بسبب صوت مكنة الخياطة، فاستأجرت منه أوضة السطح لتسترضيه، وصارت تخيط فيها بالليل والناس نيام، لتتحاشى غضب السيد».

ربَّت نشأت كتف الرجل، ودسَّ في باطن كفِّه نصف فرنك رفضها لأول وهلة، ثم باسها شاكرًا عطف البيك، وحمل قربته وغادر البيت. بدل المعلومة الواحدة صار لديه اثنتان؛ الفتاة أرمنية، وتعيش وحيدة مع أمها - مجرد استنتاج - في الطابق الأرضي لهذا البيت. تعرَّف إلى الخواجة داود تاجر المانيفاتورة، صاحب الدكان المطل على بيت الفتاة بزاوية طفيفة، وصار يذهب إليه بالدخان والفطور في أكثر النهارات، يُفوِّت يومًا ويمضي يومًا ساحبًا خلفه صبي المقهى، حاملًا صينية الإفطار وكوبَي الشاي. «سبقتك وأفطرت يا أميرالاي»، يُخبره الخواجة إذ يلمحه مُقبلًا من بعيد، فيقول نشأت: «الفول الساخن يجُبُّ ما قبله»، ويضع الصينية على المصطبة العريضة في واجهة الدكان، ويخلع حذاءه الجلدي اللامع ويتربع أمام الخواجة مادًّا إليه عُلبة السجائر المعدنية.

«أين وصل موضوعنا يا خواجة؟»، يسأله عن الصفقة المزعومة التي استدرجه بها لهذه الصداقة الناشئة، فقد أخبر نشأت الخواجة داوُد بأنه يعمل مع الجيش البريطاني منذ ترك الجندية، كتعويض له عن إصابته بعاهة مستديمة أثناء القتال. قال إنه عمل حينًا كمُتعهِّد للأغذية، يورد للجيش ما يحتاجه من الخُضَر والفواكه من أطيان أخته الست نعمات، التي لا أول لها ولا آخر، فيما يُخطط الآن مع عدد من الضباط الإنجليز للحصول على أوامر توريد الأقمشة، «صفقة العمر يا خواجة.. أعطني أنت عينات القماش، واترك الباقي عليَّ»، ظل يُكرر عليه ذلك بثقة مليئة، ويزف إليه مع كل لقاء خبرًا جديدًا يُجرِّي ريقه: «عنابر النوم تحتاج لتجديد، ستائر وملاءات وأغطية سرير»، «الشتاء على الأبواب، دا وقت البطاطين»، «هناك اتجاه لتمديد مسرح العمليات نحو إفريقيا. لو تمَّ التصديق عليه سيكون ضروريًّا تغيير ألوان ملابس الجنود». فطور، فشاي، فسجائر، فعينات أقمشة، «نزِّل لي هذا الثوب.. لا، الذي يليه»، فجذب لقُصاصات القماش، فتعريضها للهب أعواد الكبريت، «تمام دا يا خواجة»، يقول نشأت، فيُؤكد الخواجة داوُد: «دا من أفضل فبريقة في البر كله».

يُمضي الساعات مُراقبًا نوافذ الدور الأرضي؛ ستائر الدانتيلا البيضاء مُسدَلَة طوال النهار، يلُوح من ورائها ضوء شفيف، يزداد توهجًا كلما تقدم النهار. أحيانًا تموج

أطياف بلا ملامح واضحة؛ أتكون الفتاة؟ أو تكون أمها؟ أم ثمة سكان آخرون؟ كان يُسائل نفسه: كيف تكون الحال لو تجسَّدت أمامه في وضح النهار، لو تمثَّل طيفها كمعجزة تخزق عين الشمس، هل يطير عقله أبعد ممَّا طار؟ ولم يكن قد توصَّل بعد لإجابة تُريح البال حين وقعت الواقعة، وكان قد مرَّ أسبوعان منذ صار يُجالس الخواجة صاحب دكانة المانيفاتورة، إذ لاح وهج خلف ستائر الدانتيلا، كأنما ينبعث من مصباح زيتي، ثم أخذ الوهج يبتعد حتى تلاشى بالداخل، وسرعان ما ظهر في مدخل البناية، فانحنى نشأت يُشعل سيجارة ويدقق النظر في مصدر الضوء، ولمح سيدة مُسنَّة تقف على أول بسطة، تحمل في يدها مصباحًا زيتيًّا، وإذ بالمصباح يضطرب فجأة، فيسطع منه طيف رشيق هابطًا درجات السلم، فيما يُشعُّ الضوء خلفه كأنه الوحي.

دقَّ قلب نشأت كالناقوس، حدَّث نفسه: إنها الفتاة! وارتعشت السيجارة بين شفتَيه فسقط رمادها على رباط عنقه، «يا ساتر يا رب.. يا ساتر يا رب»، هبَّ نشأت ينفض الرماد، ويعتذر للخواجة بحاجته للعودة للبيت وتبديل ملابسه. «بسيطة يا أمير الاي»، قال الخواجة، فاستمر نشأت يُنفِّض قميصه وسترته شبرًا بشبر، مُتمهلًا حتى يجتاز الطيف بوابة البيت، ويتخذ طريقه يمنة أو يسرة. وحالما هبطت الفتاة إلى الشارع، وارتفع طَرقُ كعبَيها فوق بلاط الطريق، انطلق نشأت خافضًا بصره، مُتشاغلًا بإشعال سيجارة أخرى.

تبعها حتى شارع الموسكي، مُحاذرًا من عربات الكارو والحنطور المسرعة في الاتجاهين، راسمًا سِمة التجهم على وجهه، وكلما توقفت أمام دكان، سارع نشأت بالوقوف تحت أقرب مظلة قماشية، كأنما يستريح. حتى لمحها تبتاع شيئًا ووجد البائع يطويه في لفافةٍ ورقية، فظنَّها ستُقفِل عائدة إلى البيت فيرى أخيرًا قسمات وجهها، لكنها مضت في نفس الاتجاه لمسافة أخرى، انعطفت بعدها نحو حارة تتوسطها كنيسة الأرمن. أخذ نشأت يذرع الحارة رواحًا وجيئة مُراقبًا باب الكنيسة، حتى انتابه القلق من ضياع الفتاة فقرر الدخول، وما إن اقترب قليلًا حتى لمح فستانها يُطِل خارجًا من الباب، فاندفع في طريق العودة الذي لا بد أن تسلُكه، دون أن يمنح نفسه فرصة التحقُّق من ملامحها أو التأكد من وِجهتها.. «ما الذي تفعله يا بغل؟!»، أخذ يُوبخ نفسه أن أضاع فرصة النظر إليها، واستمر يخب في طريق العودة موقنًا بأن طيفها يسري وراءه كما سحابة لا تلمس الأرض. ولما شارف دكان المانيفاتورة وارى وجهه بالطربوش، كأنما ليضبطه، ودلف لداخل بناية الفتاة،

متواريًا بالمدخل المظلم، غير عابئ بما سيحدث بعد ذلك. مكث صامتًا مُتعرّقًا لا يلوي على شيءٍ محدد، وليس أمامه من سبيلٍ للعودة، حتى تناهت إليه طرقات كعبَيها ذات الإيقاع المنتظم، فازدرد ريقه الجاف، وخلع طربوشه بأصابع هربت منها الدماء.. تعالت الطَّرقات أكثر، تقدَّم بلا تفكير صوب الباب، ووقف منفرج الساقَين قاطعًا عليها الطريق.

فزِعَت الفتاة.. شهقت ودفعت تجاهه لفافة الورق، فتلقَّفها محدِّقًا في عينيها السوداوين، وهذى قائلًا: «أنا طالب القُرب»، فشهقت ثانيةً وقالت: «أنتِ مجنون؟!»

كان محمد بن فاضل لافت الوسامة في صغره، بوجهه الوردي المليء وعينيه الزرقاوين الناعستين، وذراعيه المتينتين وكتفيه العريضتين، وكان الجميع يترقبون يومًا سيدخل فيه مدرسة البوليس ويُكرر أسطورة عمه الحكمدار، وإن كان بوسامة أكثر إلفاتًا وشخصية أشد اقتحامًا، ما جعله محط إعجاب الناس جميعًا، إلا تلك التي لم يتُقْ لإعجاب أحد سواها، والتي كان يُناديها في خياله زوزو، وفي العلن يقول: «زبيدة بنت عمي». أما هي، فلم تكن تجد سببًا لمجالسته أو للحديث إليه، ففي زياراتها القليلة لبيت الخرُنفِش كانت تجلس في صدر غرفة المعيشة كالأميرات، مُحاطة بأمها خديجة وأمه هنّومة، ومن حولها تتحلق بنات العم فاضل ذوات القباقيب والقمصان الزاهية، أما محمد فكان يلعب مع ابنَي عمه وأقرب أصدقائه حسين وعلي في الفناء المكشوف أو في الأرض الفضاء المتاخمة للبيت، ثم في ركن صدقي بيك حين كبروا وصاروا مشغوفين بتشغيل الجرامافون أثناء لعب الورق. أحيانًا ينضم إليهم حسن، لكنْ سرعان ما تستدعيه أمه لمجلس النساء خوفًا عليه، فالصبيان يتحولون للركض واللعب العنيف دون سابق إنذار، ما يجعل ولدها الصغير عرضة للتأذّي.

ومع تفاقُم حالته، صار حسن أشد التصاقًا بأمه وأخته، فقد وجد في إيقاع النساء الأبطأ قليلًا ما يُوائم مزاجه ومقدرته، كما أخذت تستهويه قعدات النساء وما يملأن به فراغ أيامهن من هوايات، فامتلأ شغفًا بالرسم والمشغولات اليدوية، وصار أكثر ميلًا إلى الغناء والثرثرة. كان محمد يستغرب مَيله للاسترخاء بصحبة الحريم، ويتحسَّر على سِمّانتيه البارزتين الأكثر نفعًا للاعب كرة منهما لفنان رقيق الحس. حاول مِرارًا استمالة ابن عمه لألعاب الصبيان، بهدفٍ مُعلَن هو تحفيز حسن لكي يصير أقوى بدنًا وأكثر سرعة، أما هدفه المُضمَر فكان التقرُّب إلى زبيدة اللصيقة بأخيها، وترقيق قلبها اليابس الغافل.

لكنها ظلَّت تهيم في عالمها الفوقي؛ تُجاور في أحلامها نجمات المجلات وتُخايِل عدسات الكاميرات، وتنشد المزيد من إعجاب الخال إفريم ونصائحه. كانت قد أوغلت في علاقتها بزميلتها جراسيا، وصارت تُكثِر من زيارتها أثناء الإجازات، ما زاد من فرص لقائها بالخال إفريم منذ استقر على البقاء في مصر، في بيت أخته الكبرى أم جراسيا على وجه التحديد.

صارت زبيدة هدفًا فريدًا لعدسة كاميرته، حتى إنه جعل منها موديلًا لبطاقاته البريدية المصوَّرة التي يبيعها لمعارفه الأمريكان والأورُبِّيين. فمنذ عودته من أمريكا بدأ نشاطه في التصوير الفوتوغرافي؛ يُصوِّر مشاهد قاهريَّة ذات طابع فريد؛ دكاكين صغيرة مُتراصة، مصاطب وأقفاص يجلس عليها رواد المقاهي، قوافل جِمال تنقل البضائع، سُقاة يحملون قِرَب المياه عند مداخل البيوت، مُكارين ينقلون الأمتعة فوق أظهر الحمير والبغال، نسوة مصريات وسودانيات لا مثيل لسحرهن. ظل يُعاني الأمرَّين حتى يُقنع فتاة أو امرأة فاتنة بالوقوف أمام الكاميرا، واتخاذ وضع شهي للتصوير، وعادةً ما كان يستميلهن بالمال لكي يقبلن، ويواجه المتاعب في توجيههن أو ضبط ملابسهن على نحو يُثير شهوة الكاميرا. كثيرًا ما قابلنه بردِّ فعل عنيف إزاء لمسِه ثيابهن، أو طلبه منهن توسيع طوق جلباب أو تشبيك أصابعهن بطريقة تفوح بالدلال. وما إن تعثَّر بزبيدة حتى حُلَّت جميع مشكلاته.

مع زبيدة، بدأت مرحلة جديدة من عمله في التصوير وطباعة البطاقات البريدية، شرع خلالها يستخدم الموديلات - بأجرٍ أو بدون أجر - لتصوير بورتريهات يبتكرها في خياله؛ يلتقط الفكرة من امرأة سابلة أو من غجرية عابرة، من راقصة ملهى ليلي أو صاحبة بيت للعاهرات، أحيانًا يستأجر ملابسهن ويقوم بغسلها وكيّها، وأحيانًا يستعين ببعض الإضافات لو وجد حاجة لذلك، ثم يُلبِس موديلاته أردية الشخصيات التي يُحاكينها، في أستوديو التصوير الذي أعدَّه في كوخ خشبي مقام في الباحة الأمامية لبيت أخته أم جراسيا، وبذلك يُنتج صورًا أفضل إضاءة وأكثر مُقاربة لتصوُّراته المبتكرة.

بيعَت بعض بورتريهاته المميزة بمبالغ فاقت توقعاته، ما جعله يفكر بجدية فيما عرضته عليه صديقة يهودية تعمل في فرقة بديعة مصابني، حيث اقترحت عليه عرض بورتريهاته المصوَّرة في بهو كازينو بديعة بعماد الدين، فهناك يحضر العديد من الأثرياء والأجانب روايات الست بديعة. زار المكان نهارًا، وافتُتِن ببَهوه الواسع المحاط بالنوافذ، والسُّلمَين الرخاميين الملتويين على الجانبين، وقرر اللقاء بمدير الكازينو خليل صديقته لمعرفة شروطه، وانهمك في التجهيز لهذه الخطوة المهمة في مسيرته الفنية.

كانت زبيدة آنذاك كثيرة التردد على بيت جراسيا، بحجة الاستعداد لامتحانات التوجيهية التي باتت قريبة، فسألت جراسيا عن سر اختفاء خالها إفريم هذه الأيام،

فقالت الأخيرة إن عليها الانتظار حتى يعود ويُخبرها بنفسه، ما أثار فضولها بدرجة تجاوزت صبرها، بل جعلتها تستقبل خبره بحماسٍ فارَ أسرع من السبيرو سباتس الذي تشربه خفية في بيت جراسيا.. «هذا أعظم خبر سمعته في حياتي!»، هكذا قالت للخال إفريم حالما لامست قدماها الأرض، وكان قد احتضنها ودار بها عدة دورات فيما يهمس إليها بالخبر السار، حتى دار رأسها. فتح للفتاتين زجاجتَي سباتس مثلجتين، ولنفسه زجاجة بيرة باردة، وجلس مُسترخيًا يقصُّ عليهما الحكاية من أولها، ثم أخبر زبيدة بأن صورها ستحتل نصف جدران بهو الكازينو، ستصير النجمة التي تخيَّلاها معًا بدءًا من هذه الخطوة. قال فيما يعرض عليها الصور التي وقع اختياره عليها: «نجوم الفن والمجتمع سيتساءلون قريبًا عن اسم زوزو صدقي، حين يسيل لعابهم أمام فتنتها المصرية الخالصة»، هكذا جرت كلماته وجرفت في طريقها جميع العقبات، وبهذا انشغلت زبيدة تمامًا عن التأهب للامتحانات، وحتى عن متابعة أخيها حسن، الذي صار يقف على أعتاب المدرسة الثانوية، وبات قريبًا من استبدال بنطال الثانوية الطويل بتلك البناطيل القصيرة التي كانت تُظهر سمّانتيه الآخذتين في التضخُّم مع تفشي المرض.

تلاشت فورة الحلم بعد أيام، حين صحت زبيدة على خاطر داهمها من حيث لا تعلم؛ قال لها: ماذا لو شاف صورك عمك فاضل، الذي لا يترك رواية جديدة إلا حضر عرضها الأول؟! ماذا يكون موقفه، وكيف ينقل خبركِ لخالتكِ هنّومة وأمكِ خديجة؟! كيف تبدين أمام بنات عمومتكِ ذوات القباقيب والجلابيب؛ ماذا يقُلن عنكِ؟! لم تكن قد باحت بسرها لمخلوق، إلا لصديقتها جراسيا ولمدرستها الفرنسية التي فرحت بها أيما فرحة، ولم تجد أمامها مَن تُشاركه خوفها إلا جراسيا، فتحججت بضياع كتاب هام وسارعت لبيتها، لكن الأخيرة سخرت منها وأبدت دهشتها من حرصها الزائد على رأي أقاربها الأجلاف: «كيف تهزئين منهم وتأنفين رؤيتهم، ثم تخشين رأيهم في تصرفاتكِ؟ أنتِ تناقضين نفسكِ بطريقة بائسة!»، كان هذا رأي جراسيا وبسببه امتنعت عن مساندة زبيدة أمام الخال إفريم، حين وقف في أستوديو التصوير يرصُّ الصور التي أطَّرها بخشب مُذهَّب وقطيفة حمراء قانية، غير عابئ ببكاء زبيدة وتوسلاتها أن يُرجئ العرض حتى تُمهِّد لأهلها الخبر.

حضر علي لبيت جراسيا ليأخذ زبيدة إلى البيت، وأمام سور البيت توقف وأرهف السمع، فقد كان بكاء زبيدة يصدح مُلتاعًا من داخل الكوخ الخشبي الكبير في الباحة الأمامية. سمع عبارات لم يستطع جمعها في سياق مفهوم، لكنه أصر على زبيدة

فيما يعودان للبيت أن تصارحه بكل شيء. كانت تثق به، وتعرف كيف يخلو فِكره من التزمت والرجعية، لذلك أقدمت على إخباره بأبعد صياغة عن إثارة غيظه: التقط لي الخال إفريم صورًا فنية في غاية البراءة، والآن يريد عرضها على الملأ بين صورٍ لراقصات وجاريات لم أرَها إلا الآن، أخبرته بأن ذلك لا يليق وطلبت استبعاد صوري، لكنه يرفض.. هكذا شرحت له الموقف بإيجاز، طالبةً منه ألا يتدخل بطريقة قد تُفسد المسألة بدرجة أكبر، ووعدته بمعالجة الخلاف غدًا حين يهدآن.

ولم تكن تتوقع منه أن يُقدِم على أي تصرف دون الرجوع إليها، وألا يقتصر تصرفه عليه وحده، بل أن يُشرك فيه صديقه الأقرب محمد ابن عمه، لكونه الأجرأ على التعامل مع هذه المواقف العصيبة. فيما كان علي يجهل أن الأمر يمس ابن عمه فوق ما يمس الآخرين، وأن محمد قد يرتكب حماقة تحول بينه وبين أحلامه التي كان يضعها نُصب عينيه؛ حلم الجاه والثراء، حلم الحكمدارية وخلافة العم، وحلمه الأغلى من أي حلم، زوزو الجميلة الفاتنة.

كانت دماؤه تفور لأهوَن جمرة، فما باله وقد قُذِفت عليه كتلة اللهب هذه مُستعِرةً وحارقة، لتعصف بشرفه وعشقه في آن. لم يكد يُصدق ما أسرَّ إليه به علي؛ ليست زبيدة مَن تقوم بعَمْلةٍ شائنةٍ كهذه، ليست سهلة لهذه الدرجة، وليس قلبها رخوًا مِطواعًا سائغًا للنهش، بل إن قلبها حجر صوان تنكسر عليه أضراس الرجال، وقد كان محمد رجلًا في عشقه، لم يُطأطئ رأسًا ولم يُرِق كرامة تحت قدميها، لكنها رغم ذلك كسرته، والآن تُفتِّته، بدرجة يستحيل معها جمع أجزائه من جديد.. كيف يكسرها يهودي دنيء؟! لن يكون ذلك أبدًا ما دام يتنفس فوق ظهر الأرض، وطالما استمر قلبه ينبض باسم زبيدة.

"هل قالت إن التصاوير بداخل الكوخ؟»، سأل علي ابن عمه بحقدٍ جاهد لكي يُخفيه، فقال علي: «نعم، هكذا قالت زبيدة. تصاوير لها ولنسوة أخريات»، فقال محمد: «إذًا نحرق الكوخ».

تفاجأ علي بما ذهب إليه محمد، قال إن الأمور لا تُحل بهذه الطريقة، بل إنها ستتعقَّد، وزبيدة لن تغفر لنا فعلة كهذه! الأجدى أن نواجه الرجل معًا، أن نغصب عليه لكي يُعطينا الصور، وإلا لجأنا لمعارف صدقي بيك ضباط البوليس، فقاطعه محمد: «نحن أولى بلحمنا من معارف صدقي بيك! لو أمهلناه الوقت سينقل التصاوير لمكان آخر، ولن نصل إليها أبدًا؛ علينا أن نُباغته».

كان حاسمًا لدرجة ألجمت علي عن الكلام. لا أمل في مُحاورة عينَي محمد الزرقاوين، المُتَّقدتين حقدًا وشرًّا. ليتني ما أخبرته، هكذا حدَّث علي نفسه، وتساءل إن كان الأصوب أن يُخبر حسين، حتى يحول دون جنوح محمد، لكنه خشي أن يُفسد الأمر فوق ما أفسده، وانتهى لأن يُفوِّض أمره إلى الله وليكُن ما يكون.

أما محمد، فسرعان ما ثمل بشهوة انتقام جموح، أفلت زمامها وتركها تقوده حيث تشاء. كان كمَن ينتقم من كل إحباطاته في شخص مُصوِّر يهودي سلب حبيبته؛ من زبيدة القاسية كحجر الصوان، من قدِّها المرسوم كما موجة تضرب وجدانه، فتغمر خياله بأرقٍ لا ينحسر، من قلبه الذي عشقها وأبَى إلا أن يرهن راحته لمزاجها المتقلب، ينتقم حتى من عالمه الذي لا يستوعب شطحاتها، ولا يجعله أهلًا لمبالاتها. سيغتصب اهتمامها لو حكم الأمر، سيُسلِّح قلبه بالعشق والنار، ويقفز لأجلها فوق حافة الجنون..

خطط وحده لانتقامٍ خاطف. جرب أن يُشرك علي في مُخططه، وما إن لمس فيه التردد حتى شرع يُنفذ بمفرده. سيُضرم النار في الكوخ الخشبي، هكذا وضع عنوان خطته، لكن كيف؟ مضى يرسم التفاصيل في خياله؛ سيبيت في بيت عمه صدقي، ويتسلل خارجًا في فحمة الليل، حاملًا ما سيقوم بتخبئته خلف السيارة الفورد عند وصوله: جاز مثلًا، وكبريت، حبذا لو صنع مشعلًا كالذي توقَد فيه النار.. سينسلّ كالظل فوق الجدران والأرصفة حتى يتسلق سور اليهودي.

اصطدم بأول عقبة حين رفضت هنّومة فكرة بياته في بيت العم: «لا وقت عندك للمرواح والمجيء، امتحاناتك على الأبواب!»، حاول إقناع أمه بحاجته للاستفسار عن بعض الدروس من ابنَي عمه حسين وعلي، كما بإمكان زبيدة بنت عمه أن تُساعده، فهي زميلته في التوجيهية، حتى لو كانت تدرسها بالفرنسية، لكن هنّومة أبطلت حُججه بدماغها الأصلب من دماغه، فكيف لزبيدة البنت المدللة التي مسيرها الزواج أن تفوقه في العَلام! ولو فُرِض أن ذلك صحيح، فالأجدى أن يُداري خيبته ويشد حيله في المذاكرة، أما حسين وعلي فمن يومهما خائبان، الأول لم يُفلح في التوجيهية وفشل في دخول مدرسة المهندسين، فانتهى موظفًا في نظارة المعارف بالثانوي التجاري، والثاني أُلحِق بمدرسة التجارة العليا بوساطة من عمه الشيخ كامل، ومنذ دخلها يمشي على سطر ويُسيِّب بقية السطور، فأي نفع فيهما؟

أيقن باستحالة إقناعها، فقرر أن يحتال عليها لأول مرة في حياته؛ قال إنه سيذاكر مع زميل يسكن في الحسينية، يطلع الأول باستمرار، عرض أن يشرح له ما استعصى عليه ليضمن تفوُّقه على أبناء عمه، «يمكن أسهر عنده لوقت متأخر، فلا تقلقي»، فأخبرته أن قلبها غير مستريح لسهره خارج البيت، «ادعُ صديقكَ ليسهر معكَ كيفما تريدان»، فردَّ بأنه هو مَن يحتاج للمساعدة، ولا يمكنه التمادي في العشم أكثر ممَّا ينبغي، ثم ذهب سريعًا من أمامها منعًا لاستمرار الجدل، ومضى يُعالج باقي العقبات؛ مؤونة الإحراق، ونَقْلها لبيت العم صدقي، ثم التسلل بها لكوخ اليهودي. مرَّ على دكان بيع المصابيح المواجه لدير الشهيد مارجرجس، واشترى أكبر فتيل لدى العجوز بائع اللمبات، فسأله الرجل: «فيما تحتاجون فتيلًا بهذا العرض يا محمد يا بني؟»، أجابه: «وما يُدريني يا عم نُصحي، هذه شؤون النساء، ربما يحتجنها للمبة نمرة ٤»، فقال العجوز: «ولا حتى نمرة ٤ تحتاج لفتيل بهذا العرض»، فقضم محمد الحديث قائلًا: «كم حسابك؟»

شرع يصنع مشعلًا كالذي يستعمله الجنود في المخيمات. اقتطع جزءًا من عصا مقشة مهملة في جناح المرحومة أم كامل، ولفَّ طرفه بالفتيل العريض الذي غمسه في الزيت عدة مرات، وغلَّف الفتيل بجوارب قطنية واحدًا تلو الآخر، وربط نهايتها بسلك حديدي. أخفى المشعل خلف الزير بجوار بوابة البيت، وانتزع من حشو مرتبته كتلًا من القطن حتى هبطت في عدة مواضع، ثم دسَّ القطن في جوال أخفاه تحت السرير. استوقف مكاريًّا من خارج الحي واتفق معه أن يمرَّ عليه قبل الفجر ليحمل مؤونته، وسهِر الليل يستذكر دروسه على ضوء لمبة جاز ذات زجاجة مطوَّسة، مترقبًا وصول المكاري، حتى تناهى إليه تصفيق مدوٍّ من أسفل البيت، فاندفع خارجًا من البيت وزجر المكاري كي يكفَّ عن ضوضائه، ودسَّ المشعل سريعًا بداخل الجوال ووضعه فوق ظهر البغلة، مؤكِّدًا على الرجل موعدهما المضروب عند محطة قطار حلوان.

ودَّع أمه قبل غروب اليوم التالي، زاعمًا ذهابه لزميله المتفوق في حي الحسينية، وانطلق من فوره لملاقاة المكاري أمام المحطة. نقد الرجل نقوده وحمل الجوال مع غضبه الدفين صوب بيت العم صدقي. هناك أخفى الجوال في مرأب السيارة الفورد، قبل أن يدخل البيت ويسأل عن امرأة عمه. دهشت المرأة من مجيئه للمبيت، واستغربت كيف تُوافق أمه على بياته خارج البيت، هي التي تخشى عليه من الهواء الطاير. رغم ذلك أحسنت خديجة الترحيب به، وراحت تُحضِّر له العشاء مع علي.

كان حسين يتجهَّز للسفر إلى الصعيد لاستلام عمله، فسلَّم سريعًا على محمد وغاب ثانية بداخل غرفته. أما علي، فجلس يتفرَّس في وجه ابن عمه، حتى سأله: «ماذا نويت؟» فقال بهدوء: «كل خير»، دهش الأول: «خير؟!»، فقال له محمد: «بعض الخير لا يُنال إلا بالشر»، وطلب إليه أن يتسحَّب لغرفة أمه ويأتي بعُلبة ڤازلين. زجره علي: «أجنِنتَ؟! تريدني أن أسرق أمي!»، فحدَّق به محمد وقال: «لا بأس.. أنا سأسرق».

وبعد انتصاف الليل، تسلَّل محمد خارجًا من البيت، فيما علي يُراقب الشارع من نافذة الصالون. ارتدى قفاز ركوب الخيل، وحمل مِرشَّة الزهور لمرأب السيارة الفورد، وهناك طوى مقعدها لأعلى كاشفًا خزان الوقود، أولج فيه خرطومًا وأخذ يشفط شفطًا مُتقطعًا ويملأ مِرشَّة الزهور بالوقود. ثم دار حول السيارة وتربَّع خلفها في انتظار الوقت المناسب. أمضى الوقت يغمس قطع القطن في علبة الڤازلين ويُعيدها لداخل الجوال. ثم مضى يبحث في الحديقة الخلفية عمَّا يربط به جوال

القطن، فوجد خيط دبارة سميكًا مربوطًا في شجرة مانجو، وأخذ يفكُّه ويربط به فم الجوال. أصدر قادر خوارًا أخافه، فقال: «صَه أيها الحصان العجوز!»، وتسحَّب عائدًا لمكانه الأول حتى حانت اللحظة. حشر المشعل في طوق سرواله، وحمل مِرشَّة الزهور المملوءة بالوقود، ومضى يخطو بهدوء صوب الكوخ.

كان عليه أن يُمرِّر جوال القطن عبر السور، وكان يخشى أن يُلقي به فيُحدِث هبدة مسموعة، لذلك أمسك خيط الدبارة وأخذ يُطيله مرةً فمرة، حتى استقر الجوال خلف السور. أما مِرشَّة الزهور، فقد استعصى تمريرها عبر فرجات الحديد المشغول، وبصعوبةٍ رفعها فوق أحد أعمدة السور، فاندلق منها ما غمر قميصه بالوقود، وصار عليه أن يتوخى الحذر كي لا يُشعل النار في ملابسه.

ملأ صدره بالهواء المُفعَم برائحة الوقود، ثم قفز لداخل الحديقة، وتقدَّم بخفةٍ صوب الكوخ. تنبَّهت صرّار الليل وصمتت تمامًا، وحلَّقت أنفاسه فوق سكون الكون. أدرك أن عليه التعجيل بالأمر، فغمر سريعًا جدران الكوخ بالوقود، وأفرغ ما تبقّى في المِرشَّة فوق عتبة باب الكوخ، لكي يمنع الوغد من إنقاذ محتوياته. واستدار حول الكوخ يحشُر كُرات القازلين في فرجات الخشب، ويقذف ما تبقّى منها فوق سقف الكوخ حتى تُمسك
النار فيه.

وقف يتأمل صنعة يديه.. يُلقي تعويذة غضبه ويتلو آيات الثأر؛ «الآن يا إفريم الكلب!»، هكذا تمتم فيما يُمسك بمقبض المشعل ويُخرج علبة الثقاب.. «لأجلكِ يا زبيدة»، قال مُحدِّثًا شُعلة النار، وانتبه لاقترابها من صدره المغمور بالوقود؛ لقد كادت زبيدة تحرق قلبه لثاني مرة.. أبعد المشعل على طول ذراعه، وشرع يُشعل كُرات القطن تباعًا حول الكوخ، فانطلقت النار تعوي في الظلام، وخفق قلبه من حدة الاضطراب. خطا سريعًا، أشعل ما استطاع، وأضرم النار أخيرًا في عتبة الكوخ، فنهض شبح النار يرقص أمام الباب، ما هوى بقلبه حتى أخمص قدميه.

دهمه صوت نافذة تُفتح، وشهقة شقَّت قشرة الصمت، فقذف المشعل عاليًا فوق سقف الكوخ، وأطلق ساقيه الراجفتين صوب السور، ارتقاه قفزًا وهوى فوق الرصيف شاجًّا رُكبتَيه، واندفع برغم الألم عكس الاتجاه الذي أتى منه! تنبَّه بعد قليل لابتعاده عن البيت، فاستدار عائدًا من حيث جاء، غير أن قوةً ما سيطرت عليه، منعته من الاندفاع، يد غليظة كمشَت قميصه، وأخرى أطبقت عليه كما مخالب رُخ.. وأدرك أنه قُضي عليه.

بالتأكيد، ودون مراجعةٍ لدفاتر شيوخ الحارات، حيث يُدوَّن ما يطرأ من تطورات في الموسكي والجمالية، يمكننا الجزم بأن التاريخ سيغفل سبقًا هامًّا قام به الأميرالاي نشأت، قبل أعيان الحي بسنوات عديدة، وذلك حين مدَّد أول خط تليفوني بين بيتَين في شارع الخرُنفِش.

كانت جيوش العالم قد أُنهكت تمامًا في لعبة الحرب، فشرعت تعود لبلادها دون أن تنظر وراءها أو تُلملم المُستهلكات المبعثرة فوق الجبهات، منها ما أهدى به الأميرالاي حمدي صديقه نشأت، بعدما أسرَّ إليه بوقوعه في غرام فتاة السطح الأرمنية.

كانت الفتاة قد جاوزت لقاءها الصادم بنشأت في مدخل البناية، وفتحت له باب التقرُّب إليها على مصراعيه، وذلك حين لوَّحت له من سطح البيت المقابل، فيما يتستَّر بالظلام ويتلصَّص عليها. انفجر الأميرالاي حمدي مقهقهًا بصوتٍ عالٍ حين حكى له نشأت، ولم يكن القائد من ذاك النوع الحساس، الذي يضع اعتبارًا كبيرًا لمشاعر الآخرين، لكنه إذ لمح امتعاض صديقه أخذ يقول: «سامحني يا عم نشأت، أصلي تخيلت شكلك وأنت غرقان لشوشتك لما البنت شافتك، لا وفوق ذلك شاورت عليك»، وعاد يضحك من جديد. تجاوز نشأت عن هذه السخرية، وقال لقائده: «دبّرني يا فندم، كيف أتصرف معها؟»، فقال الأخير: «البنت معجبة بك، وإلا لما كانت تفرح بتلصصك عليها في أنصاف الليالي.. لازم تقتحم يا نشأت»، فتململ قائلًا: «كيف أقتحم وأنا لا أجد وسيلة للقاء بها والكلام معها؟! البنت لا تبرح البيت إلا نادرًا»، فطمأنه بقوله: «دع الأمر لي».

عجَّل الأميرالاي حمدي بزيارته التالية، ما أثار دهشة الست أم فاضل وفرحتها معًا، وكانت قد لاحظت ما أخفاه الضيف تحت مقعده فيما تضع أمامه فنجان القهوة، لكنها حدست بأنها السجائر المعتادة ولوازم الغليون، فتصرفت كأنها لم تلحظ شيئًا كي لا تُحرجه، وعزمت على الحديث مع ابنها ذي الصدر المعطوب عن إسرافه في التدخين عند ذهاب الضيف.

وحين استتبَّ الجو جرَّ الأميرالاي حمدي صندوقين خشبيين من أسفل المقعد، وكانا مطويين في لفافة ورقية صنعت جلبة لا يمكن إخفاؤها فيما تُفض. «ما هذا؟»، سأل نشأت، فقال: «سترى»، ثم شرع يرفع غطاء صندوق ويُريه لُعبة الساحر

الرابضة بداخله. «ما رأيك؟»، قال القائد مزهوًّا بمُعجزته، فأطرق نشأت قائلًا: «هو أنا فاهم حاجة!»

كان حمدي قد حمل إليه جهازَي تليفون ممَّا شاع استخدامه في جبهة القتال بعد إصابة نشأت وخروجه من الخدمة؛ صندوق خشبي يحوي سماعة تزن خمسة أرطال على الأقل، ذات سلك مجدول كأنه ضفيرة فتاة إفريقية، ترقد فوق جرسَين على هيئة طبقين نحاسيين مقلوبين، فيما تختفي أسفل منها أسلاك ومغناطيسات في وزن مكواة حديدية. رفع نشأت أحد الصندوقين وتفاجأ بوزنه الذي قدَّره بثلاثين رطلًا على الأقل، وعرف بحدسه أن الآلة المحفوظة بداخله جهاز تليفون، فسأل صديقه القائد: «كيف يعمل هذا الشيء؟»، قلب الأخير الغطاء كاشفًا ورقة التعليمات الملصوقة تحته، وشرع يشرح لصديقه طريقة التوصيل: تربط هذا السلك النحاسي في هذه النهايات، ثم تلك، فيمتد بين التليفونين لأي مسافة تريدها، هكذا، ثم تُدير الكرَنك، فيرن الجرس في الجهة المقابلة، بُص، بهذا الشكل.. الطرف الثاني يرفع السماعة، ويضغط هذه الحديدة لكي يتكلم، بهذه الطريقة.. واضح؟ ثم ختم قائلًا: «تقدر تعود للورقة لو نسيت أي حاجة». قال نشأت حين عاد من شروده: «لكنْ كيف أضع جهازًا منهما على السطح المقابل؟!»، وكانت بالفعل مشكلة دقيقة لم يعمل حسابها الأميرالاي حمدي، ربما لذلك قال: «أمددتكَ بالذخيرة، وعليكَ الاقتحام».

ولم يكن ثمة بُد من إشراك الفتاة في العملية، ما اضطر نشأت لأن يظهر بوجهه مضاءً فوق مسرح المساء. كانت ليلة دهماء ذات قمر نحيل، أكثر إرهافًا من قوام الفتاة، تسلَّل خلالها نشأت لسطح البيت كالمعتاد، غير أنه لم يُسرف في التدخين أو يتخفف في العشاء كحاله في كل ليلة، فلم تعُد هناك حاجة للاختباء بالظلام. وكأن كلًّا منهما قد ضرب موعدًا مع السُّهاد، فقد صعدت الفتاة لسطح بيتها كما فعل نشأت، وكانت أول مرة تصعد وحيدة من دون أمها.

وقف نشأت متكئًا على السور يرشُف الونس من غليونه الأنيق، فتتوهج النار ناعمةً من قاع الغليون، أسفل وجهه مباشرةً، فتُضيء أنفه البارز وتنعكس فوق عينيه ببريقٍ ذهبي، فيما وقفت الفتاة على السطح المقابل مغمورةً بالظلام، تتطلع إليه دون انتباه منه. وحين أحسَّ بأن ثمَّة شبحًا يتخايل أمامه، أرجع شعوره لمراوغات العقل وألاعيبه الخبيثة. وسرعان ما أشعلت الفتاة عود ثقاب، فلاح وجهها كأنه لملاكٍ معجونٍ من النور.

قام نشأت على حَيله وأخذ يُلوّح بعزم غريقٍ وجد سفينة عابرة، فجاوبته الفتاة بابتسامة يروق لها الكون وتنكشف الحُجُب. قال: «كيف حالك؟»، فأومأت تستفسر عمَّا يقول، أعاد عليها السؤال بصوتٍ أعلى قليلًا لكنْ دون جدوى، فأدرك استحالة الحديث عبر الأثير، ولجأ مباشرةً للخطة البديلة: إلقاء ورقة مكتوبة.. أخرج من جيبه الورقة التي كان قد كتب عليها «عندي الكثير كي أقوله»، وبرَمَها وربطها بخيطٍ انتزعه من زرّ طربوشه. أولج بين طيات الورقة عود ثقاب، أشعله، ولوَّح به في الهواء مرتين، قبل أن يقذف اللفافة بمهارة يوزباشي سابق في سلاح الطوبجية، فسقطت خلفها في جوف الظلام المُخيِّم على السطح. استغرقتها برهة حتى وجدت الورقة على ضوء أعواد الثقاب، فإذا بها تومئ إليه بنتيجة مُحبطة: إنها لا تقرأ العربية.. أُسقِط في يده، وتساءل كيف لم يخطر لذهنه ذلك الاحتمال، وحدَّث نفسه بأن الفتاة أرمنية وربما لا تعرف الإنجليزية أيضًا فضلًا عن العربية، لذلك فلا مفر من المغامرة.

لوَّح إليها على ضوء آخر عودَي ثقاب كانا بحوزته: إني قادم، إني قادم، أسفل البناية، الآن.. ولم ينتظر رد فعلها، بل سارع بهبوط السلم قاصدًا غرفته، وانتزع سريعًا بنطاله الكستور ودسَّ سترة البيجامة في بنطال الخروج، وانتعل حذاءً جلديًّا فوق قدميه الحافيتين، ودفس رأسه بعجالة داخل طربوشه كيفما اتفق. كان أكثر ما انتبه إليه هو أخذ الصندوق الصحيح: ذاك الموصول بالسلك الطويل، فلو كان قد حمل إليها التليفون الآخر في غمرة استعجاله، لكُتِب للخطة الفشل نهاية المطاف.

ترك باب البيت مُواربًا، وأخذ يتلفت يمينًا ويسارًا فيما يمضي بأسرع ما يستطيع على مشطَي قدميه، حتى التفَّ حول ناصية الشارع قاصدًا بيت الفتاة. طمأنه كون الشوارع مظلمة وشبه نائمة، وأن أقرب مقهى يوصل الليل بالنهار يقع على مبعدة ثلاثة شوارع جهة الشرق. وأمام مدخل بيت الفتاة، تلفَّت مُستطلعًا حالة الشارع قبل أن يلج البوابة بظهره.

كانت الفتاة تنتظره بقلب مُرتجف، بعقل مُرتجف، بكفَّين مُرتجفتين وساقين لا تقويان على الوقوف، فما بالها لو حملت عنه الصندوق الثقيل! مدَّ إليها الصندوق قائلًا: «ستصعدين به إلى السطح»، فسألت بلهجة ركيكة عن ماهيته، فقال: «إنه تليفون، سيُتيح لنا الحديث معًا كل ليلة». بدَت غير فاهمة، إما لصعوبة الكلمات أو لشدة الارتباك، فأكمل مُطَمْئنًا: «كل ما عليكِ أن تقذفي إليَّ بربطة السلك هذه، لكي ألتقطها. لا تقلقي». ظلت مُرتبكة على حالها، فأمسك بيدها وناولها مقبض

الصندوق، واشتعلت أطراف أناملِه لمُلامسة حرير كفَّيها الثلجيتين. تهدَّج صوته فيما يقول: «خذي بالك، إنه ثقيل»، فأومأت كأنها تقول: حاضر.

أطبقت على الصندوق بجِماع صدرها وأطرافها خشية سقوطه، واستدارت لتصعد السلم، فسارع نشأت يقول: «ما اسمكِ؟»، قالت: «ليليت»، ردَّد اسمها بنبرةٍ خافتةٍ كأنما يحبسه بين شفتَيه، وقال: «أنتِ أجمل شيء في الحياة». أحنت رأسها ودارَت فمها وهي تقول: «أنتِ مجنون!» ضحك لركاكة كلامها وقال: «يظهر صحيح جُننت بكِ».

استغرقه الليل بطوله حتى التقط السلك، واستطاع توصيل التليفونين، لكنها بقيَت أجمل ليلة مرَّت عليه في حياته، تلك الليلة التي أمضاها مُتطلعًا لوجه ليليت من كل زاوية ممكنة، فيما تُلقي بربطة السلك صوب سطح بيته، فتفشل المرة تلو المرة، فيزداد ابتهاجًا مع كل محاولة فاشلة، مع كل إيماءة يأس طفولية أو تلويحة غَيْظ مغرية، حتى أشفق عليها وجعلها تُدلّي السلك حتى يُلامس الرصيف، وأمسك بطرفه رابطًا فيه خيط دُبارة طويلًا، عقد في نهايته زلطةً في حجم صابونة غسيل، ثم قذف بها لسطح بيته. ولم يكَد يُصدِّق

أذنه حين انساب صوتُها عبر سلك التليفون، ساطعًا بحروفه الركيكة بين خرفشات قصيرة تبثُّها البطاريات والمقاوِمات، لم تزِد صوتها إلا ألقًا. وصار طقسًا يوميًّا أن يطلعا عند انتصاف الليل لسطح البنايتين، ويتبادلا حديثًا بلا نهاية، كان سببًا في تحوُّل مسعى نشأت صوب كنزه الجديد.

كما لو أنه أول بيتٍ يسكنانه، صار النوم لا يلذ لنشأت وليليت مثلما يحدث في قطار مصر - بورسعيد، في الصف الأمامي من العربة رقم «٢» بالتحديد. يخلع نشأت قبعة الخواجات التي صار يعتمِرها بدلًا من الطربوش، ويُعلِّقها فوق المشجب المعدني، فيشعر حقيقةً كأنه عاد لبيته. تصبح الأريكة الخشبية ذات الظهر المستقيم أريَح من أي فراش رقد فيه، بينما تتخذ ليليت من كتفه اليسرى وسادةً لا مثيل لها في الصَّحو أو النوم، تُريح عليها جانب رأسها وتشرع في الثرثرة، بصوتها الخافت كما حفيف أوراق ذقن الباشا التي زرعتها نعمات في حوش البيت، حتى تكفَّ بغتةً عن الكلام، ويعلو صوت أنفاسها بانتظام يجاوب هدهدة القطار. كثيرًا ما كانت تقطع حديثها عند نقطة مُعلَّقة فوق حافة الترقُّب، فيلتفتُ نشأت ببطءٍ شديدٍ ليستجلي سبب السكوت؛ أهي عَبْرة فاجأتها أم ذكرى عابرة هيَّجت مشاعرها؟ أم أنه السبب المعتاد الذي لا يستوجب منه أكثر من الصمت، فكثيرًا ما كانت تسقط في النوم فوق تلك الكتف الحنون.

كان نشأت قد توصَّل لاتفاق دائم مع بائع التذاكر في محطة باب الحديد، بموجبه يُجنِّب البائع باستمرار تذكرتَي مقعد «١» ومقعد «٢» في ثاني عربات القطار الذاهب لبورسعيد، فلا يقوم ببيعهما حتى تنفد تذاكر القطار، إذ ربما يظهر الأميرالاي نشأت بحُلَّته ذات اللون الفاتح وقبعته غريبة المنظر، فينقُده الخمسة مليمات مقابل التذكرتَين دون أن يسترد الباقي. وكان الرجل محتارًا جدًّا في أمر الأميرالاي الشاب، فلم يتصوَّر أن يترقى شابٌّ مثله لتلك الرتبة الرفيعة، لولا أنَّ نشأت أراه الصورة التي التقطها له الأميرالاي حمدي، في بزَّته العسكرية المزدانة بالسيور والكتفية الأنيقة، ما جعل الرجل يثق تمامًا فيما أسرَّ إليه به الأميرالاي الصغير، من أن «الخواجاية» التي تنتظره خلف طابور التذاكر أميرة فرنسية، وأنه مكلَّف بحمايتها في ذهابها ورواحها بين القاهرة وبورسعيد، فلا مناص من تأمين مقعدين ثابتين قريبين من باب الدخول والخروج في إحدى عربات القطار، واستقرَّا سويًّا على اختيار العربة رقم «٢»، على وعد بأن يظهر الأميرالاي مبكرًا حين يقرر السفر، قبل موعد الرحلة بساعة على الأقل، حتى لا يُعرِّض صديقه بائع التذاكر لأي حرَج. وفي غضون أسبوعين كان جميع العاملين بالمحطة يعلمون بقصة الأميرة والأميرالاي، ويترقبون حضورهما بصبر الصائمين، حتى إذا ما حضرا تناقلوا الخبر سريعًا فيما بينهم، وأخذوا يتوافدون بهدوءٍ ليرقبوا المشهد

المبهج من أقرب مسافة لا يلحظها الأمير الاي الشاب، وظل نشأت يجاهد بجلَد كي لا يغلبه الضحك، حتى اعتاد الأمر وصار لا يلحظهم فعلًا.

أما شهرزاده التي تسقط في النوم فجأة ودون مقدمات، تاركةً إبرة الحكاية مُعلَّقة في الهواء تنتظر مَن يغرزها، فقد سرَّبت إليه أول فصول حكايتها عبر سلك التليفون المشدود بين السطحين، ثم أخذت تُكمل الفصول ثرثرةً فوق كتفه المائلة وتحت أذنه المصغية؛ إنها الحكاية التي جعلته يهجر حياته الماضية، بدافع الحب أول الأمر، ثم الإصرار والصبر، وأخيرًا العادة.

بدأت بحادثٍ أثار فضوله لسماع بقية الحكاية، تلك التي استمر يسترجع قُصاصاتها لما تبقى من أيام عمره، وذلك حين أخبرها بأنه قال يوم رآها أول مرة: هذه الفتاة صُنِعَت من عجينٍ آخر غير ما خُلق منه سائر البشر. فضحكت من التشبيه الذي وافق هواها، وقالت: «ربما لهذا السبب بقيت بداخل تنّور الخبيز لثلاثة أيام»، ظنَّ أن تشوشًا ما في سلك التليفون هو ما هيأ له العبارة الغريبة، قال: «أعيدي ما قُلتيه»، فأعادت بإسهاب قد يستغرق عمرًا فوق عمرها دون أن يصل إلى نهاية.

خلاصة القول أن أباها نيشان كان أمهر صانع للنّاي الأرمني، المعروف بالدودوك، فيما كانت أمها ريتا حائكة الثياب الأشهر في حي الأرمن القريب من برج جالاطة، في مدينة القسطنطينية. وما كانت الأمور لتمضي على نحو أفضل، بالنسبة للأسرة المكونة من أب وأم، وفتاة في دفء الخبز الصابح تُدعى ليليت، وأخيها الصبي الأكثر رقة من ترنيم الناي. إلى أن تواترت عليهم أنباء الحرب العظمى، فيما يرون بأعينهم سفن الأسطول العثماني تشق البحر الأسود في طريقها لروسيا. باتوا قلقين، ثم صاروا أنفسهم مستهدفين، بدعوى انحياز الأرمن لمعسكر الروس. «مَن الروس؟!»، صارت الأم ريتا تسأل كلَّ مَن تطال أذنيه، فيقول البعض: لا شأن لي، والبعض الآخر: كيف لي أن أعرف؟، فيما يقول زوجها نيشان: «يبدو أنهم العدو على الجهة المقابلة». ثم بدأت ترِد أنباء عن اعتقال قادة الأرمن، أكثرهم من مشاهير المفكرين والمثقفين؛ تُداهَم بيوتهم، يُفجع أهلوهم، ثم تنقطع أخبارهم. التَهَم نيشانَ القلقُ على أصدقائه الشعراء والموسيقيين، وانتابه الخوف أيضًا على مستقبل أسرته، لكنه ظل مترددًا في تقصي الأخبار خشية الزج بنفسه في زُمرة المعارِضين.

تراجعت حركة البيع والشراء، وصارت ريتا تجلس صامتةً لِصق حائط البيت الحجري، والنافذة المطلة على البوسفور، تُراقب زوجها فيما يصقل فرع شجرة مشمش تمهيدًا لثَقْبه وتحويله لآلة ناي؛ تَدهَش لأمر زوجها الذي يصنع نايات لا

يشتريها أحد، فيما أبواق الحرب تُدوّي بالخارج. ولكي ينتبه لوجودها شرعت في الغناء، وسرعان ما اندفع عصفور لداخل البيت عبر النافذة، وحطَّ فوق منضدة نيشان المقدودة من الحجر، فوضع الزوج مِبرَده ومِثقابه وراح يرنو نحو الخارج، وترقرقت عيناه ببريق مأساويّ، ثم سحب نايًا وشرع يُحاكي غناء زوجته من طبقة غليظة تهيّج المواجع، حتى انخرط كلاهما في البكاء.

وما إن نفدت نقود نيشان حتى أُسقِط في يده، واهتاجت ريتا لسماع بكاء ولدها الجوعان: «مُت على المشنقة أكرم لكَ من الموت جوعًا بين نسائك!»، هكذا صرخت في زوجها وأخذت تدفعه لخارج البيت.. لكنها راحت تنتظره دون أن يجِدَّ جديد، واستمرت تنتظره حتى وافاها الأجل، فلم يحدث أن عاد نيشان لبيته ولا لأسرته، حتى اضطُرَّت ريتا للسفر هربًا من الموت. فقد دوهِم حي الأرمن ذات مساء، وارتفع صراخ النساء والأطفال حتى بلغ قمة البرج الصموت. وكان افتقاد الزوج قد جعل ريتا أكثر حذرًا، فهُرِعَت تُخبئ الولد الصغير أسفل سطل الماء المقلوب، وتدفع بابنتها ليليت، التي كبُر نهداها واستدار ردفاها دون أن تزداد بوصةً واحدة، حتى وارتها في حُفرة تَنور الخبيز. وكان جوف التنور لا يزال دافئًا منذ خُبِزَت آخر قطعة عجين جادت بها الجارات، وبرغم ذلك حشرت جسد ابنتها الرهيف داخل الحفرة، وغطَّت فوَّهتها بوسادة محشوة بالتِّبن عليها بقايا خُبز اللافاش.

ولم تبرح ليليت مكانها لثلاثة أيام مرَّت عليها كأنها القيامة، فما هدأ الصراخ ساعةً واحدةً سواء في محيطها أو بداخل رأسها، وما كانت لتنسى صرخة أخيها الصغير حين كشف عنه الجنود سطل المياه المقلوب، ولا صخبه ولا تلاشِي صوته فيما يقتاده الجنود بعيدًا عن حضن أمه، بعيدًا عن محيط بيته، بل أبعد من أي حي، من أي شمس، أبعد حتى من السماء التي لا يطالها البرج الصامت ولا تعبأ بهم.. فيما لم تنبس أمها بكلمة واحدة، بل صار الصمت دِرعَها إزاء الموت والإبعاد.

أما ليليت، فكان عليها الانتظار لثلاثة أيام أخرى فوق أيام التنور، حتى تعرف مكان أمها، وذلك حين دلَّها لصُّ الحي على مَخبئها، فقد التجأت ريتا إلى الرقود أسفل كومةٍ من جثث الأرمن، بداخل حُفرة هائلة الحجم أُعدَّت لدفن القتلى، وكان لصُّ الحي يتسلَّل ليلًا ليُجرِّد الموتى من حُليِّهم وصِداراتهم المزركشة، وأسنانهم الفضية والذهبية، فنادته الأم بصوتٍ خافتٍ أرعبه في أول وهلة، وجعله يرمح بعيدًا عن شبحها الليلي، لكنه عاد بعد قليل يستجلي الأمر، فأخذت تُناديه بصوتٍ أعلى

من سابقه: «أحمِت.. أحمِت!»، فاقترب منها وتعرَّف فيها روحًا جسورًا تُخاتِل الموت.

أوصته بأن يتفقَّد ابنتها ويستطلع إن كانت حيَّة أو ميتة، ولما عاد بخبر ليليت، وعدته الأم بأن تمنحه نصف مَصاغها المدفون في مكان سري في محيط البيت، على أن يجيئها هي وابنتها بملابس المسلمات، ويرتِّب لهما سفرًا آمنًا لخارج البلاد. أخبرها بأنه لا يريد جزاءً على شهامته، وسارع بسرقة بعض الملابس المنشورة هنا وهناك والذهاب بها للمرأة التي تتصنَّع الموت، ولابنتها التي تأكل بقايا الخبز العالقة بجدار التنور. وهكذا تسلَّلتا وسط قافلة من البغال، قبل أن تصعدا لسفينة فرنسية لم تعرفا وجهتها حتى شارفت ميناء بورسعيد. وهناك نزلتا في مخيم الأرمن الدائم في الكارانتينة، حيث المهاجرين القدامى الذين استقبلوهما ونصحوهما بالسفر إلى القاهرة، والإقامة قرب شارع الموسكي؛ قالوا إن الرزق موفور هناك، والأمان يُمنَح لكل غريب، وثمة قسيس بكنيسة الأرمن الكاثوليك يُذلِّل الصعاب لجميع المهاجرين.

عدَّدوا أسبابًا كثيرة تدعو للاطمئنان، لكنهم أخفقوا في نقل الخبر الأهم، فلم يُخبرهما أحد بأن الحُب قد

يكون منتظرًا هناك، بين أعطاف الموسكي وحي الجمالية.

لا أُشبه أبي، لا من قريب ولا من بعيد. الأحرى أني لا أُشبه أحدًا بدرجة ملحوظة، وكنت أستغرب ذلك كلما لاحظت تطابق ملامح أب وابنه في محيطي؛ مثلًا: كلما حضرت عيد ميلاد صديقٍ والتقيت أباه، أو حين يزورنا صديق لأبي مصطحبًا أسرته، أو كلما انشغلت عن خطبة جمعة شديدة الإملال بتأمل الآباء والأبناء. يبقى أصغر أعمامي أكثر الناس شبهًا بأبيه، يُماثله في جميع قسماته حتى في انحراف العين، وقد استهواني هذا التماثل وقت كنَّا ندرس الوراثة في مادة الأحياء، يومها قلت لأبي: «عمي يُشبه جدي الله يرحمه بدرجة غير معقولة!»، فقال: «سبحان الله، لم يكن شبيهًا به لهذه الدرجة في طفولته»، فاندفعت قائلًا: «كيف لا يُشبهه؟ أخذ عنه كل شيء حتى انحراف العين!»، فضحك من سذاجتي وقال: «هذه ليست صفة وراثية يا غشيم، هي محض صدفة لا أكثر ولا أقل»، وراح يقصُّ عليَّ القصة كما سمعها.

***

مع بزوغ أول ضوء، كان حسين بن صدقي على أُهبة الاستعداد للحاق بقطار السابعة والنصف؛ أول قطار يقوم من محطة حلوان قاصدًا باب اللوق. ولكي يقهر وساوِسه، قرر أن يربط سيور حقيبة السفر، الجلدية الأنيقة، وكان قد تمَّم على المحتويات المرصوصة بداخلها بعناية فائقة، ثلاث مرات، ولم يطمئن بعد. لقد كانت يومًا حقيبة أبيه، صدقي بيك الحكمدار، لذلك حرص على الوقوف أمام مرآة الدولاب، ناظرًا لانعكاس صورته وهو يحملها. وضع طربوشه بميل طفيف حتى تكتمل هيئته الأنيقة.. كم أحبَّ لو يراه أبوه الحكمدار على هذه الهيئة اللافتة؛ كان ليفرح به دون شك، فحتى لو كان ابنه البكر قد خيَّب رجاءه ولم يصبح هنري فورد، يكفيه أن ناهز أناقة أبيه لهذه الدرجة.

كان عليه أن يُسرع بالتحرك، لكي يصل لميدان نهضة مصر قبل التاسعة صباحًا، فتكون أمامه ساعة يقضيها في محطة باب الحديد، قبل أن يدق الجرس مُعلِنًا وصول قطار الصعيد. حبذا لو استطاع قَطع تذكرة القطار والجلوس بعض الوقت في البوفيه، حتى يحسو القهوة على مهل، ويشرب سيجارة أو اثنتين، وبذلك يكون قد أعدَّ نفسه جيدًا للرحلة الطويلة، دونما حاجةٍ لتبديد الأناقة في الركض والعجلة.

آثر ألا يُقلِق نوم أحد؛ لا أخوَيه علي وحسن ولا محمد ابن عمه. أما زبيدة، فلن تصحو بطبيعة الحال مهما حاول. حسبه أن يوقظ أمه ويُقبِّل يدها، ثم يركع على

ركبتيه ويرفع طربوشه حتى ترقيه وتمسح رأسه الأكرت ببركة دُعائها. لكنْ عليه أولًا أن يضع الحقيبة بجوار الباب، ويربط في مسكتها المِنشَّة المصنوعة من شعر قادر الأبيض المرسل، لكيلا ينسى شيئًا. وما إن غادر غرفته حتى تناهت إليه كركبة من جهة الصالة. مضى يستطلع الصوت، فإذا بأخيه علي يتسلل عائدًا من البلكونة، وعلى وجهه سيماء الاضطراب. سأله: «ما الذي أيقظكَ في هذه الساعة؟!»، فتقلص وجهه وشارف على البكاء.. قال حسين: «ما لك يا بني؟!»، فقال علي: «محمد، لم يرجع بعد!»

لم يحظَ علي ولو بغفوة يسيرة طول الليل، فمنذ تسلل محمد خارجًا من البيت وهو يُراقب الشارع من كل زاوية ممكنة. كان قد لمحه لآخر مرة قبل ثلاث ساعات، حين تسحَّب شبحه الأسود بمحاذاة السور، حتى ابتلعته الظلمة وانقطع خبره. لا يعرف إن كان أدرك مقصده وأحرق كوخ إفريم، أم أن النار أمسكت فيه هو! صُدِم حسين لسماع المصيبة، فذهل عن ميعاد القطار وأمسك أخاه من طوق منامته، هزَّه بعنف زاعقًا فيه: «هل أنتما معتوهان؟!»، وما إن أفلته حتى خلع سُترته ورابطة عنقه، ومضى يخبُّ نحو باحة البيت ويتسلق السلم المفضي إلى السطح. وقف مسنودًا على السور المطل جهة بيت جراسيا، يرمق الظلال الدخانية التي ظلت ترقى بصمت صوب السماء. «يا نهاركم أسود!»، ابتلع الصدمة وهبط عائدًا حيث ترك أخاه، وجرَّه إلى الخارج ليبحثا عن محمد.

فتَّشا في كل مكان.. في الباحة الخلفية عند مربط قادر، وتحت تكعيبة العنب خلف السيارة الفورد، في الأزقة المتشعبة بين البيوت، وخلف بيت جراسيا وبين المتجمهرين أمامه بعد إطفاء الحريق، ولم يتصورا أن يجداه في آخر مكان يلتجئان إليه حين أعياهما البحث: نقطة البوليس، فقد قرر حسين بعد نفاد صبره أن يتحايل على حبشي عسكري الدرك، الذي تربطه به معرفة وثيقة، فيسأله عن الحريق الذي اندلع في البيت المجاور ويُحاول استشفاف معلومة تخص الفاعل، لكنه وجد الفاعل بنفسه هناك، مُقيَّدًا بالكلبش في ظهر مقعد خشبي مجوَّف القاعدة.

"ماذا فعل هذا المجرم الصغير؟»، سأل بتماسكٍ حاول الإبقاء عليه، فنهض العسكري حبشي احترامًا لابن البيك الحكمدار، واستيقن ممَّا ظل حتى هذه اللحظة مجرد شكّ: للفتى علاقة ما وثيقة ببيت الحكمدار.. قال حبشي: «قبضت عليه مُتلبسًا يا حسين أفندي، أحرق بيت جاؤون».

فسأله حسين بنبرة توحي بعدم التصديق: «هل أمسكت به بداخل البيت؟!»، فقال حبشي: «خارج البيت يا حسين أفندي، وكان يحمل وعاء تفوح منه رائحة الجاز، وقميصه كله جاز. هو أنا عبيط!»

"معاذ الله يا عم حبشي»، تراجع حسين وقد أُسقِط في يده، ثم استدرك قائلًا: «امتحانه في التوجيهية بعد بكرة، سيُضيع بطَيشه مستقبله! صحيح أن اليهودي يتجسس بكاميرته الجهنمية على النساء داخل البيوت، بل ويُصورهن ويُبديهن كالمومسات، لكنْ حتى قضايا الشرف لا تُحل بهمجية كهذه. لقد حذرناه عدة مرات أنا وأخي علي، بعد ما رأينا اليهودي يتسحب نحو بيتنا ومعه الكاميرا، دا حتى صدقي بيك بجلالة قدره ما كان ليُطلق رصاصة واحدة دفاعًا عن شرفه، بل كان سيترك القانون يأخذ مجراه.. هكذا كررنا عليه مرات ومرات، وكنَّا سنحرِّر محضرًا ضد إفريم اليهودي، لكنْ خشينا أن نُجرجر حريمنا للنيابة والأقسام، ما جعل هذا الطائش يُحرِق الكاميرا والتصاوير الفاضحة بداخل الكوخ».

اعتصرت الحيرة وجه حبشي؛ لم يكن يعلم أن وراء الجُرم مسألة شرف، وأنها تمس البيك الحكمدار سليل الأشراف بنفسه، ورغم أن حبشي لم يلتقِ يومًا بالبيك المرحوم، إلا أن سمعته تبقى ملء الأسماع. كما أُعجِب بمروءة الفتى الصغير، الذي لا تُخبر وسامته ولا بياض بشرته بدمائه الحارة التي تسري في عروقه، لدرجة أن يُذعن للقبض عليه دون أن يُفصح بقرابته بالبيك الحكمدار، حتى يحتفظ بشرفه بعيدًا عن القضية.. تعاطف رغمًا عنه مع الولد الجسور، كريم الأصل، وقام من نفسه يفك الكلبش ويُسرّح الصبي، مُضحيًا بترقية كانت وشيكة حالما تحضر النيابة وتُعاين الواقعة. ولم يفُت حسين أن يشكر له هذا الجميل، فأمر أخاه أن يذهب لحبشي كل مساء بالشاي والسجائر، على أن يقوم بذلك بنفسه حين يعود في الإجازات.

وكان لإفريم رأي آخر بطبيعة الحال، فقد ظن في البداية أن علي أخا زبيدة هو مَن دبَّر الفعلة الشنعاء، فأمسك نفسه عن اتخاذ رد الفعل المناسب حتى يُمسك الدليل بيديه، إكرامًا لرغبة أخته أم جراسيا، ومع ذلك أمر جراسيا بأن تُقاطع زبيدة بصفة نهائية. لكنْ سرعان ما عادت المياه لمجراها الطبيعي بين الصديقتين، يوم ظهرت نتيجة التوجيهية؛ فقد أرسلت زبيدة باقة زهور كبيرة ومدهشة لبيت جراسيا، لكونها الوحيدة التي حصلت على النتيجة المبتغاة، وصارت على أعتاب كلية الطب بجامعة

فؤاد الأول، لتحقيق حُلمها بدراسة الصيدلة. وقد أحسنت جراسيا استقبال الهدية، فزارت زبيدة ومكثت في غرفتها لساعات طويلة، انفتحت أثناءها سيرة الحادث.

اندفعت زبيدة تُبرِّئ ساحة أخوَيها بكل طريقة ممكنة، فأقسمت لجراسيا أن حسين وعلي لم يبرحا البيت ليلة الحادث، ولا حتى لإطعام قادر في الباحة الخلفية، وأن الأسرة سهرت بأكملها برفقة حسين، توضِّب الملابس وتجهِّز الطعام، فقد كان حسين مسافرًا في الصباح الباكر إلى الصعيد. لكن الكلام لم يرُق لجراسيا، فأيًّا مَن كان الفاعل فقد فعل ذلك بإيعاز من زبيدة نفسها، «هكذا يقول الخال إفريم». صُدِمَت زبيدة من صراحة جراسيا، بل وبكت لدى ذكرها اسم الخال إفريم، فقد شعرت حياله بافتقاد شديد مثله مثل مُعلِّمتها الفرنسية التي ستسافر قريبًا إلى الجزائر، ومثل أحلامها التي انهارت أمامها دفعة واحدة. ضمتها جراسيا وأخذت تُربت عليها وتعدها بنسيان كل شيء، لكنَّ زبيدة التي امتلأت حقدًا ورغبةً في استعادة صورتها بأي ثمن، قالت لجراسيا إن مَن قام بإحراق الكوخ لم يفعل ذلك لأجل خاطرها، بل لأجل عشقه الذي أحبطته زبيدة، وأنها لن تسمح له برؤيتها ولا الحديث إليها، حتى يتعذب بفعلته.

لبرهةٍ توقَّفت جراسيا عن تربيت ظهر زبيدة، ريثما تستوعب الكلام، ريثما تقيس مدى غبائها في الأيام السالفة. كان تكرار الخال إفريم لاسم علي ما شوَّش تفكيرها، الذي عادةً ما يكون أكثر حِدة، هو مَن أبعد عن ذهنها اسم محمد؛ إنه هو دون شك، العاشق الجلف، الذي يحمل سيماء الأمراء وأخلاق السفلة والرعاع. لن يكون غيره مَن يقوم بجريمة كهذه!

ثم عادت تُربِّت ظهر زبيدة، وتبتلع ريقها الذي تجمَّع كثيفًا بداخل حلقها، وتتأهَّب للذهاب.

"تشاجر مع بلطجية من حارة اليهود، عاكسوا أختًا من أخواته الجميلات البيضاوات ذوات الأعيُن الملونة»، هكذا يُلخص أبي حادثة حارة اليهود، التي أودَت بعين جدي محمد قبل أيام من تقديم أوراقه لمدرسة البوليس. يُضيف أحيانًا بعض التفصيلات، فيقول شيئًا من قبيل: «كانوا أربعة، كسر أحدهم عصاته نصفين على دماغ بابا الله يرحمه، طارت منها شظيَّة وصفَّت عينه اليمنى».

أُنعِم النظر قليلًا في روايته، ثم أعود لسؤاله: «مَن مِن عماتكَ تعرَّض لها أولئك الأوغاد؟»، فيقول: «لم يذكر بابا اسمًا بعينه. قد تكون صغراهن إحسان، فقد كانت حَرِكة لا تصبر على البقاء طويلًا بداخل البيت. لكن أمي الله يرحمها كانت تُلمِّح لكونها إحدى قريباته، أو فوق ذلك إحدى حبيباته، فكان بابا يضحك من كلامها ملء شدقيه»، تغمر البهجة وجه أبي إذ يُكمل قائلًا: «أكاد أسمع ضحكته ترن في أذني إلى اليوم».

لو كانت صغرى عمّات أبي مَن تشاجر بسببها جدي محمد، لكان أبي قد سمع منها مباشرةً وقائع الحادث. لقد كانت زبيدة ما في ذلك شك؛ زبيدة الجميلة المغوِية، التي طيرت عقل جدي فطارت لأجلها إحدى عينيه الزرقاوين. ومفاد الأمر أن محمد بن فاضل خسر حُلمه الذي عاش لأجله، مثلما خسر حسين حُلمه بأن يصير هنري فورد الثاني، فيما خسرت زبيدة موقعها المأمول بين النجوم، وابتدر حسن صباه بخسارة جسيمة لا تُعوَّض؛ إنه جيل الخسارات الفادحة والمبكرة.

***

أخبرت جراسيا خالها إفريم بما سمعته في بيت زبيدة، فقرر أن يرد الصفعة بأخرى مُدوّية، يدوم صفيرها عمرًا بطوله. حرَّض جراسيا على تقفّي أثر الفتى عبر زبيدة وأخويها، حتى علم بتأهُّب محمد لدخول مدرسة البوليس؛ هنالك خطر له أن يُحدِث فيه عاهة مُستديمة تقصف أحلامه من الجذور.

أوعز لعصابة من حارة اليهود، التي تقع على مبعدة خطوتين من شارع الخرُنفِش، في التحرش بإحدى أخوات محمد الحسناوات، لكي يستدرجوه لخناقة تُتيح لهم إصابته بالعاهة المرغوبة. وبالفعل، قام أحدهم بكشف ساق إحسان أصغر بنات فاضل أفندي بطرف عصاه، فيما كانت تمضي عائدةً لبيت الخرُنفِش، فتندَّر الباقون على مسمَع من أهل الحي والسابلة، بأنها أبيض ساق رأوها في حياتهم، وقبل مرور ساعة ظهر محمد بن فاضل حاملًا عصاه الغليظة، خابًّا صوب حارة اليهود جائرًا

بصوته كوحش مُهتاج. سرعان ما برزوا له من بين المسالك الضيقة التي تربط حارة اليهود بشارع الخرُنفِش، وطوَّقوه بإحكام، فلكَمَ أحدهم ليُفسِح لنفسه فرجة للمرور، لكنهم تواثبوا عليه مُمسكين بذراعيه وساقه اليُسرى، مُحاولين سَلْت بنطاله من ساقه الأخرى. صارع قدر ما استطاع، برغم تمدُّده كما المصلوب بين أذرعهم، صار ينتفض في الهواء ويُفلِت ذراعًا تارة وساقًا تارة، فيخدش وجهًا أو يشق قميصًا، فيعودون للإمساك به ولكمه في كل موضع، حتى طرحوه أرضًا وشجوا رأسه من الخلف، ففارت الدماء وخضَّبت طوق قميصه. وفيما يلهث ويحاول النهوض، ضربه أحدهم ضربة بعصاه فلَقَتها لنصفين، فطارت شظيَّة وطرفَت عينه مُسيلةً منها الدماء.. إنها العين التي رأت حُلم الحكمدارية قريبًا وممكنًا، فاستمرَّت مُعلقةً بحُلمها إلى الأبد، تاركةً للعين الأخرى مهمة الإبصار.

تعاون رهط من أهل الحي لتوصيله البيت، فعاد غارقًا في دمائه يتخبَّط في الظلام، ولم يجد حضن جدته الست أم فاضل مفتوحًا كما اعتاد، كلما نزلَت به إحدى الفواجع، حُضنها الذي لطالما احتواه على ضخامته، وهدَّأ رَوعه وخفقان قلبه، فقد ماتت الجدة قبل الحادث بسنتين، وقبل أن تُنبئها رواسب القهوة بوقائع ذاك اليوم المشؤوم. وبرحيلها ذهب جيل زوجات الشيخ الثلاث دونما أثر يُذكَر، ولم يبقَ في بيت الخرُنفِش إلا أُسرة فاضل أفندي، واستمر أفرادها يبثون الحياة ما استطاعوا في ركن وحيد من البيت، علَّه يُشيع الدفء في سائر الأركان.

ومع كل جثمان يعبر بوابة البيت محمولًا فوق الأكتاف، كانت فكرة تأجير جناح من أجنحة البيت الشاغرة تُساور فاضل أفندي، كحَلٍّ أخير يُقيله من عثراته المتوالية، لكنه ما إن يُلمح للست هنّومة من قريب أو بعيد بفكرته هذه، حتى تصوِّب نحوه نظرتها التي لا تخيب في رَدعه، فيومئ كمَن لا حيلة له ويعاود الابتسام. ثم جاءه الفرج على تسع دفعات متتالية، استغرق وصولها سبع سنوات كاملة، على هيئة عرسان مُريَّشين يتوافدون على بيت الخرُنفِش ويطلبون الزواج من بناته المليحات والكريمات. كان قد زوَّج ثلاثًا منهن قبل وفاة الست أم فاضل، وأتمَّها سبع زيجاتٍ قبل إصابة ولده محمد، وكان على موعد مساء يوم الحادث المشؤوم مع صديقٍ تكلَّف بالسؤال عن عريس ثامن يطلب يد ابنته بسيمة. ولمّا عاد محمد مشجوج الرأس فاقد البصر، محاطًا برجال الحي وصبيان المقهى القريب، راعَ المنظر فاضل أفندي، فطلب من أحد الصبيان إبلاغ المعلِّم صاحب المقهى باعتذاره عن موعد المساء، وانشغل يُعالج جرح الولد ويُرقده في ذات الحجرة التي كانت

مخصصة للأمير الاي نشأت قبل انتقاله لبورسعيد، على نفس السرير الذي أمضى عليه نشأت فترة نقاهته من آثار الحرب؛ الرقدة عينها والصمت المخيِّم على كل شيء، والعينان الشاخصتان نحو السقف البعيد، غير أن إحداهما تنحرف بانكسار نحو جانب الوجه، وكليهما تجوسان الظلام الدامس بلا دليل. «لا أرى شيئًا يابا»، قال الفتى بنبرة يحبسها الخوف حين سأله أبوه، فانبثق البكاء من عين أبيه كأنما فقدَ وحيده.

تماسك فاضل بعد قليل، وهرع راكبًا دراجته ليجلب طبيبًا من الغورية. انتظر الطبيب حتى نزل من بيته واتخذ مكانه الضيق أمامه على الدراجة. وفي الطريق حكى للطبيب ما فعله المجرمون بولده الوحيد، وأسرَّ إليه برعبه من أن يفقد الولد بصره إلى الأبد، فقال الطبيب إن الحالة قد تكون مؤقتة، وأعاد الكرَّة حين عايَن عيني محمد المخضبتين بالدماء، قال إنه يأمل أن يعاود الفتى الإبصار في غضون أسبوع، لكن الشفاء يستلزم الراحة التامة في السرير.

لازَم فاضل وحيده لأيام. ظل يقتعد كرسيًّا بجوار السرير، ولا يجسر على النظر مليًّا في عيني ابنه حتى بعد زوال الاحمرار، فيما ظلت هنّومة تجلس عند طرف السرير مُتكئة بخدها فوق كفها البضة، وحين تجيء ساعة النوم ينهض فاضل ويمضي لحجرته، فلا تلحق به هنّومة، بل تجلس مكانه على الكرسي المجاور للسرير، وتنام في موضعها. وذات ليلة شعر بخفقات شبشبها ذي الكعب القصير تتهادى وراءه، فارتاح لكونها عادت تتبعه وقت النوم، لكنها أخذت ملابس وغيارات نظيفة من صوان الحجرة وهمَّت بالذهاب، استوقفها فاضل قائلًا: «أين كان مستخفيًا لنا كل هذا الحزن يا هنّومة؟»، فانحدرت الدموع بصمت على وجنتيها الملساوين، دون أن تندَّ عنها كلمة ولا نهنهة. واستمرت تُخالف ظنه كل يوم، فقد كان ينتظر أن تُخفف عنه ذات ليلة، كما كانت تفعل دائمًا كلما جثم الحزن، لكنها ظلت على صمتها طوال أسبوع، فقد كان الغضب يعتمل بداخلها كالسحر الأسود، ويتحيَّن الفرصة ليفور في وجهه كما البركان.

وكان فاضل قد عاد لعمله ولخروجه المسائي، كما أتمَّ الاتفاق مع العريس المتقدِّم لطلب يد ابنته الثامنة، بل والتاسعة أيضًا، فقد وجد العريس حين التقاه رجلًا موسرًا يعمل في تجارة السمك، ويصطحب لكل مكان أخاه الأصغر والأكثر وسامة، والذي يعمل معه ويحل مكانه في كل شيء. كان الأخَوان يتشككان في قبول فاضل أفندي لطلبِ الأخ الأكبر تاجر الأسماك، الذي لا يحمل شهادة في العَلام ولا النسَب، فإذا

بفاضل يعرض عليهما الزواج بابنتيه الثامنة والتاسعة، بسيمة وإحسان، في ليلة واحدة؛ فلم يكن ثمة مزيد على فرحتهما بالعرض السخي. ومضى هو سعيدًا باتفاقه، فارتدى جلباب النوم الحريري توطئة لاستعادة بهجته من حنَك الحزن؛ شمَّر ذيل الجلباب واقتعد الكنبة البلدي في ركن حجرة النوم، مُتكئًا فوق مخدة من ريش النعام، وانتظر هنّومة حتى دلفت وراءه وأخذت تُعيد الملابس التي خلعها لداخل الصوان، وتمسح طربوشه بطرف كمها قبل أن تُعلقه من جديد على الشماعة. شرع يُدندِن بصوتٍ خافتٍ في انتظار فراغها ممَّا تقوم به، وأراد أن يُنبهها لكونه ينتظرها منذ مدة، فحدثها قائلًا: «تعالي أما أحكي لكِ ما دار بيني وبين العريس»، لم يجد منها إلا المزيد من الصمت، فقال: «هنّومة، ألا تسمعينني؟»، صوَّبت نحوه نظرتها الحارقة وقالت: «لكَ نِفس تفرح بعد ما جرى لابنك الوحيد؟!»، فازدرد ريقه قائلًا: «ولِمَ لا نفرح يا هنّومة؟ ما راح راح وانقضى»، فانفجر البركان.

كأنها صامت عن الكلام طيلة هذه المدة كي تستعد لهذه اللحظة؛ لتحتفظ بجذوة السخط مُتَّقدة وحارقة، فتحفر بنارها وصمة على جبين فاضل الأبيض اللامع لن يستطيع مَحوها. «أنت أب أنت؟! أنت أب يعُرّ، ألا
تنكسف من نفسك!»، صارت تصرخ فيه فيما يُسارع هو بإغلاق النوافذ وحَبس الفضيحة، يُبرّق بعينيه قائلًا: «وطِّي حسَّك يا هنّومة ستفضحينا!»، يكاد يلطم فيما يُحاول إسكاتها، في عينيه فزع كمَن يستفرغ روحه، تلطم الإهانة أذنيه فلا يجد مهربًا من سماعها.. ليته مات قبل هذه اللحظة، ليت أمه حية فتدفع عنه هذا الهوان، ليت أخاه صدقي.. صدقي؟! خرق أذنه آخر ما فاهت به زوجته قبل أن تغادر حجرة النوم؛ اجتث قدميه من موطئهما، جعله يحُط على الكنبة البلدي ذاهلًا عن مُحيطه، كأنها خلعت عنه طربوشه بين جمهرة من الناس، وأخذت بياقة سترته وراحت تُطوِّح به يمنة ويسرة، بل كأنها جردته من كل ثيابه، من لقبه، من وظيفته، من أصله الكريم ونسبه الشريف، هبطت به لمنزلة عرَّة الرجال، قالت إن صدقي بيك لو كان حيًّا لا يزال، لكان جاء بالمجرمين من أقفيتهم وخزق أعينهم، وعلقهم حتى الموت على بوابة البيت؛ فقد كان للبيت رجل يحميه ويذود عنه.

ظل فاضل في مكانه مُبرقًا بعينيه، يزدرد ريقًا جف منذ الأزل، في فمٍ أطبق على نفسه لغير رجعة. قد لا يكون شعَر بنفسه حين قام كسائرٍ أثناء النوم، وجَرجَر قدميه الحافيتين لخارج البيت، ثم انقطع خبره.

تنشغل أمي بصديقة تزورها من الخليج، تخرجان سويًّا نهار كل يوم، تُفطران معًا، تحتسيان قهوة ستاربكس التي لا تُمزِّج أمي حفيدة صدقي بيك وابنة حسين أفندي. أجدها تتغافل عن مشاوير البنك وعن قبض المعاش، وتطلب الفاكهة بالتليفون؛ أُجرب استفزازها: «أليست أسعارها مُبالغًا فيها؟»، فتُجيب من فورها: «لا أبدًا، كل أسعار الأكل بقت كدا»، ثم تحكي بحماس عن آخر خروجاتها مع صديقتها: «دخلنا السينما حفلة واحدة»، «سينما يا ماما؟!»، «آه، فيلم أي كلام، لا توجد قصة، لكنه خفيف»، أشرد قليلًا فأجدها تقول: «نِفسي تكتب أفلامًا حلوة وتعرضها على مُنتجين»، أقول: «أنا أكتب قصصًا يا أمي، وأُحاول الآن مع أول رواية. هذا ما أُجيده»، فتقول: «وما له.. اكتب قصصًا وأفلامًا».

تُطربني رنة الحماس في صوتها، نبرة انفعالها الأعلى من المعتاد، أُقرر ألا أُعكر صفوها بسيرة الهجرة، وأستجيب لطلبها الثقيل على قلبي: «ممكن تاخُدنا لشارع المعز؟ صاحبتي نفسها تشوفه، وسمعنا إنه صار نظيفًا ومنظَّمًا جدًّا»، أمرُّ عليها في الصباح، أُقلّها برفقة صديقتها لمدخل الشارع من جهة الدرّاسة. أصفّ سيارتي أمام باب النصر، ونترجَّل سائرين حتى بوابة الفتوح. يستوقفني العِقد الشامخ المنقوش بزخارف دقيقة، والكوابيل الرشيقة المتوَّجة برؤوس كباش، والطاقتان المنتصبتان كما الحراس عن اليمين والشمال؛ أخطو أسفل القبو الرهيب، أتأمَّل أحجاره الصماء، والعتبة الخشبية العملاقة. في الضخامة ما يُلهم الشعور بالرهبة والخضوع، كأني إزاء عملاق يحرس الزمن.

أخطو للداخل، أفتِّش عن أمي وصديقتها؛ أجدهما قد سبقتاني بخطوات، ألحق بهما عند مدخل جامع الحاكم، عمره ألف سنة أو يزيد، أقف بالخارج وأشعل سيجارة، كم من جدودي وقف هنا يُدخِّن في شبابه؟ هذا موطئ أقدامهم، هنا عاشوا زمنًا ثم ذهبوا، هنا تصايحوا، فوق هذه الأحجار تردَّد صياحهم، تحت هذه السماء طيَّروا طيارات ورقية، ولعبوا السبع طوبات، أي طوبة هنا حملها جد من الجدود، أحرز بها فوزًا ثمينًا أو صدَّ عدوانًا كاد يفتك به؟ تُرى، هل حقًّا يذهبون، أم يبقى منهم شيء، من آثارهم، من تراب أقدامهم، أنا من بين آثارهم تلك، عليَّ أن أترك أثرًا ما قبل الذهاب، لكي يعبروا من خلاله.

أمشي خلفهما بخطوات، لا تتركان دكانًا إلا وتتوقفان أمامه، فوانيس مضيئة ملونة، عطور مُقلدة، أنتيكات وجرامافونات قديمة تُذكرني بصدقي بيك، أوراق بردي

زائفة، مصنوعة من أوراق الموز. أُدير ظهري إليهما، أتأمل «اليافطات» القديمة، والواجهات والمظلات الخشبية؛ جميعها تكابد الأجواء والصيحات، تعافر لأجل البقاء أطول زمن ممكن، وقد تكون تعيسة تصبو للرحيل. نتوقف عند ناصية الدرب الأصفر؛ بيت مصطفى جعفر الأثري، وبيت السحيمي ذائع الصيت، «نتفرج عليه»، تقترح أمي، فتُوافقها صديقتها بحماسة لم تفتُر طيلة هذه المسافة، أخبرهما: «سألحق العصر في جامع الأقمر»، «ادعُ لنا»، تمازحني صديقة أمي وتهرع نحو مدخل الشارع.

أدلف إلى الجامع الصغير، المسكون بالصفاء، لا صخب هنا، لا شيء يدعوكَ للعجلة، أقعي مُسندًا ظهري لعامود من الرخام عمره ألف عام؛ أكبر من أجدادي وجداتي الذين ذهبوا، أصغر من البعض. أتناول هاتفي، أفتح جوجل ماپس، أتأمل محيطي وأُحدد موقعي من باب النصر، حيث تركت سيارتي. على الجهة المقابلة للجامع شارع الخرُنفِش، لا بد أنهم كانوا يُصلّون الجمعة هنا، كان جدي محمد يسند ظهره فوق هذا العامود، ليستريح بعد الصلاة، ينظر لقدميه المتورمتين بسبب علَّة القلب، ثم يمضي عائدًا إلى البيت.

أرجع لأمي، أُخبرها بهذه الحقيقة المدهشة: «جدي كان يُصلّي في المسجد المجاور»، ترمقني باندهاش: «جدك مَن؟»، «جدي محمد»، «وكيف عرفت؟»، «شارع الخرُنفِش على بعد خطوات». تصمت قليلًا، على شفتيها تختبئ ابتسامة، تقول: «تحب تروح هناك؟»، أسأل باستغراب: «هل تعرفين البيت؟»، فتقول لي: «وُلِدت فيه»، يُربكني قولها، أستفسر: «أنتِ ولا بابا؟!»، فتقول: «نحن الاثنان».

***

في جناحين متقابلين في بيت الخرُنفِش، وُلِد أبي ووُلِدَت أمي. ولهذه الواقعة حكاية طويلة تسبقها، بل حكايتان، الأولى حكاية جدي محمد بن فاضل مع العشق والترحال، والثانية حكاية جدي حسين بن صدقي، حكاية ارتباطه الوثيق بجدي محمد، الذي انتهى به في جناح الست أم صدقي في البيت نفسه.

خسر جدي محمد حُلمه بدخول مدرسة البوليس، ورقد في جناح جدته الراحلة فاقد البصر، كما اختفى أبوه الأفندي فاضل في ظروف غامضة، مثلما فعل الأمير الاي نشأت قبله بسنوات، فأُسقِط في يد الست جمالات - التي استمرت رغم الهجر زوجةً لمختار - وركبها الغم، فمَن يتكفَّل بمطالب البيت بعدما فرغ من رجاله الأصحاء؟ لم تجد عند هنّومة أذُنًا مُصغية، ولا مفر هناك من أن تُرسل بالخبر المشؤوم إلى

الست نعمات؛ هي عمة محمد وعمة بنتَيها بدرية وروحية، وهي مَن بيدها الحل والعقد في هذا البيت حتى في غيابها. وبالفعل، أوصت بنتَيها ألا تبرحا جناح أم كامل، وأرسلت في طلب الحوذي العجوز العم عرفان، قاصدةً مكتب التلغراف. هناك سألت عامل البرق أن يُرسل برقية للست نعمات، مُفادها أن ابن أخيها محمد بعافية حبَّتين، لذا لزِم إخطارها وانتظار قدومها بفارغ الصبر.

ارتجَّ قلب نعمات إذ وقف ببابها مُراسل من مكتب التليفونات والتلغراف، نزل من فوق حماره وسلمها إشارة تليفونية أفزعتها، فانطلقت قبل نداء الفجر تقطع الطريق الوعر، الذي كانت قد استراحت منه قليلًا منذ رحيل أمها. وهناك وجدت الأمور أسوأ ممَّا حدَّثها به قلبها المرتج، وألفَت البنتين في رُفْع البوص، خاصة روحية التي كادت عيناها تطفران من وجهها لشدة خوفها على محمد. «مالكِ يا بت؟»، قالت فيما تحتويها وتُربِّت ظهرها، «سيَصِح ويعود أحسن من الأول»، فهمست روحية في أذنها: «خايفة عينه تروح يا عمتي»، فقالت بحسٍّ خفيض: «بعد الشر عليه! تُفّي من بُقِّك»، ثم أكملت: «لعله خير.. ضَمَنّا إنه ما يبُص لغيرك».

كانت نعمات تعلم بهيام روحية بابن عمها محمد، ذلك الذي تربَّت في الجناح المجاور لجناحه، ولم يزدها قربه إلا حُرقة في القلب، فما كان ينتبه إليها قط؛ لا لعينيها الواسعتين الجميلتين، ولا لشعرها المُرسَل حتى أسفل الخصر بقليل، ولا لساقيها المدملجتين اللتَين تكشف عنهما حين تلعب الحَجْلة مع أختها بدرية في حوش البيت. أخذت نعمات بيد الفتاة وقالت بصوتٍ مسموع: «دلّيني أين يرقد الفتى المدلل».

في الغرفة انهار تماسكها الذي تشبثت به منذ تلقَّت برقية جمالات، مالت على السرير ترتجف في صمت وضراعة، كأن زلزالًا قد ضربها دونًا عن سائر الموجودات، ومعها أصدر السرير النحاسي صريرًا كأنه يئنّ، فيما انهارت روحية أسفل رجلَي عمتها تشهق بين موجات النحيب، حتى داهمتها أمها جمالات وسحبتها جذبًا من ضفيرتها السميكة السوداء، «ستفضحينا يا أم وجه مكشوف!»

تماسكت نعمات بعد قليل، جلست على المقعد الذي تُرِك شاغرًا منذ ذهب فاضل، وأخذت تُغمغم بالقليل الذي تحفظه من الدعاء والقرآن، آيات مُلخبَطة، وأخرى غير مُكتملة، تضغط جبهتها براحتها الآخذة في الارتعاش، تُكابد للسيطرة على التشويش وتدبُّر الموقف. محمد نور عينيها يفقد عينيه! لن يكون ذلك أبدًا، لن يفجعها الله

مرتين، لقد نالت نصيبها من الفواجع وانتهى الأمر. الولد سيشوف، يمكن يكون مأخوذًا ممَّا تعرض له، أمله راح يا حبة عينها، وأمه غلبانة ستراعي مَن ولا مَن؟
مضت تنتظر عودة هنّومة، وكانت الأخيرة قد راحت تطمئن على ابنتها النفساء المحمومة قبل وصول نعمات، فالبنت لا تُغادر سريرها ولا تقوى على رعاية الرضيع. هنّومة عاقلة، حدَّثت نفسها، ستترك لها محمد أسبوعًا أو أسبوعين، فيبتعد عمَّن يتربصون به، ويُغير جوًّا ويشم هواءً جديدًا نظيفًا، ويُبصر شمسًا أخرى لا تعرفها بيوت الخرُنفِش وحاراتها الخطِرة. ستطيب يا محمد يا حبيبي، صارت تهتز وتقول، ستطيب يا نظري، يا روح عمتك.

٣٣

«أجمل أيامه قضاها في بورسعيد»، هكذا يقول العم زين فيما يناولني خطابات جده الأميرالاي نشأت؛ خطابات مكتوبة بخط الرقعة المنتظم، جميعها يبدأ بعبارة: «حبيبتي ليليت». «هل كانت تقرأ العربية؟»، أسأل العم زين، فيرمقني بنظرة تُضمر اتهامًا بالغباء: «لو كان يُرسل إليها الخطابات لما وصلت إليَّ..»، أهرش جانب جبهتي وأبتسم مُعتذرًا، فيُصلح العم زين من وضع قُبعته، ويتخذ هيئة قبطان يرى في الأفق ما لا يراه غيره، ثم يُكمل قائلًا: «ظل لعشر سنوات يكتب لنفسه هذه الخطابات؛ خطابًا واحدًا كل عام، يوم العاشر من أغسطس، إنها ذكرى اليوم الذي أخبرته فيه ليليت بموافقتها على الزواج. ستجد التاريخ مكررًا في جميع الخطابات، لا يتغير إلا السنة».

***

سألته ليليت: «كيف تنتظر مني أن أُحبَّ شخصًا مسلمًا، بعدما ذبحتم أهلي وشرَّدتموهم في كل مكان؟!»، فرمق نشأت باندهاشٍ سماعة التليفون، كأن ليليت تقف وراءها، وقال: «نحن ذبحناكم؟! الأتراك هم مَن ذبحوكم وشرَّدوكم بحق الله، أما نحن فاستقبلناكم بالورد، وقذفناكم بأسلاك التليفون.. أتُنكرين؟»، وإذ سمع ضحكتها قال: «سأمنحكِ نوطًا عسكريًّا لا يحلم به أترابكِ يا أميرتي.. سأجعلكِ زوجة الأميرالاي نشأت هازم الأتراك.. هل تقبلين؟»، قالت: «نعم، أقبل».

قصَّ عليها تفاصيل المعارك التي خاضها ضد الأتراك، تلك التي في الظروف الطبيعية كانت لتُثير غثيانها وصدمتها الشديدة، لكنها في هذه الحالة بالتحديد طيَّبت خاطرها، طمأنتها أن العدالة ليست مستحيلة رغم قسوة العالم، وثَّقت لديها شعورًا بالأمان ظل نسبيًّا مُهدَّدًا حتى ظهر نشأت. كانت سعيدة به يوم رافقها لأول مرة في سفرها لبورسعيد، بهيئته الأنيقة وبمرحه الدائم، وظلت تنشد تقديمه للأب تومانيان، الأسقف المسؤول عن تنظيم الوافدين الأرمن وتوزيعهم على مطرانيتَي الإسكندرية والقاهرة، والذي اختارها مع أخريات لمهمة استقبال السفن التي تحمل الأرمن لميناء بورسعيد، لما لهن من خبرة في رعاية الأطفال وبثِّ الطمأنينة في قلوبهم الصغيرة الواجفة.

وكانت إرسالية استقبال الوافدين الصغيرة هذه قد تشكَّلت إثر فض المُخيَّم المقام في الكارانتينة، شرق القناة، فالقائمون على المُخيَّم هم مَن تولوا مهام التنظيم والإعاشة لست سنوات، منذ بدؤوا في التوافد على السفن الفرنسية هربًا من حصار

العثمانيين لمدينة أنطاكية، وكان أكثرهم من المقاتلين المتمرسين على مثل هذه الظروف العصيبة، وقد أمضوا فترة الست سنوات في تصريف شؤونهم وفي بناء المراكب التي سيعودون بها لأنطاكية، إن عاجلًا أو آجلًا، فيلتمَّ شملهم مع ذويهم، وهو ما صار ممكنًا بعد هزيمة الأتراك في الحرب العظمى، لذلك شرعوا في إعداد قوائم العائدين، وتجهيز المراكب التي ستحملهم من شاطئ الكارانتينة صوب الشمال، غير أن بعضهم فضَّل البقاء بجوار صنعته وتجارته التي بدأها في بورسعيد، عازمًا على نقل عائلته في الاتجاه المعاكس على المراكب العائدة من أنطاكية لتحمل المزيد، وهؤلاء مَن تراسلوا بالتلغراف مع بطريركية الإسكندرية سائلين أن تُبنى لهم كنيسة ويُرسل القساوسة، فأوفدت إليهم الأسقف سوهوب تومانيان حتى يُنظِّم لهم شؤون الدين، وهو مَن لاحظ أن أكثر الوافدين من الأطفال الأرمن، فأمر بتشكيل إرسالية من الفتيات اللاتي عملن سابقًا بالتدريس أو التمريض، على أن يكنَّ من أرمن الإسكندرية وبورسعيد والقاهرة على نحوٍ متساوٍ، تسهيلًا للتواصل مع مُستقبلي الأطفال في الثلاث مدن، فصارت أقرب المتطوعات لقلوب الأطفال تلك التي تُجيد العزف على الدودوك والإكسلفون، تلك التي ينادونها: ليليت.

قدَّمت نشأت باعتباره أحد المقاومين للغزو العثماني والمتعاطفين مع مأساة الأرمن، «أميرالاي سابق في الجيش المصري»، قالت للأسقف تومانيان، فأومأ لنشأت باحترام شديد وربَّت ظاهر يده فيما يتصافحان، ومع ذلك توجَّس قلقًا من وجوده بين فتيات الإرسالية؛ إنه شاب مسلم مهما تنكَّر في سمت الأورُبِّيين، هكذا حدَّث نفسه، فماذا تُراه يريد منَّا؟ وخشي التصريح بمخاوفه، إذ ربما يكون الشاب موفدًا من قبل السلطنة المصرية كي يتفقَّد أحوال الأرمن المهاجرين.

أما القائمون على مُخيَّم الكارانتينة من المحاربين السابقين، فقد أبدوا حفاوة كبيرة تجاه نشأت، وبرغم اضطراره لإعادة كل عبارة يفوه بها مرَّتين، ولشرحها ثلاث مرات، إلا أنه استطاع إبهارهم بمعارفه العسكرية، فعادةً ما تكون قصص الحرب أجمل بكثير حين تُحكى بعيدًا عن الجبهة وبعد حلول السلام. وكان يُسامرهم بالليل عند رصيف المعدية التي تربط الكارانتينة ببورسعيد، فيُبادلهم القهوة والتبغ والحكايات، مُلتذّين بدسامة الهواء وانبساط مياه القناة. شرح لهم طريقة الإنجليز في إدارة الحروب، والآلات الحديثة التي يستخدمونها في التفجير عن بُعد، وفي التواصل بين القيادة والخنادق، كما وصف لهم جهاز التليفون بعبارات حاول

تبسيطها قدر مستطاعه، مع العديد من الإيماءات والإشارات، ووعدهم بأن يُريهم أحد هذه الأجهزة العجيبة المعقدة في السفرية القادمة.

وحدث أن خاطبه أحدهم قائلًا: «يا خواجة نشأت»، فردَّه بقوله: «أنت الخواجة يا عم بيدروس، أنا لا»، فاندهش الرجل، إذ كان يظنها صيغة احترام يُنادَى بها الغرباء، فيما ضحك الباقون الأسبق منه في المجيء إلى مصر، وصاروا يُشاكسونه بقولهم: يا خواجة بيدروس، حتى التصقت به وصارت كُنيته.

وكان نشأت ينهض من نومه مبكرًا، فيترك بعجالة فندق ناسيونال حيث تطيب له الإقامة، ويعبر الطريق مُعتمرًا قبعته الإنجليزية، مُرتديًا بدلته ذات اللون الفاتح، التي يلامس بنطالها بالكاد حذاءه اللامع، ثم يقف على رصيف المعدية مُمسكًا بوردة بيضاء ليُهديها لليليت فور ظهورها، فتشبكها في خصلة الشعر المحيطة بأذنها. «صباح الورد»، يقول فيما يمدُّ الوردة على طول ذراعه، فيحمرُّ خدَّاها أمام فتيات الإرسالية، وسرعان ما تُشير إليهن مُودِّعةً وتتأبط ذراعه.

كانا يجوبان شوارع بورسعيد طولًا وعرضًا، ويميلان للتمشية في شارع أوجينة الفسيح، حيث البيوت المتشابهة ذات الشرفات الخشبية، المحمولة فوق أعمدة من عروق الخشب، وحيث بائعو الترمس والعرقسوس الجوالون. صمَّم ذات مرة أن يُذيقها العرقسوس، فأطبقت جفونها على عينيها الجميلتين مع أول رشفة، ثم استساغته فيما بعد وصارت تبحث بأذنيها عن صوت الصاجات النحاسية حين تشعر بالعطش، وحالما يحلُّ عليها التعب من طول ما مشت، يستوقف نشأت عربة سوارس تجرُّها البغال، ويركبان حتى كورنيش القناة، ثم يستأنفان المشي لمسافة قصيرة حتى متجر سيمون أرزت، ذي الطابقَين والسقف الزجاجي الملون، حيث يبتاع نشأت ما يروق له من تبغ الغليون ومن علب السجائر الأنيقة، وبذلك يجمع في حوزته متعة مجالسة ليليت ولذة تدخين التبغ الفاخر، فلا يطمع من الحياة بما يزيد عن هاتين.

غير أن الحياة عادت لبُخلها السابق، فلم تدعه يهنأ طويلًا بكنزه الجديد. كانا حالمَين، ما في ذلك شك، وتكفَّل الأسقف تومانيان بإيقاظهما من الحلم، فقد بادر قبل سفره باستدعاء ليليت وتبكيتها على ما بلغه من خبرها مع الضابط المسلم، قالت بنبرة وجِلة: «لقد طلب مني الزواج يا أبتِ»، فابتلع الأسقف صدمته بحنكة السنوات، وقال: «سَلِيه إن كان سيترك مِلَّته ليتزوجكِ، إن قال نعم فهو صادق في طلبه، وإن قال لا فلا يريد إلا أن يُزيغكِ عن الطريق الذي أوصاكِ به الرب».

لطمتها صحوة المفاجأة، وتمكَّنت منها حين امتنع نشأت عن الإجابة لأيام، بل إنه دخن أرطالًا كثيرة من التبغ قبل أن يقول: «تصوَّرت أن بإمكانكِ أن تتركي أنتِ مِلَّتك»، فتهدَّج صوتها في إجهاشة البكاء، واندفعت تركض صوب صاحباتها فتيات الإرسالية، اللاتي كن يقفن في انتظارها على مسافة قريبة. ولم تعُد للقاء نشأت من جديد، حتى عاد لبيت الخرُنفِش وارتقى السلم صعودًا إلى السطح، وهناك وجد سلك التليفون مُتدليًا من أعلى السور، يترنح مع النسيم من لوعة الهجران.

لم يحظَ برؤيتها ولو لمرة واحدة، حتى مسامرته للخواجة داوُد باتت مفضوحة، فصارحه الرجل ذات يوم: «اتركها لحالها يا أمير الاي»، فعرف نشأت أن الطريق انسدَّت أمامه وليس ثمة سبيل. عاد إلى الكارانتينة واستقر بجوار ميناء بورسعيد، إذ ربما تظهر ليليت يومًا، وهناك افتتح متجرًا مع الخواجة بيدروس يبيع التبغ الأرمني للسفن الأجنبية المارة من القناة، بأسعار تنافس سيمون أرزت وتقضم من حصَّته في سوق التبغ

قضمات متتالية، حتى شرع المتجر الكبير في تنويع بضاعته والتوسع في بيع مستحضرات التجميل، فأيقن نشأت بنجاحه.

وبرغم ذلك ظل فشل مسعاه في الحب يُنغص عليه معيشته، واستمر يكتب الخطابات في نفس اليوم من كل عام، حتى بعد زواجه وإنجابه أحمد نشأت، أشهر طبيب في تاريخ العائلة وصاحب السيارة اللينكولن الداكنة. ولم يعرف يومًا طريق ليليت، باستثناء المرة التي أخبره فيها الخواجة بيدروس بما سمعه عن عملها في المدرسة التابعة لبطريركية الأرمن في الإسكندرية، فسافر نشأت قاصدًا مبنى البطريركية في حي اللبَّان، لكنه لم يجد حيلة يصل بها لليليت. فاستمر يُفضي إليها في الخطابات، كأنه يُخاطب الحياة نفسها؛ تلك الحياة التي أخذت منه حبيبته، وأعطته أطنان التبغ ليحرقها أسفًا عليها، كما ظل يُسائل نفسه بلومٍ أليم: هل كان الله ليسخط عليه لو أنه نطق بإجابة تُريح ليليت، وتستبقيها معه؟ فيما يخطر بباله السؤال العكسيّ والأكثر صعوبة: هل كان الله ليسخط على ليليت لو أنها أراحته بإجابة مماثلة؟ إنه نفس الإله، فأي مِلَّة تُراها تُسخطه بدرجة أشد؟!

أُفاتح أبي في مسألة السفر: سفرية قصيرة، تليها أخرى طويلة، لكن مؤقتة في جميع الأحوال. بيرث مدينة جميلة، بيوتها من دور واحد، أو دورين على الأكثر، سكان عمارتنا هنا يشغلون حيًّا سكنيًّا هناك، حدائقها العامة في اتساع حديقة الحيوان في الجيزة، مفتوحة للجميع، فيها مكان مخصص للشواء، «أنت رايح تشوي؟»، يقول أبي مُتهكمًا، أتصنع اللا مبالاة، وأستطرد في الحديث: «الصيف هناك شتا، والشتا صيف»، لا يُعلق، يضع نظارة القراءة، تبرق عيناه خلف زجاجها كأنما يُريد إخافتي، وينشغل في حل الكلمات المتقاطعة. أحمد موسى يصرخ مُطالبًا الحكومة برفع معاشات الشرطة والجيش؛ هذا تحديدًا ما ينقصنا اليوم كي نصير أستراليا، أطلب من أبي أن يخفض صوت التلفزيون قليلًا، لا يُعيرني اهتمامه، أهز ساقي مُستحثًّا عقارب الساعة، إذ ربما يحل موعد خروجه إلى العمل، فيُطلق سراحي. يجلس في بنطال الخروج مفكوك الزر، وفانلة داخلية بيضاء ناصعة، وتفوح منه رائحة مزيل عرق تُفعم الجو. أمامه ربع ساعة على الأقل لو أنه قرر ترك الكلمات المتقاطعة الآن؛ ربع ساعة من هز الساق، من الشعور بقلة القيمة، من صراخ أحمد موسى في البرنامج المُعاد. لم أعُد أُطيق.

«أستأذنك يا بابا، عندي موعد مع عميل».

لا يرد. يبرز طرف لسانه من فرط التركيز، يقلب القلم الرصاص ويمسح بالممحاة حرفًا تردد في كتابته. أجمع أغراضي وأمضي نحو الباب. يستوقفني صوته: «عايزك في مشوار نشوف حاجة مع بعض»، أسأله: «خير؟»، فيقول: «عايز أشتري مدفنًا»، يصدمني قوله، أتماسك: «ما له مدفن العائلة؟»، يقول: «على طريق صلاح سالم، ممكن يزيلوه في أي وقت».

نذهب صباح اليوم التالي لنتفقَّد مدافن حديثة البناء على طريق السويس، تابعة للجيش، ككل شيء آخر. «تشتري مساحة عشرين مترًا أو أربعين»، يشرح لنا السمسار ذو اللكنة الجنوبية، «وتبني على كيف كيفك»، ثم يُردف: «عندي مدفن في آخر شارع هناك، هواه يرد الروح»، لا نستسيغ المزحة السخيفة، لكننا نمضي صامتَين خلف الرجل حيث يُشير، ونقف أمام المدفن؛ مبنى سخيف بلا ملامح، بلا لافتة، بلا نبتة خضراء واحدة، مكسو بطوب ورديّ في لون بشرة حديثي الولادة، يُعلِّق أبي: «لا يوجد باب ولا لوحة رخامية»، فيُجيبه الرجل: «نعمل لك يا بيه كل ما تعوزه، أوامر». أومئ لأبي بعدم الاقتناع، فيُسارع الرجل: «فيها عين حريمي

وعين رجالي شرحة وكبيرة، وفوق ذلك فيها عظّامة». «بكم؟»، يسأله أبي، فيقول: «أربعمائة ألف سعادتك، وأضِف خمسين ألفًا للتوضيب».

يقترح أبي في طريق عودتنا أن نفوت على مدافن العائلة: «تعالَ نشوف ونقارن»، أوافقه. لا يفتح سيرة السفر، يتعمَّد إهمالها وتعميق حيرتي. أفتح الباب للكلام: «ما العظّامة التي ذكرها السمسار؟»، يقول: «مكان تُجمَع فيه العظام كل فترة، ليُفسَح المجال للأمانات الجديدة»، أزدرد ريقًا كأنه كرة صغيرة، وأنتبه للطريق.

نزحف ببطء لداخل تُرَب المجاورين. نتوقف عند التواءة شارع، نُفسِح الطريق قدر المستطاع لمرور السيارات، ونمضي على أقدامنا. تبرُز رؤوس أطفال من النوافذ، يمرق آخرون في كل اتجاه، يتدافعون، يتضاربون، يتصايحون، كأن الشقوق تلفظهم في طريقنا، أحوش أحدهم كي لا يصطدم بي. يقول أبي: «المشكلة هنا في المياه الجوفية»، أحدِّث نفسي: المياه الجوفية فقط؟! وأمدُّ إليه ذراعي ليتسند عليها في عبوره فوق بقعة ماء آسِن. أقول له: «دا صرف صحي يا بابا»، فيومئ كأنه يقول: وما أدراني.

ثمة مقابر بلا حوش تقطع طريق المارة، يبرز من كل مقبرة عمودان مُفلطحان، كأنها تتضرَّع إلى السماء، الأحواش الحديثة مكسوة بالطوب الوردي المُقبض، القديمة مدهونة بالأصفر والأخضر، والنبات المتسلق يذرع الجدران بانهماك وعشوائية. حوشنا فسيح، أمام مدخله مقبرتان نابتتان من جوف الأرض، بينهما نخلة قزمة، «مقبرتا صدقة»، يشرح لي أبي، ثم يقول: «الفاتحة لروح جدك»، وينهمك في قراءة الفاتحة على روح أبيه محمد بن فاضل.. آمين، أمسح وجهي وأقول: «والفاتحة لجدك فاضل»، فيقول: «نقرأها في الطريق»، ويسحب يدي نحو خارج الحوش. أستغرب فعله، لكنه يشرح السبب حين نعود للسيارة: «جدي فاضل مدفون في المقطم.. أُلقي عليه السلام كلما عبرت أسفل الجبل، وأقرأ له الفاتحة»، وهكذا نفعل فيما نمضي بمحاذاة سفح المقطَّم، متَّجهَين نحو الطريق الدائري.

***

خرج فاضل ولم يعُد؛ هكذا تقول الرواية المنسوبة لابنه الوحيد، جدي محمد. لم تَضِع سيرته إلى الأبد، بل عُرِف منها شذرات متفرقة، جميعها يؤكد عدم إقامته مُجددًا في بيت الخرُنفِش. يقول البعض إنه انجذب؛ استلبَته طاقة غيبية لبقية سنوات عمره، فيما يقول البعض الآخر إنه اكتشف ذات فجر نفسه النبيلة، التي انغمست

طويلًا في دنيا الليل، وحالما لمحت نهارًا رمحت خلفه، رَمْحَ شادِن صغير وراء أمه الغزالة.

ترك بيت الخرُنفِش محزونًا محطَّمًا، يوم جرَّسته هنّومة المفجوعة في ولدها محمد، فأمضى ليلته في مسجد أبو الطيِّب - ولو أني أُرجح مبيته في جامع الأقمر - وتوسَّد ذراعه المثنية حتى مطلع النهار. لا بد أن مَن رأوه تعرفوا فيه ابن الشيخ الأزهري سليل آل البيت، الذي يخرج المحمل كل عام من الفَسَحة المتاخمة لبيته، لا بد أن أحدهم وضع وعاء تمر بجواره وقُلَّة ماء، ووجده لا يتناول منهما شيئًا، فالأشراف لا يطعَمون من مال الصدقة ولو ماتوا جوعًا. حتى مرض ذات ليلة مُقيم شعائر المسجد، فطُلِب من ذلك الزاهد سليل الأشراف أن يرفع الأذان للمنتظرين، فقام من مرقده الذي لم يبرحه لأيام، واستلَّ صوته الذي لم يستخدمه يومًا في غير الدندنة ومحاكاة المطربين، دافعًا الهواء بلطف من معدته الخاوية؛ فكانت لحظة كَشْف.

خرج صوته نقيًّا سلسالًا كأنما يقصد السماء، لا الأرض، يرقى نحو الحُجُب البعيدة، ويقف على الأعتاب سائلًا الدخول. وكانت جماعة من المصلّين قد وصلت لتوِّها عند باب المسجد، وقف أفرادها ينحنون تباعًا ويخلعون أمدِستهم لكي يعبروا عتبته الخشبية، فإذا بأعينهم تُبرِّق وأهدابهم تنفض ما علِق بها من الوسَن، وإذا بهم يتساءلون فيما بينهم لو كان صوت الشيخ علي محمود ما يسمعون؛ أيكون هو مَن يرفع الأذان في مسجدهم المغمور في هذا الفجر المبارك؟ «معقولة؟!»، دهش أحدهم، «هذا لا شك صوته»، فقال آخر: «لا ليس صوته، الشيخ علي محمود لا يمد نهايات الجُمَل»، حتى اجتاز المؤذن أول «حي على الفلاح»، وشرع في الثانية، بالغًا بصوته جواب الجواب، فقال أحدهم: «أقطع ذراعي إن لم يكن هو الشيخ علي محمود!»، فيما كان فاضل في ملكوت آخر؛ ملكوت نوراني تسطع فيه ألف ألف شمس، مقطوع الصلة بعالمه الذي عرفه قبل هذه اللحظة. وجد في البياتي بيته الذي يبتغيه، في الجواب رفعته، في القرار سكينته التي لا تُعكرها شهوة، فانسحبت روحه من غِمدها المهزول، وخرَّ ساقطًا على الأرض.

حسبوه مغشيًّا عليه من شدة الهزال، وربما كانوا على حق، لكنه استمر في غَشيَته يهذي بالأنغام، تلك التي ظل وجدانه يدَّخرها طوال سنواته الفائتة، دون أن يفهم مغزاها ومرماها. لهذا الشأن شُغِف بالنغمات وارتشف النزوات، لهذا أوذي محمد قرَّة عينه، وقست هنّومة حَبة قلبه، لأجل لحظة الكشف هذه، ولأجل خاطر الكنز الذي تكشَّف أمامه حين اشتد البلاء. وصارت عادته التي لم يتركها قط، أن يُهمهم

بالآيات والتراتيل في نومه وصَحْوه، وفيما يجوب المسالك الصخرية في جبل المقطم، مُتنقِّلًا بين مقامات الأولياء، ماضيًا بقية عُمره في ضيافة أهل الله وفي حِماهم، يُرتِّل ويُنشد ويهيم في رحابة عشق لم يجد مثيلًا لحلاوته، حتى أوصى مُريديه بأن يجعلوا له قبرًا بين مقامَي سيدي عمر بن الفارض وسيدي ابن عطاء الله السكندري، تحت سفح جبل المقطم.

رغم ذلك لم تنقطع تمامًا علاقته ببيت الخرُنفِش، بل كان يُطِل على أهل البيت من وقتٍ لآخر، ودون سابق وعد. وكانت أول مرة يظهر فيها بعد جذْبَته بأشهر قليلة، يوم حلَّ موعد المحمل الشريف، وكانت هنّومة واقفة بجوار نعمات في شباكها المطِلِّ على الأرض الفضاء، ترمقان دار كسوة الكعبة وجموع الناس التي راحت تتوافد عليها، فيما تستعيد نعمات أيام أبيها الشيخ محمد، وساعدَيه القويَّين اللذين كان يرفع بهما صناديق الكسوة على أكتاف بنيه، صدقي وكامل وفاضل، وإذا بدموعها تسيل فوق وجنتيها السمراوين، وهي تصف حالها التي صارت عليها بعد موت صدقي ورحيل كامل وسفر نشأت، ثم غياب فاضل أحنّهم جميعًا وأكرمهم إليها، فما كان من هنّومة إلا أن تراجعت بعيدًا عن الشباك، بزعم حاجتها لتحضير الغداء، فقد كانت تكره البكاء

في حضرَة أيًّا مَن كان، وبخاصة نعمات، لكن نعمات لحقتها بشهقة شلَّت ساقيها عن المُضيّ خطوة أخرى، «أنا باين تجنَّنت!»، هتفت نعمات فيما تخبط صدرها وتُبحلق بعينيها في البعيد. «ماذا جرى لكِ يا امرأة؟!»، صاحت هنّومة وقد كادت ساقاها تهويان من الخضَّة، فجذبتها نعمات ودفعت بها لصق الشباك، «يا مثبِّت العقل والدين يا رب، إنس دا ولا جن؟!»، قالت وهي تُشير نحو شيخٍ مُعمَّمٍ بتلفيعةٍ خضراء كبيرة، يتهادى برفق نحو دار الكسوة، ومن خلفه تُحلِّق الرايات وتخفق كما حمائم صحن الجامع الأزهر، «فاضل؟!»، نبسَت هنّومة بيقين هش، تداعى مع أول غمضة عين، بينما انطلقت نعمات تهبط درجات السلم بقدميها الحافيتين، تكاد تنكفئ على وجهها فيما تفرد طرحتها كيفما اتفق فوق فمها المشدوه، «فاضل!»، زعقت وهي تدفع الرجال وتخترق الجَمع، تتبعها أعين الناس مشدوهة مُبرّقة، حتى تعلَّقت بجلباب أخيها وراحت تتطوَّح معه فيما ينشد مغمض العينين: «زِدني بفرط الحب فيكَ تحيُّرا».. ولولا ابتسامته التي احتضنتها وهَدهدَت قلبها، ما كانت تأكَّدت من كونه انتبه لوجودها من الأساس.

عَجَبًا لغزالٍ قتّالٍ عَجَبا
كَمْ بالأفكار وبِقُلوبٍ لَعِبَ
يَخطو بدَلالٍ فيُثيرُ الشُّهُبَ
يالا.. يا لالّي

يخطُر لبالي الموشَّح الرقيق، فيما أقرأ ما دوَّنته أمي في النوتة السوداء عن عمتها زبيدة؛ عن مشيتها ورشاقتها، وجاذبيتها التي لا تُخطئها عين. أُقلِّب في اليوتيوب، أستمع لتسجيلات شتى بأصوات متفاوتة الجودة، أبحث عن النسخة الأصلية التي لا بد وأن يكون قد سجَّلها فؤاد عبد المجيد، لا أجد غير نسخة بصوت عمر فتحي نُسِبَت خطأً للشيخ فؤاد، ولدهشتي، تُحيلني صورة فؤاد عبد المجيد بلِحيته الصغيرة وعينيه الوسنانتين لجدي فاضل؛ أتصوره يصدح بالأبيات بصوتٍ دافئٍ رخيم، يفوق في طلاوته صوت الشيخ فؤاد، بينما يضم بذراعيه ولده الوحيد محمد، وابنة أخيه الجميلة زبيدة، في عُرس مُتخيَّل لم يُكتب له الحدوث.

«كانت قمرًا»، هكذا تصف أمي عمتها زوزو، وتُبالغ في ذِكر محاسنها حتى أشك في دقة كلامها. «كانت جميلة ورقيقة فوق الوصف»، تقول أمي، «تقاطيعها منمنمة، وقوامها رشيق، لا تلبس ما ترتديه نساء عصرها التقليديات، بل تخيط لنفسها ولنا ملابس تُحاكي أحدث موضات باريس». أسأل أمي: «أكانت خياطة ماهرة؟»، فتقول: «جدًّا. كانت تقُص البطرونات من أعداد مجلة ڤوج، وتجمِّعها في دوسيه أسود كبير، ضاع منَّا لما عزَّلنا من بيت الخرُنفِش».

تأخذها بعيدًا نشوة التذكُّر، تُردف بعد قليل: «كانت تصنع لنا العرائس من بقايا الأقمشة؛ تكاد العروسة تنطق بين يديها من جمالها، وتصنع البجع وتكسوه بالقطن الممشَّط، والسمك بجميع أشكاله، وتخيط عليه الترتر على هيئة قشور مُلونة». أقول مُطريًا مهارة أمي: «يبدو أنكِ ورثتِ منها هذه المواهب»، فتقول: «تعلَّمت منها الكثير؛ كانت فنانة»، ثم تختم بقولها: «أيام».، وتعود لسِراجة بنطال قديم ترغب في تقصيره بعرض أصبعين مُتجاورتين.

***

تردَّت كثيرًا حال زبيدة بعد إصابة محمد واختفاء العم فاضل؛ هذان مَن كانا يبُثان الروح في بيت حلوان بعد وفاة أبيها، وبغيابهما وسفر شقيقها الأكبر حسين إلى الصعيد، صار البيت أشبه بمعبد جنائزي تُصفِّر فيه ريح الخواء، خاصة وقد مات

قادر العجوز، فبرغم أن الطبيب البيطري فسَّر امتناعه عن الطعام بقرحة شديدة أصابت معدته، إلا أن الكل ظلَّ يربط بين إضراب الحصان عن الطعام وبين الحزن الصامت الذي خيَّم على البيت.

صارت زبيدة محلَّ إدانة غير مُعلنة من الجميع، حتى من شقيقَيها العطوفين حسين وعلي، كانت تقرأ في العيون اتهامًا صامتًا بأنها وراء ما حدث من تداعيات مؤسفة، الأمر الذي أكدته جراسيا بانقطاعها المفاجئ عن زيارة زبيدة من بعد الحادث. حتى شفاء محمد وتعافيه من ذلك العمى المؤقت، الذي أصابه نتيجة تورُّم في الجمجمة، لم يشفع لزبيدة أمام نظراتهم؛ ظلت عيونهم تقول: مَن غير جراسيا وخالها إفريم سيُدبر شيئًا فظيعًا كهذا؟ ومَن سواكِ سيُفشي لهم سرَّ محمد؟

غير أن المحنة ساهمت في التقريب بينها وبين شقيقها حسن، فما كان لأحد أن يتفهَّم عذاباتها غير فنان مُرهف الحس مثله. حاول أن يُقيلها من عثرة الذنب وسوء البخت، بأن يشجعها على المُضيِّ وراء حُلمها بالنجومية، أو أن يقنعها باستكمال تعليمها في مدرسة الفنون الجميلة، غير أنه اصطدم برفضها الباتِّ فكرة السير خطوة أخرى في طريق الحصول على الشهادات، فقد نالت حظها من الإحباط مع نتيجة التوجيهية وانتهى الأمر. لكنَّ حماسه ظل على حاله ولم يفتر قط، فاستمر يعرض عليها الخيارات التي تتسابق عليها فتيات جيلها المتطلعات نحو مستقبل أكثر انفتاحًا. حتى افتُتح معهد جديد للتدبير المنزلي، فإذا بحسن يُلح عليها بأشد ما يستطيع كي تقدِّم أوراقها،

ويدفعها دفعًا نحو تعلُّم الفنون التطريزية التي لطالما عشقتها على أيدي المعلمات الطليانيات اللاتي استقدموهن خصيصًا لهذا الغرض. «كبرت على العلام يا حسن»، صارت تقول لأخيها، فيُصر قائلًا: «أبدًا.. شكلك أصغر مني». أيقظها من النجمة، وأركبها القطار عنوة من محطة باب اللوق، وهناك أشار بعكّازه لحنطور يجرُّه حصانان، فنزل السائق وسنَّد حسن حتى أجلسه على المقعد، ومضى يعدو بهما حتى ميدان الأزبكية، حيث كان في انتظارهما محمد ابن العم فاضل. ناداه حسن، فأقبل محمد سريعًا وحمله هبوطًا من الحنطور، «تأخرنا عليك؟»، قال حسن ملاطفًا، فقال محمد: «المهم نلحق ميعاد المعهد»، واستوقف سيارة أجرة قطعت بثلاثتهم شارع بولاق الواسع الممتد كأنه بلا نهاية، ولولا أن زبيدة رأت النيل أخيرًا لكانت أحسَّت بأنها سافرت لبلد آخر، ما جعلها تتردد كثيرًا في أمر التحاقها بالمعهد الجديد.

وصلوا قبل موعد انصراف الموظفين بوقت قصير، وساهم تلكؤ زبيدة في المزيد من التأخير، كما مشية حسن البطيئة المتقافزة على العُكاز. وأمام مكتب التقديم، استأذنهما محمد في الذهاب لزيارة مقام سيدي أبو العلا القريب من المعهد، على أن يعود سريعًا قبل أن ينتهيا؛ أغلب الظن أنه كان يسعى فقط للهروب من عيني زبيدة، اللتين لا يستطيع التوقف عن التطلع إليهما كل دقيقة.. المدهش أنه حين عاد إليهما بعد نصف ساعة، وانتظر أمام المعهد نصف ساعة ثانية حتى خرجا، ألفاهما في حال من البهجة الصافية، وبصُحبة شاب نحيف طويل القامة، فائق التهذيب لدرجة المبالغة، وفتاة أصغر قليلًا من زبيدة.

عرَّفهما حسن لابن عمه محمد، فعرض الشاب المهذَّب أن يُقلَّهم جميعًا بسيارته. شكر له محمد عرضه السخي، مُفضلًا الذهاب بمُفرده، ومُتعللًا برغبته في التمشية قليلًا على كورنيش نيل بولاق. قال له الشاب: «حرارة الجو شديدة على التمشية»، ولما وجده مُصممًا على الذهاب نصحه بأن يتمشى على كوبري أبو العلا، وشرع يشرح لهم جميعًا كيف أن الكوبري من تصميم المهندس الفرنسي غوستاف إيفل، الذي صمَّم من قبل برج إيفل الشهير في باريس وتمثال الحرية في نيويورك، فانبهرت زبيدة بمقولته، وطلبت إليه أن يأخذهم لمشاهدة الكوبري على الطبيعة، لكنَّ محمد اعتذر عن الذهاب معهم، وادَّعى أنه شاهد الكوبري عدة مرات من قبل، ولم يكن قد رآه إلا من بعيد، لكنه اشتمَّ رائحة غير مريحة تهبُّ من ناحية الشاب المهذب؛ رائحة استعراض وجهد جهيد لاستمالة زبيدة.

صدق حدسُه بعد مُضيِّ ثلاثة أشهر فقط، فإذا بخبر زبيدة يصله جريًا على لسان إحدى القريبات ممَّن يزُرن أمه هنّومة، فيدمغ أذنيه بشمع لاهب ثقيل. «زبيدة جالها عريس، قيمة وسيما ومركز كبير، مدرّس في الجامعة، ومعه ماجستير في الهندسة من فرنسا، وسيارة فرنساوي لا أعرف كيف ينطقون اسمها، أخته زميلة زبيدة بالمعهد، سيكتُب عليها بعد العيد مباشرة، وتنتقل للسكن في عمارة أهله في شارع بولاق، عمارة كبيرة يجي عشرة أدوار، فيكون المعهد قريبًا منها تروح بالسيارة وترجع بالسيارة، فهو مصمم على استكمالها الدراسة، قال ستدرس التطريز قال! حتى التطريز صار له شهادات».

ظل يتنصَّت على الحديث، يضُم ضلوعه بقوة ساعديه حتى يهصر قلبه، يزم فكيه عن البوح والبكاء. وكان ميالًا حتى قبل ورود الخبر لترك وظيفته، والاستجابة لطلب عمَّته نعمات بأن ينضم إليها ويعمل في الأرض، وبسماع الخبر أيقن تمامًا

بحتمية السفر للبلدة البعيدة، بل والإقامة فيها بصفة نهائية، فما كان ليحضر زفاف زبيدة ولو على رقبته. فيما حضر جميع مَن في البلدة صباح يوم الزفاف، ونزلوا ضيوفًا على بيت الخرُنفِش، فأقامت لهم هنّومة المأدبة التي كانت واجبة على خديجة صاحبة الفرح، وقالت: «ما يجراش حاجة نحن أهل»، فردَّت عليها نعمات: «ياختي تعيشي وتجاملي»، فيما سألتها هنّومة عن ولدها محمد: لِمَ لم يجئ بصحبة عمَّته لحضور الفرح؟، فقالت نعمات إنه يتحمَّل وحده همَّ الأرض والإشراف على العمل، وثمة مشاكل في نوبات الري بين أصحاب الأراضي لا تنتهي، ولولا خشيته من أن يترك الأرض أيامًا بلا متابعة، فيعطش المحصول أو تأكله الآفات، لكان قد جاء يا حبة عين أمه. فهمت هنّومة أن ابنها العنيد قد رفض المجيء، وأن
عمته تداري عليه كالمعتاد، فبالغت في إكرام ضيوف الفرح إعلانًا لفرحتها، وحملت معها قطعتين ثقيلتين من مَصاغها لنُقطة زبيدة، وقالت تُصبِّر نفسها فيما تزِن القطعتين بكفِّها البضة الحساسة: «قيمة الشيخ فاضل الله يرجعه بالسلامة».

وكذلك سأل حسين في المساء: أين محمد؟، وسأل علي، وخديجة، وكثيرون آخرون شغلهم غياب محمد، كيف لا يحضر فرح بنت عمه عوضًا عن أبيه المجذوب؟ فصارت نعمات تذود عنه أمام كل سائل، وظلت تنتظر أن تسأل العروسة ولو من بعيد، إذ ربما يسألها محمد حين تعود للبلدة عمَّا كان من أمر زبيدة الجميلة القاسية، وطال انتظارها سؤالًا من زبيدة دون فائدة، فتركت الفرح..

وفيما تتأهب للسفر صباح اليوم التالي وتودع أهل البيت بعد الفطور، مالت على روحية بنت أخيها مختار، وكان خرّاط البنات قد مرَّ عليها رواحًا وجيئة حتى اكتفت بعطاياه، همست في أذنها: «سأستنظركِ في البلد بعد شهر، تجيئين مع أمكِ البِرّاوية هذه، وتشوفين أباكِ الله لا يسامحه، سامعة؟»، فقالت روحية: «سامعة يا عمتي»، فأردفت نعمات: «هاتي معكِ ملابس كثيرة، أكثر ممَّا دخلت به زبيدة على عريسها المهندس. أريدكِ أجمل عروسة عرفتها العائلة، لأجمل عريس».

موعد سفري المزمع يقترب. أسمع دبيب أقدام المسافرين المستعجلين بدءًا من الآن، وأشعر بصوتي يتبخر في فضاء صالة المطار، فلا يسترعي انتباه أحد.

أتلكأ يومًا بعد يوم في حجز تذكرة الطيران. الخيارات بلا حدود على موقع سكاي سكانِر. صالات الترانزيت متناثرة فوق خريطة العالم؛ ستؤويني إحداها لساعات ثم تقذف بي كبصقة في الهواء. أكره السفر وحيدًا.. أكرهه حقيقةً. أخشى الوحدة كخشيتي الموت، ليست صورة مُصغرة للموت، بل إنها الموت في أسوأ حالاته. أتذكر بلا سبب مقبرة العائلة، وحالة الهدوء التي كان عليها أبي يوم ذهبنا هناك، الأطفال المبصوقين من باطن الأرض والنوافذ المشرَعة، أشعر بالضياع فوق ما يشعرون به، إذ يمكنهم العودة مُغمَضي الأعين من حيث جاؤوا، أما أنا...

أجمل ما في تذكرة السفر أنها تحمل وعدًا بالعودة، ترسم الرحلة أمامكَ ذهابًا وإيابًا من وإلى المطار نفسه، إلى الصالة نفسها وعبر الباب نفسه. تُخبركَ فيما بين السطور بأنْ ليس عليكَ أن تخشى شيئًا، سنُعيدكَ ثانيةً لنقطة البداية، ستجد مَن ينتظركَ خارج الباب، ليس ثمَّة ما يُقلقك؛ قذفة هنا وقذفة هناك، بعض الشَّقلبة في الهواء، والطنين في الأذن، القهوة الفاترة المسكوبة وكوب الشاي البلاستيكي نصف المملوء، الحقائب والطوابير، الأسئلة والنظرات القلقة والكاميرات المسلَّطة، وعفوًا.. كرر الاسم، هل معك كذا وكذا؟ اخلع حزامك، اخلع اسمك، اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس كذا...

ينصحني شريكي بأن أقطع التذكرة ذهابًا وعودة.. «أرخص كثيرًا»، يقول لي، فيما ارتكب هو الخطأ الفادح يوم قرر الهجرة، فحجز تذكرة ذهاب لسيدني دون عودة؛ كان غير عازم على الرجوع في البداية، لكنه اضطر بعد ذلك لأن يحجز تذكرة «سيدني- القاهرة- سيدني»، الأغلى ثمنًا بنحو ألف دولار من الخط العكسي: «القاهرة- سيدني- القاهرة». «أنا تعلَّمت بفلوس، وأنت تأخذ المعلومة على الجاهز»، يقول ضاحكًا، ثم يُنهي المكالمة: «ستُوفَّق بإذن الله».

وما يُدريني إن كنت سأُوفق أو لا أُوفق، أو إن كان التوفيق في قدرتي على الذهاب أم في استطاعتي العودة.. صرت لا أعرف شيئًا على الإطلاق. أختار أخيرًا طيران الإمارات - رغم وجود رحلات أقل سعرًا - حتى تكون صالة الترانزيت في مطار دبي القريب نسبيًّا من القاهرة، إذ ربما أجبُن سريعًا عن إتمام الرحلة، فتكون العودة أيسر قليلًا.

***

أيام البلدة مكرورة مُكررة؛ ليلها كنهارها، كما يُعيد ويزيد شيخ مسجدها الطيب السمين في خُطب الجمعة والأعياد. لم تعرف البلدة الكهرباء حتى آخر عهد طفولتي، ولم يصلها إرسال التلفزيون فيما بعد إلا مُقطَّعًا ومُشوشًا لدرجة تدفع الناس للنوم المبكر والاستيقاظ قبل حلول الفجر، فما بال عيشة البلدة على عهد نعمات، الذي لم يشهده حتى أبي! حتمًا كانت نائية كجزيرة معزولة؛ يوقظها النهار فتقوم مُنتشية، ويُطبق عليها الليل فتنام مُرغمة. يُحيطها المصرَف من جهة، والطريق الترابي المقوس وغير الممهَّد من باقي الجهات، كما لو أن الطبيعة قررت حمايتها من أي اختراق.

كان جدي محمد أول مَن أظهر بقعة الأرض هذه على خريطة العالم المعلوم، وذلك بأن مهَّد الطريق المُفضي إليها وبنى مسجدها ذا المئذنة العالية عند مدخلها، فجعلها تُشير للعالم بأصبع طويلة كأنما تقول: أنا هنا.. ثم اشترى سيارة ابن عمه الطبيب أحمد ابن الأمير الاي نشأت، وجعلها في خدمة أهل البلدة والبلاد المحيطة، فارتقت البلدة بهذه الحركة الملعوبة لمصاف الكفور والقرى الكبيرة، وكان سيفوز حتمًا لو أنه ترشح لمجلس النواب كما كان يخطط، لولا وقفة أولاد عمومته صفًّا واحدًا أمام اتخاذه هذه الخطوة بالتحديد، حينما استشعروا طموحه الذي لا يحُده شيء، فقالوا علينا وعلى أعدائنا أن تصل الأمور لهذا الحد.

ظل جدي لسنوات يروح ويجيء على بلدة نعمات، بدافع الترفيه والتعرُّف على الأجواء، وما إن قرر البقاء حتى تحولت حياته وحياة المحيطين به. لم يكن قد بلغ الخامسة والعشرين آنذاك، مع ذلك كان في نظر الجميع لائقًا تمامًا للجاه والقيادة، خاصة وأنه قريب الشبه بدرجة تثير الدهشة بالملك الجديد، الأصغر منه بسبع سنوات، والذي اشترت نعمات صورتين له مُبروَزتين بإطار مُذهَّب من أستوديو الخواجة أرتنيان، علَّقت إحداهما في «منضرة» بيت البلدة، والأخرى فوق جذع نخلةٍ تتوسط تعريشة الكُتاب، وصارت تهُشُّ فرحًا لمَن تَذْكر أمامها اندهاشها الشديد من الشبه بين جلالة الملك الصغير وسِيي محمد بن فاضل، وتُقرّبها وتُغدق عليها، فقد كان لها محمد بمثابة ابنٍ حملته في قلبها عوضًا عن رحِمِها العاطل؛ كانت ترى فيه محمد السابع الموعود بالكنز، والذي ستنبُت تحت قدميه المعجزات. وكانت ترجو منه الذرية التي ستمد البلدة بعصب الحياة، فبغير خلفة الذكور لن يتجذَّر فرع

العائلة في الأرض البعيدة. وكم أحزنها شقيقها مختار حين آثر الشقاق، لكن الأمل ظل معقودًا على محمد بن فاضل، ثم روحية بنت مختار.

«روحية تُناسبك»، هكذا أخبرت محمد يوم عادت من فرح زبيدة، فقال: «لا أرى فيها إلا أختًا»، فقالت: «هي لحمكَ ودمكَ، وما شافَت يومًا حلوًا مع أبيها غليظ القلب، ولن تشوف في الدنيا سواك». وكان في أمسِّ الحاجة لمَن تمحو طيف زبيدة من مُخيِّلته، لكنْ أين تروح روحية الممصوصة ابنة السابعة عشرة من زبيدة الشهية المغوِية؟! بينما قالت له نعمات: «البت فايرة من يومها، لو مسَّ الفرح قلبها ستطيب كالثمرة وتطلب القِطاف.. بكرة تشوف».

ازداد اقتناعًا بحلاوة روحية، لمّا صار يُلاحظها من تحت لتحت، وأحسَّ بميلٍ يتنامى بداخله لإتمام الزيجة، تأكد حين عاين بأم عينه رغبة عمه مختار في بعْزَقة الشمل وتقسيم الأرض. تصدى له ذات يوم بأن قال: «لا تؤاخذني يا عمي، نصيبك في الأرض على المشاع»، وكان قد توصَّل لحل يُفلِت عمته نعمات من ذلك المزنق الذي وضعت نفسها فيه بحُسن نِيَّتها، حين وعدت شقيقها مختار بربع مساحة الأبعدية التي خصَّها بها أبوهما الشيخ، حيث سألها محمد: «هل وعدتيه بغيطٍ بعينه؟»، فقالت: «لا، قلت فقط ربع الأرض»، فقال: «إذًا له الربع على المشاع، وتبقى الأرض حتَّة واحدة»، فلاحت الدهشة في وجه نعمات وقالت: «عليك نور يا محمد بيه!» طفق يضحك ويقول: «بيه مرة واحدة؟!»، فقالت: «بيه وسيد البهوات».

لكنْ ما إن سمِع عمه مختار تفسيره ذاك لوَعْد نعمات، حتى هبَّ والشرر يطق من عينيه، ممسكًا بخناقه وهادرًا بصوته: «ما بقي غيرك أنت يا أعور يتكلم معي!»، وهبط بكفه على صدغ ابن أخيه الأبيض اللحيم، تاركًا علامة كفٍّ حمراء دامية فوق كرامة الشاب اليافع، لكنه لم يجفل ولم يطرف له رمش ولا نطق لسان، بل وقف كزًّا على أسنانه طامرًا مهانته عميقًا في نفسه، عازمًا أن يرُد صاع الإهانة صاعين أو يزيد.

بدأ بأن طلب يد روحية، فظنها عمُّه بادرة صُلح ستعيد الأمور لنصابها الصحيح، خاصةً حين اختار محمد الإقامة مع عروسه في بيت الخرُنفِش، لكي يظل قريبًا من أمه هنّومة التي أعياها الروماتويد وأوقد الجمْر في مفاصلها، فصار يقضي أسبوعًا واحدًا في البلدة وأسبوعين في القاهرة، ما أوهم العم مختار بأن اهتمام الولد بالأرض آخذ في التراجع مع انشغاله بالزواج، فاطمأن لاستعادة الزمام مشدودًا في قبضته، وصنع لنفسه ظليلةً واسعة يحسو فيها الشاي الحبر المغلي بأصخب صوت يلذُّ له.

أما محمد، فشرع يُنفذ خطة أبعد كثيرًا من تصوُّرات العم، وكان قد تعرف إلى أخوال روحية البحاروة الأثرياء خلال زياراتهم المتكررة للست جمالات في بيت الخرُنفِش، وكان يُجالسهم في كل مرة بوصفه رجل البيت الوحيد، وكانوا يرتاحون كثيرًا إليه ويطربون لسماع لهجته القاهرية المشدودة، ويُكثرون السؤال على أبيه قُطب الصوفية المبارك، ويطلبون لقاءه والتبرُّك بمصافحته ولو لمرة وحيدة.

استشف منهم محمد خبرةً لا مزيد عليها في زراعة الأرز، وتعرَّف معاناتهم مع التربة السائبة التي تخلخلت من كثرة الغمر بالمياه، كما اندهش لارتفاع سعر الأرض في زمامهم فوق سقف المعقول، فقرر أن يعرض عليهم شراكةً تصُب في صالح الجميع، بأن يبيعوا شطرًا من أرضهم باهظة الثمن ويشتروا أضعافه في زمام أرض نعمات، فيفوزوا بأرض رخيصة خصبة ذات قوام مُتماسك تجود فيها زراعة الأرز. تأمَّل كبيرهم هذه الفكرة

الطموح، وارتأى فيها خيرًا وفيرًا قد يدفع به لمصاف أصحاب الأبعديات، فقال لمحمد: «تكفينا بَركة الشيخ فاضل ومجاورة الأشراف».

لكن محمد اشترط عليهم ألا يعرف العم مختار بأي شيء، حتى تتم البيعة وتستقر أمور الوسية، مُضفيًا على الشرط بُعدًا إنسانيًّا مسَّ منهم موضع الوجيعة بالتحديد، حيث قال: «يكفي ما عمله عمي مختار الله يسامحه في الست جمالات وابنتيها وهن لحمنا ولحمكم.. قد يظن فيكم نية انتقام أو تشفٍّ لا سمح الله». فثمَّنوا كلامه وامتدحوا بُعد نظره، وقرأوا الفاتحة على إتمام ما اتفقوا عليه في سريَّة تامة، وشدَّ كبيرهم يد محمد يُريد تقبيلها فيما يُصافحه، فاجتذبها بسرعة قبل أن يطالها الرجل، وقال: «لا سمح الله يا حاج سلموني»، فباس الرجل كتفه قائلًا: «دعني أُقبِّل اليد التي ستحل عليها البركة عن قريب».

خمس سنوات قضاها حسين في الصعيد، جعلته يُسلِّم بأن عينًا بصَّاصة لا تعرف الصلاة على النبي قد أصابت بيت صدقي، فلم تُفلت فردًا من أفراده إلا وأردته، بدءًا من أبيه صدقي الذي مات بطلقة رمَّلت زوجته ويتَّمت أبناءه، ثم حسن وإعاقته، وزبيدة وخيبة أملها، وعلي وفشله في اجتياز أولى سنوات التجارة العليا ثلاث مرات، جعلته يتحوَّل لتجارةٍ دُنيا تُعافر الصعاب في ميناء الإسكندرية، وختامًا بنفيه هو شخصيًّا لخمس سنوات يبَّست عوده في مدينة سوهاج، تلك الأشبه بقرية مُتمدِّنة قليلًا يُمكنه السير من أقصاها لأقصاها في نحو ربع ساعة أو أقل.

تعلَّم المشي البطيء تزجيةً للوقت، والطبخ على أحنى لهيبٍ يمكن للوابور أن ينفثه، كما تعوَّد اختلاق المهام التي لا معنى لها، ودرَّب نفسه على القراءة لفترات أخذت تتمدد مع توالي السنوات حتى أضحت أشبه بالإدمان. وكان إدمانه القراءة سببًا في التحول الذي طرأ في مسار حياته، بعد سنوات من إنهاء انتدابه في مدينة سوهاج. فقد باعت أمه الست خديجة على امتداد الأعوام بيتين من بيوت حلوان السبعة، كما أجَّرت بيتين آخرين حتى تصرف من سَعَة على أبنائها فلا تُشعرهم باليُتم والعوز، كما حاولت التفريج عن بِكرها حسين حين بلغ به الضجر مداه من عمله في نظارة المعارف في القاهرة، فمنحته سيارة أبيه الفورد السوداء التي أكلها الصدأ، ففرح بها وانشغل لفترةٍ في إعادتها لسابق عهدها.

ثم حدث أن ذكر أمامه حمو زبيدة في أول زيارة لأهل العروسة - وكان الرجل يعمل مديرًا لإدارة التشغيل في المطابع الأميرية - أن مطبعة بولاق تبيع ماكينات الطباعة الكُهنة عن طريق المزاد، وأن الماكينات التي تدور بالدواسات أو تعمل بالبخار تُباع اليوم برُخص التراب، فهذا زمن الكهرباء ولا شيء غير الكهرباء، فطلب إليه حسين أن يصحبه لمعاينة الماكينات الأمريكية التي يُبالغ في وصف فرادتها، وانتظره الرجل نهار اليوم التالي في مكتبه بالمطابع الأميرية، وضيَّفه بألذ قهوة ذاقها في حياته، ثم اصطحبه في جولة في ورش الطباعة والجمع والتقطيع والتجليد، اختتمها بمعاينة الماكينات المعروضة للبيع في المزاد التالي.

وقف حسين يتأمل الماكينات، يضغط بقدمه الدواسات ويتحسس الدواليب الدوارة والأحرف الحديدية المنمنمة، يتشمم رائحة الحبر الذي يعاند الزمن، ويأبى إلا أن يتحوَّل لنقشٍ خالدٍ بين دفات الكتب، وقرر أثناء وقفته هذه أن يغامر بما حصل عليه

من أملاك المرحوم أبيه، كي يحُلَّ نفسه من قيد الوظيفة والروتين، ويُحوِّل شغفه النامي بالكتب والمطبوعات لعمل يجد فيه أسباب سعادته.

باع السيارة الفورد، واستأجر بدرومًا مُضاءً بالكهرباء أسفل بناية في باب اللوق، حتى قبل حلول يوم المزاد، حيث كان قد قرر افتتاح مطبعته الخاصة مهما بلغ الثمن، وذهب مُتأنقًا في الموعد المضروب وزايد أولئك القليلين الذين حضروا المزاد، حتى حصل على ماكينة ماركة تشاندلر آند برايس موديل سنة ١٩١١، وطاولتَي تقطيع نال إحداهما دون مقابل لكونها في حالة سيئة، وماكينة خياطة للكتب لا بأس بها تحتاج لحامًا هيِّنًا لرِجلها المكسورة. كما بالغ حمو زبيدة في إكرامه، فأمر سائقي عربات المطبعة الأميرية بنقل الماكينتين والطاولتين لمطبعة حسين أفندي في باب اللوق، واستهلَّ معه إنتاج المطبعة بطلبية مظاريف، مطبوع عليها اسم العروسين، تحوي دعوات ليلة الزفاف التي سيقوم بتوزيعها على مدعُوّيه.

وهكذا فقأ حسين عين الحسود التي نغَّصت حياته وحياة أسرته طوال سنوات، وشرع يمارس اللعبة التي لطالما استهوته وسلبت لُبه: لعبة صيانة الماكينات. صار يُفكك الصواميل وينتزع البراغي والمسامير ليحلَّ أجزاء الماكينة العجوز، ثم يُعالج قشرة الصدأ بحمض الهيدروكلوريك ويشرع في الصنفرة والدهان، ومن ثَم يُعيد تجميع الأجزاء والتقريط على الصواميل. استهلك منه هذا العمل ثلاثة أيام وقُفازين، حتى صار مع نهاية الأسبوع جاهزًا لتجربة الماكينة، لكنه لم يقُم بتجربتها فور انتهائه كما كان ينتوي، بل وجد في نفسه الرغبة في التهيؤ لهذه اللحظة الفارقة، بالاستحمام والتأنق ودعوة المقربين كأنها حفل افتتاح، لذلك أجَّل التجربة لما بعد صلاة الجمعة في اليوم التالي.

ولحُسن حظه، كانت شلة الفتيان حاضرةً بكامل هيئتها في القاهرة؛ علي في إجازة من عمله في الإسكندرية، ومحمد في الخرُنفِش. مرَّ على محمد قبل ركوب آخر قطار متَّجه لحلوان، وتواعدا على اللقاء بعد صلاة الجمعة أمام بناية باب اللوق. وكذلك أكد على شقيقه علي ألا ينام حتى العصر ،كما كان يفعل في أيام الإجازة، ويا حبذا لو صلّى الجمعة لأول مرة منذ وفاة أبيه الحكمدار، ولم ينسَ التنبيه عليه بأن يضع حذاءه الفخم أمامه أثناء الصلاة، غامزًا بقوله: «حرامي الجِزَم لن يعتق جزمتكَ الأجلاسيه الأنيقة دي».

فاجأ حسين شلة الفتيان باصطحاب حسن كي يشهد الافتتاح، وقال فيما يضُم شقيقه لحضنه: «يصح أن أخي حسن يبقى ذراعي اليمين»، ثم ناول حسن نسخةً من مفتاح

القفل الخارجي، ودعاه لافتتاح المطبعة. وقاموا معًا بتسنيده حتى أجلسوه حيث أشار حسين، على المقعد المجاور لماكينة الطباعة.

ارتدى حسين مريلة الشغل فوق سترته الأنيقة، وتناول إطارًا خشبيًّا مُفرغًا، وبدأ يرُص بداخله قطع الحروف الحديدية، مُشكِّلًا أول عبارة يقوم بطباعتها: صدقي بيك الحكمدار، ثم ملأ الفراغات المحيطة بها بالقطع الصماء والشدادات، حتى صار الإطار جاهزًا للتثبيت بداخل الماكينة. ناول الإطار لحسن، وشرع يسكُب القليل من الحبر الثخين فوق سطح المحبرة المستديرة، ويكبس بقدمه بانتظامٍ دواسة الماكينة، فتتحرك أسطوانات توزيع الحبر صعودًا وهبوطًا وتصنع طبقة متساوية من الحبر فوق السطح الدائري. عندها استعاد حسين الإطار الخشبي وأخذ يُثبته كما رآهم يصنعون في المطابع الأميرية. ارتجفَت أصابعه حين بدأ يُلقِم الماكينة أول ورقة تطعمها منذ سنوات، دافعًا دواسة الماكينة بقدم مُترددة أول الأمر، ثم بإيقاع منتظم لدورة، لدورتين، ثم ها هي الورقة التي سحبها تحمل اسم أبيه الحكمدار.

تناقلوا الورقة بينهم باندهاش، وراحوا يُعاينون الماكينات والطاولات ويتبارون في ابتكار العبارات ورصِّ الكلمات في الإطار الخشبي لطباعتها، طبعوا حتى السباب والأغنيات الخليعة، وهم يتضاحكون ويوزعون الأوراق في جنبات المطبعة، حتى صفَّق حسين بكفيه الجافتين الملطختين ببقايا الحبر، واستدعاهم للذهاب: «عازِمكم على الغَدا يا حَوَش، بمناسبة افتتاح مطبعة الحكمدار»، صفَّق محمد وهتف علي: «يعيش حسين أفندي نصير الجوعانين»، فتبعوه بالهتاف: «يعيش يعيش يعيش».. وفيما يخرجون من المطبعة، طلب حسين من ابن عمه محمد أن يقترح مكانًا للغداء، فقال الأخير: «ناكل نيفة عند الحاج علي الدهّان في الحسين»، فاستحسنوا اختياره، وسطروا انتصارًا جديدًا وذكرى خالدة لشلة الفتيان.

وبعد مرور أيام، قطع حسين الطريق مشيًا من نظارة المعارف لمطبعة الحكمدار، كما صار يفعل كل يوم بعد انقضاء دوامه، وكان قد نزل على رغبة أمه خديجة في عدم التعجل بتقديم استقالته، غير أنه وجد القفل محلولًا والباب مواربًا، وألفى أخاه حسن جالسًا إلى ماكينة الطباعة، موليًا ظهره لباب المطبعة نصف المفتوح، فيما يهتز ببطء كأنه في حلقة ذِكر، وبهدوء يُلقِّم الماكينة الورق بإيقاع منتظم. غشِيتْه الحيرة ممَّا يراه، فدولاب الماكينة الذي يدور أمامه بانضباط ساعة سويسرية، لا يُدار بغير دواسة القدم، والدواسة تحتاج قدمًا سليمة تدفعها بانتظام، كما أن العكاز

المسنود إلى الجدار بجوار شقيقه يُذكِّر الرائي بعجز صاحبه، فكيف يُدوّر هذا القرد المسمّى حسن دولاب الماكينة؟!

تقدَّم خطوات نحو الماكينة، واستولت عليه الدهشة إذ لمح العكاز الآخر مشدودًا بين دواسة الماكينة وذقن أخيه حسن؛ كانت الدواسة تعلو وتهبط بانتظام، مُستجيبةً لحركة الذقن المتكئة فوق مقبض العكاز، ما جعل حسين يصيح بابتهاج: «عملتها يا عفريت!»، ويُفزع حسن لدرجة سقوط العكاز تحت قدميه، بل إنه كاد يهوي لولا أن احتضنه أخوه حسين ولم يُفلته.

وهكذا انبرى حسين يُعلِّم حسن صناعة الكتب خطوة بخطوة، وما عادت تُدهشه سرعة إتقان أخيه الصغير التجميع والتقطيع، ولا مهارته الفذة في ضبط ماكينة خياطة الورق ولصق الأغلفة، فما عاينه في ذلك اليوم كافٍ لإقناعه بفطنة حسن وموهبته. كما ارتاح لكونه سيشغل أخاه بعمل نافع، عوضًا عن تزجيته الوقت في أشغال النساء والعزف على الكمان، دون أن يفطن لكونه يدفع حسن لحافة الخطر، ويطبع فوق جبينه اللامع بعرق الشغل وصمة عارٍ ستلتصق به وتُعجِّل بنهايته.

تفرَّق شمل شلة الفتيان من جديد بعد افتتاح المطبعة، فقد عاد علي مساء نفس اليوم إلى الإسكندرية، ومحمد بعد أيام إلى البلدة، بعد أن ساقت إليه الصدفة خبر زبيدة فاشتاط غضبًا على صاحبيه. فيما استمر حسين يُذيب نعاله بين نظارة المعارف صباحًا والمطبعة مساءً والعودة ليلًا لحلوان.

دخلت السبعة بيوت المتجاورة في أرض حلوان - التي صارت ثلاثة خلال تلك الفترة - طَورًا جديدًا مع هذه الأيام السعيدة، فقد تحوَّلت جميع طاقاتها صوب التهيؤ لزواج زبيدة؛ فمطبعة حسين تُعِد الدعوات الملونة، التي ينقشها حسن ويصنع حروف طباعتها من خشب الزان، وتجارة علي في الإسكندرية تجيء بأفضل أطقم السفرة المطلية بالفضة وكاسات الكريستال البوهيمية والصابون المعطر، والباحة الخلفية التي خلت منذ سنوات من روث قادر وصهيله الحزين، تعود لسابق عهدها في حياة صدقي وتتزين لاستقبال عقد القران. زهَت حياة العائلة بألوان البهجة ولَمِّ الشمل، ولولا غياب محمد والخروم التي ثقبت ميزانية الزواج في أكثر من موضع، لكان حسين أسعد البشر ليلة الزفاف.

أما زبيدة، فلم يكن ثوب السعادة الفضفاض ليسع ابتهاجها في تلك الليلة ولا الليالي الكثيرة التالية، فالسَّعْد وعْد كما أخبرتها أمها خديجة، ويبدو أن الحياة وعدتها بفرحة آجلة قليلًا، حتى تحتفظ لها بأكبر نصيب منها. تزامن زواجها من شاهر مع بدء دراستها في المعهد العالي للتدبير المنزلي، ما قلب حياتها رأسًا على عقب، وجعلها تُسقط من ذاكرتها سبع سنوات من التيه قضتها بين غرفتها وصالة البيت والباحة الخلفية، بلا دليل يُنير طريق مستقبلها. عاشت معه تسعة أيام من العسل المصفى بدلًا من الشهر المعتاد، صمم شاهر أن يقضياها في منزله الصغير ذي الطابقين في حي مصر الجديدة؛ كان ذا طابع عملي ومهارة فريدة في التخطيط: لا حاجة للسفر إلى الإسكندرية أو رأس البر، فثمة مباهج في مصر الجديدة غير موجودة في أي مكان آخر، هكذا أخبرها. ورغم انتقالهما بعد ذلك لعمارة أبيه في شارع بولاق، بحيث تكون زبيدة قريبة من المعهد فلا تجهد في الرواح والمجيء، ظل شاهر متمسكًا بقضاء عطلة نهاية كل أسبوع في مصر الجديدة، حيث أماكن الترفيه التي لا يفتأ يُدهِش بها زبيدة كل حين، بدايةً من مدينة غرناطة الترفيهية، التي كان ضيفًا ثابتًا على مدرَّجها المظلل بالأرابيسك، والذي يُطِل على مضمار سباق الخيل، ومرورًا بملاهي لونا بارك التي تدرَّبت فيها زبيدة على التزلُّج والتزحلُق في المياه،

فيما فشل شاهر تمامًا في إقناعها بركوب القطار المنزلج، وليس انتهاءً بسينما رويال التي ارتادا فيها أكثر الأفلام في عرضها الأول.

كثيرًا ما كانت زبيدة تتشكك في صلابة واقعها، فمثل هذه الحياة الممددة فوق وسائد من ريش النعام، لم تبدُ لها واقعية بما يكفي، فمن غير المعقول أن يجد البشر السعادة بمثل هذه البساطة في عالمٍ مغموس في البؤس، مفتون بالقتال والتنافس البغيض، خاصة وأن السعادة جاءتها على الطبطاب دون أدنى معاناة. كل شيء مبهج وممتع في حضرة حبيبها شاهر؛ حتى خيل السباق وعضلاتها النافرة وأنفاسها اللاهبة، حتى تزاحُم الناس على تذاكر المراهنات، وتصايُحهم في المدرجات ولعناتهم عند نهاية السباق، بدت جميعها أشبه بمباهج العيد وألعاب الاحتفالات، كأنها فقرات صاخبة في يوم كرنڤال.

كان شاهر من هواة المراهنات، يفهم في الجياد ويقرأ طالعها من خَلْجها واضطرابها قبل السباق، وكثيرًا ما كان يكسب الرهان بحدسه الذي صقلته الخبرة والمثابرة على الحضور، لكنه منذ تزوَّج زبيدة صار يحتفي بحدسها أولًا، يسألها أيَّ اسم تختار، ويُراهن عليه بصدر مفتوح، «أنا لا أفهم في الخيل.. سنخسر بالتأكيد!»، هكذا قالت في أول مرة يصطحبها معه، فأدهشها ردُّه: «يا ليت نخسر»، قالت: «معقول تريد الخسارة؟!»، فأجاب: «لو كسبت، سيكون المكسب من نصيبكِ أنتِ، لكنْ لو خسرت، سيكون عليكِ مواساتي طوال الليل.. وأنا أُفضِّل الثانية»، فوارت فمها وكتمت ضحكةً كادت تندُّ عنها.

وكان مُغرمًا أيضًا بعبد الوهاب، ذلك المطرب الشاب الذي يُماثله في العمر والقوام والهيئة الأنيقة، وكان يتتبَّع أغنياته في الإذاعة وأفلامه في السينما، وابتهج بجنون حين أُعلِن عن فيلم جديد من بطولته بعد أشهر قليلة من زواجه بزبيدة، بل وابتاع لها معطفًا طويلًا من الفرو حين سمع بحضور عبد الوهاب أول عرض للفيلم في سينما رويال بمصر الجديدة، فبَرْد يناير ينخر العظام كالرصاص، ولم يكن ليُفوّت فرصة لقاء نجمه المحبوب، ولو استدعى ذلك انتظاره طوال الليل خارج السينما. وقد كرر الحظ فصله البائخ معه كما في سباق الخيل، فلم يواته بسطوع نجمه المفضل طيلة ساعات، وقيل إنه خرج من باب جانبي واستقل الأوتوموبيل سريعًا خشية التقاط دور برد، لكنه استمر يحضر الحفلات تباعًا طوال أسبوع مُستبشرًا بوجه زبيدة، حتى حفظا مشاهد الفيلم وأغانيه عن ظهر قلب، وصارت محور حديثهما لشهور تالية. تأتيه بالشاي مع طبق البسكويت بعد الغداء، فيُبادرها مُحاكيًا

مشهد الفيلم: «ألم ألفت نظركِ يا آنسة أن الشاي يحوي مادة التايين، وأن التايين سامٌّ مثل الكافيين في القهوة، ألا تتعظين أبدًا؟!»، وما إن تضع الصينية حتى يقول: «لا بأس من شُرب الشاي السام، لكن مع الكثير جدًّا من السكر»، ويُقبِّل أصابعها التي تضع قوالب السكر أصبعًا فأصبعًا، حتى يسحبها لتجلس إلى جواره مُدندنًا بصوته الأجش: «يادي النعيم اللي انت فيه يا قلبي».

وبفضل نظامه الدقيق، أمكن لشاهر أن يضمن لزبيدة سعادة تتجدد باستمرار بجانب تفوقه الوظيفي، وكان قد عمل بعد رجوعه من فرنسا - حاملًا درجة الماجستير في الهندسة المعمارية - مهندسًا ورسَّامًا هندسيًّا في شركة واحات هليوبوليس التي أنشأها البارون إدوارد إمبان، والتي قامت ببناء مصر الجديدة وربْطها بقلب القاهرة بشبكة الترام الكهربائي، واستطاع من خلال عمله عشر سنوات في الشركة أن يحصل على المنزل ذي الطابقين، في المساكن المخصصة للمهندسين قُرب كنيسة البازيليك. حتى حدثت الطفرة التي كانت سببًا فيما آلت إليه حياته، وذلك حينما اختاره أستاذه السابق في مدرسة المهندسخانة، للتدريس في الكلية الجديدة التي تولّى إنشاءها مع عدد من أكبر الأساتذة، وبدافع من تشجيع والدَيه وميله الطبيعي للمهام الصعبة، قرر اغتنام الفرصة وتقديم استقالته من شركة واحات هليوبولس، لكي يتمَّ تعيينه أستاذًا مساعدًا في كلية الهندسة في جامعة فؤاد الأول.

كان ذلك قبل لقائه بزبيدة بنحو عام، ما جعله يشعر حين التقاها بأن الحياة تكافئه على اجتهاده واستقامته طوال سنوات، في صورة مركز مرموق وزوجة لا مثيل لجمالها وحسَبها ونسَبها. وكانت أمه تُشفق عليه من رواحه ومجيئه أربع مرات في الأسبوع بين الجيزة ومصر الجديدة، وكثيرًا ما توسَّلت إليه حتى يغلق المنزل الذي يقيم فيه بمفرده، ويسكن معهم في عمارة بولاق، فيختصر على نفسه نصف المشوار أو أكثر. لكنه كان مُرتاحًا للإقامة بمفرده مثلما اعتاد منذ سنوات الدراسة في فرنسا، فظل يعِدُها بالبحث عن مسكن مناسب في الزمالك، ليكون قريبًا منها ومن الجامعة. ثم ألغى تمامًا فكرة ترْك مسكنه يوم تزوَّج زبيدة، فلم يكن مُستعدًّا لخسارة ما تَعِده به مصر الجديدة من أيام مرِحة وذكريات لا تُفوَّت مع عروسه الفاتنة. ولم يُرِد إغاظة أمه، لذلك استمر يبيت في عمارة بولاق كلما توافَق ذلك مع راحة زبيدة، حتى تذهب إلى المعهد بصُحبة شقيقته عنايات.

تفاقمت صعوبة الموقف حين أسندت إليه عمادة الكلية تصميم معهد الصحافة العالي والإشراف على تنفيذه، فصار كثيرًا ما يصل الليل بالنهار، مَحنيًّا فوق طاولة الرسم

والتحبير في بيته بمصر الجديدة، ثم فاردًا ظهره لبرهة فوق لحاف مَطوِي على الأرض بجوار مدخل التراس، حتى يسقط نائمًا وهو قابض على فنجان الشاي البارد. صار مُلزمًا بالإقامة الدائمة في مصر الجديدة حتى يتسنى له السهر على الرسومات، تاركًا زبيدة أحيانًا تبيت مع أخته في بولاق، مُستعيضًا عن نشوة وجودها بتشغيل أسطوانة لعبد الوهاب، والوقوف أمام صورة الزفاف مُدندنًا: أما رأيتَ حبيبي، في حُسنِه كالغزال، ربي كساه جمالًا ما بعده من جمال.

لكنَّ الأرق راح يستبد به والقلق يقرض أعصابه كلما اقترب موعد تسليم الرسومات التنفيذية. صار يُفوِّت أكثر الوجبات، ولا يشرب إلا النزر اليسير من الماء، وينسى أحيانًا تشغيل أسطوانات عبد الوهاب التي تؤنسه أثناء سهره على طاولة الرسم. افتقدته أمه، فجاءت تزوره بصُحبة زبيدة، وهالَها ما رأته من فقدانه عشرين رطلًا على الأقل، حتى إنها أثارت فزع زبيدة وأوصتها بالبقاء معه وإطعامه كل حين، وسقايته بعصير الطماطم المزوَّد بست ملاعق سكر في كل كوب. «الولد بقى شبه عصاية الغَلَيَّة!»، حدَّثت أباه في المساء، فقال إنه سيذهب للاطمئنان عليه في الصباح، لكنها أقسمت عليه أن يجيء بالولد ليُقيم تحت نظرها ولا يتركه لصلابة دماغه، وليُحضر معه طاولة الرسم هنا لو أراد. وبالفعل، لم يمر يوم حتى أنفذ الأب ما وعدها به، فأحضر شاهر ظهيرة اليوم التالي.. أحضره وحيدًا، حيث لم تعُد لطاولة الرسم حاجة تُذكر فيما بعد.

أسأل أمي إن كانت حضرَت الجدة نعمات في حياتها، فتقول: «بالكاد أذكرها.. أفتكر شُفتَها مرة واحدة وأنا صغيرة في بيت الخرُنفِش، أظن في إحدى ولادات ماما روحية، وفاكرة إني خفت منها وجريت بعيدًا أول ما أفلتُّ من حضنها الناشف»، أسألها: «هل كانت شديدة مع الأطفال؟»، تقول: «لا بالعكس، يقولون كانت حنونة. لما شُفتها كانت كبيرة ونحيفة ولها بشرة سمراء مكرمشة، وحضنتني بطريقة جامدة أرعبتني. الظاهر أن عمتي زبيدة خوفتني منها قبل مجيئها، فقد كانت لا ترتاح لها ولا تقعد معها في مكان واحد، وأنا كنت نسخة مُصغَّرة من عمتي وأتأثر بكل حاجة تقولها».

أُغلِق الأجندة استعدادًا للذهاب، فتقول أمي: «وراءك حاجة يوم الخميس بالليل؟»، أقول: «لماذا الخميس؟ ألسنا متفقين أن أقضي معكِ الجمعة كله قبل ما أسافر بيومين؟»، تقول: «كَتْب كتاب ابن عمتك»، فأُبدي دهشتي: «ثاني؟!»، تقول: «ثالث.». أقوم وأضُمها فيما أقول: «ماشي، بلغيني بالموعد ونروح مع بعض».

تقول: «طيب، صالحت امرأتك؟» أنفخ بلا صوت، يُعاودني كدَر الأيام الفائتة، تقول: «ما أنا لازم أطمئن عليكما»، فأقول: «لا جديد يا أمي، من يوم ما عرفت بموضوع السفر وهي غضبانة في بيت أبيها»، يتكدر وجهها، أسألها: «مالك؟»، تتجاوز غصَّة كادت تسد حَلقها، وتقول: «كان ضروري يعني حكاية السفر دي؟!» أضم رأسها لصدري، ألثُم مفرق الشعر المشقوق بإتقان، أقول: «سفرية قصيرة وأعود سريعًا»، تزوغ بعينيها لتُواري لمعة الحزن، تقول: «تروح وترجع بالسلامة».

***

رجَّت صرخة زبيدة البيوت تباعًا، بدايةً من منزل مصر الجديدة حيث انطلقت، مرورًا بعمارة بولاق، فبيوت حلوان المتلاصقة، وصولًا لبيت الخرُنفِش حيث وجدت أول حنجرة تُردد معها أُهزوجة الفَقْد.. «شاهر مات!» صرخت زبيدة فشقَّت ثوب السعادة الأملس، فقد سكت قلب شاهر عن الدبيب؛ هبط إيقاعه بغتة لدرجة الخرَس التام، فتوقف عن مُسايرة الزمن. صرخت: «شاهر مات!»، فانطرح جسد خديجة فوق كرسي الصالون في حلوان، ولطمت هنّومة صدرها المترع بالأمومة في الخرُنفِش؛ تركت صرختها صدمة هنا وحَوقلة هناك، وحزنًا جثم فوق كاهل الحياة.

كان والد شاهر أول مَن تلقّى الصدمة بعنفوانها الداهِم، حين أبكر بزيارة ولده قبل ذهابه إلى العمل في المطابع الأميرية، وألحَّ في طرْق باب المنزل وضغْط زر الجرس حتى أقلق نوم زبيدة، فقد وجد سيارة شاهر السيتروين الصغيرة مركونة أمام البيت، فأيقن أن «الأولاد» في الداخل. وضعت زبيدة روبها الحريري كيفما اتفق، ودسَّت قدميها في خفِّها المنزلي، وسارعت بفتح الباب لحميها الواقف منذ دقائق. «أقلقتِني يا زبيدة يا بنتي، لِمَ لا تفتحين الباب؟!»، قالت: «لا مؤاخذة يا عمي، سهرانة مع شاهر طول الليل، نمت بعد الفجر»، سألها: «وشاهر نائم؟»، فانتبهت لكونها لم تجده بجوارها حين قامت مفزوعةً من النوم. قالت: «تلاقيه نام على نفسه في الصالة».

سبقها حموها صوب صالة المنزل، ولمح طاولة الرسم مُنكفئة على ظهرها عند مدخل التراس، وبين سيقانها يرقد شاهر فوق بطنه كما طفلٍ شبعان. أحاطه من تحت إبطيه وحاول رفعه، فيما استدارت عينا زبيدة فصارتا شمسين كاملتين، ووقفت محيطة رأسها بكفَّيها مشلولةً عن الحركة.

اندفع حموها لداخل التراس ووقف يستنجد بالمارَّة القليلين: «يا ناس يا هو، حد يلحقني ابني سيروح مني!» هبَّ لنجدته بائع جوال، وضع بضاعته ورفع ذيل جلبابه وهرول نحو البيت، كما لحِق به شاب خلع طربوشه وأقبل يعدو من بعيد. كان حمو زبيدة قد هرع إلى الباب وفتحه على مصراعيه، فدخل ذو الجلباب ولمح زبيدة في آخر الصالة في روبها المنزلي، فقال: «يا رب يا ساتر»، واقترب من شاهر مُتحسسًا نفَسَه، أما الشاب ذو الطربوش فتلمَّس شريان رقبة شاهر بأصبعيه قائلًا: «أنا طالب في كلية الطب يا والدي»، مرَّت دقيقة صمتَت خلالها القلوب وتعلقت العيون بأنامل الطبيب، حتى رفع إليهم بصره وقال بأسف بالغ: «البقية في حياتكم»، فتلفتت زبيدة صوب باب التراس وأطلقت صرختها المدوِّية: «شاهر مات!»

أنكر الأب حقيقة موت ولده، أصر أن يأخذه إلى المستشفى القبطي ليُوقع الكشف عليه، فحمله الرجال لداخل سيارة أبيه، وأجَّلت زبيدة لِبس الأسود تشبثًا بالأمل الفاتر الذي أحياه حموها بإصراره الشديد، بل إنها تحمَّلت توبيخه وكلامه اللاذع الذي ساطها به طوال الطريق: «مَن يقول إن ابني مات، سأجعله يسبقه إلى الموت.. مفهوم؟!»، صارت ترجف برُعب وتقول: «مفهوم يا عمي»، ثم تعود لتدعو الله في سرِّها: يا رب، يا رب، يا رب.. وكان للرب قولٌ آخر، فقد شاء ألا تدوم سعادة

زبيدة أطول من ذلك، وألا يُكافئ إصرار حميها على استعادة ولده، فلم يحل المساء حتى اتَّشحت بناية بولاق بالسواد والكآبة، وأُطفئ الراديو المعلَّق فوق رف المقهى المجاور استعدادًا لإقامة صوان العزاء، مساء اليوم التالي؛ إنه اليوم الذي صمَّمت فيه زبيدة أن تحمل نعش زوجها مع الرجال.

كانوا قد قرروا ألا يحضر الحريم مراسم الدفن، ووافقهم حسين الرأي حين حضر في المساء كي يؤازر أخته ويُعزي أصهاره، بل واستأذنهم في أخذ زبيدة معه كي تبيت في بيت حلوان وتفك عن نفسها بالبكاء. وفي نهار اليوم التالي قاموا بالغُسل والتكفين والتجهيز، وحملوا النعش قبل الظهر عازمين على الصلاة عليه في القرافة، وشرع حسين يتأهب للدفنة في ساعة مُبكرة، وما إن أخبر زبيدة بنيَّتهم دفن المرحوم بعد صلاة الظهر، وبضرورة التزامها بما اتفقوا عليه من عدم حضور الحريم، حتى انفجرت فيه صارخةً باكية، وأقسمت أن تُرافق زوجها حتى مثواه الأخير: «لن يحمل أحد غيري نعش شاهر، فاهمين؟!»، وأصرَّت عليه أن يسبقا الجنازة في الوصول لقرافة أسرة شاهر، فطاوعها خشية ارتكابها المزيد من الجنون.

وقفت بثوبها الأسود السادل في انتظار الجنازة تحت شجرة بونسيانا تفرش فروعها عند مدخل القرافة، وما إن لمحت قدومها حتى هرعت تطلب النعش، فسبقها شقيقها واحتلَّ لها مكانًا تحت الخشبة، أمسك بمقبض النعش مُزيحًا أقرب واحد من صبية الحانوتي. وبرغم استهجان المحيطين، أفسح لزبيدة مكانًا أمامه حين أيقن بتصميمها على حمل النعش مع الرجال، وبدأ يُنزل المقبض فوق كتفها بأبطأ ما يستطيع، حتى اطمأن لقدرتها على حمل الخشبة الثقيلة مع زمرة الحاملين، فانسحب من ورائها وتراجع حتى ذيل الجنازة، مُعلِّقًا عينيه بشقيقته.

لكنَّ قوتها بدأت تخور بعد خطوات، وأبصرت مدفن الأسرة آخذًا في الابتعاد كلما اقتربت الجنازة، كما أحسَّت بالمقبض الخشبي المخروط يغوص في كتفها، ويهبط بها لباطن الأرض التي راحت تلين تحت قدميها. هل يدفنها شاهر قبل أن تدفنه؟ تساءلت حين بدأت مُلُوحة العرق تحرق عينيها وقوة خفية تسحبها لأسفل، بل إنها كادت تهوي بالنعش، فقد هبطت كتفها مسافة شِبر أخلَّت بتوازن القافلة؛ هل يتركونها تسقط عقابًا لها على العناد؟! أكانت تترنح فعلًا أم أنها تخيلت ذلك؟ ما عاينَته يقينًا هي تلك اليد الشديدة التي برزت من جانبها ورفعت مقبض الخشبة عن كتفها المترنحة، واليد الأخرى المماثلة التي سحبتها بنعومة خارج القافلة قبل سقوطها المُحتَّم، في اللحظة التي لمحت فيها وجهًا يحتلُّ مكانها أسفل النعش،

ولاحظت من خلف غيمة الدُّوار عينًا زرقاء منحرفة، ونظرة ثابتة مطَمْئنة؛ نظرة ابن عمها محمد.

أقبل محمد من البلدة فور سماعه النبأ المشؤوم، وكان يعتزم دعوة حسين وعلي والجميع لحضور زفافه على روحية، قبل أن يحطَّ الخبر عليهم ويُحيل العُرس لمأتم وشيك، وإن جعله أقرب لزبيدة من أي وقت مضى.. كانت شبه لصيقة به تحت الخشبة، يكاد شعرها الأسود الناعم يمسُّ طرف أنفه، يكاد ثوبها الحرير يلامس ياقة سُترته، تمنى لو يحتضنها قائلًا: أنا هنا يا زبيدة، عُدت إليكِ يا مُنية القلب. آه لو يُطاوعه لسانه.. لكنه أبدًا لا يُطاوعه إلا في الزعيق والشخط والنَّطر! أي خسيس ذلك الذي سيصير إليه، لو أنه استغل لحظة انكسارها هذه.. لكنْ أنَّى له أن تنكسر زبيدة الصلبة كما حجر الصوان.

تخبَّط بداخل كُرة من الحيرة يتقاذفها آخرون، كأنه عاد يُلعَب به الكلب الحيران. لكنه صلب عوده ووقف يتلقى العزاء بجوار حسين عند مدخل الصوان، كي يسُدَّ مكان علي المشغول بتجارته. وتساءل عدد من المعزين عن ذلك الشاب الوسيم الذي لم يرَوه من قبل، الواقف معهم منذ أول النهار يدفن الفقيد ويتقبَّل عزاءه، فقال حسين: «دا محمد ابن عمي، في مقام أخ لزبيدة امرأة المرحوم».

وتفرق المعزّون بعد أن حملت آيات القرآن نفْسَ المرحوم راضيةً مَرضية، فقام حسين يصافح أصهاره ويشد من حيلهم، ثم تمشّى مع محمد حتى بلغا مدخل بناية بولاق، وهناك وقفا ينتظران نزول زبيدة بعدما أرسلا في طلبها. قال محمد: «لا مجال للرجوع الآن لحلوان، الوقت تأخر وآخر قطار غادر منذ ساعة. ستبيتان معنا في البيت، أنت في غرفة العم نشأت، وزبيدة في غرفة أخواتي البنات. البيت فاضٍ كما تعلم»، فزاغت عينا حسين ولاح فيهما التردد، وقال لمحمد: «لا تُتعب نفسك، زبيدة لن توافق»، فقال محمد: «ستوافق لو قُلت لها إني مسافر ولن أبات في البيت، أمي هناك وحدها وستفرح بكما فوق ما تتصور».

وبالفعل، حمل محمد حقيبة السفر دون أن يفتحها، وسهر بصحبة حسين على المقهى المقابل لكنيسة زويلة، حتى غادر قبل الفجر عائدًا إلى البلدة، بذهن شارد وقلب حسير، ما لم يغب عن ملاحظة العمة نعمات، حيث لاقته في الصباح بنظرة ارتياب، وقالت فيما تضع أمامه فتة اللبن المحلّاة بالسكر: «شكلك متغيّر»، فقال: «أجهدني السفر يا عمتي»، قالت: «كثرة السفر تتعب القلب يا حبة عيني.». ثم قطعت عليه شروده بسؤالها: «شُفت زبيدة؟»، تلفَّت إليها وأومأ مؤكدًا رؤيتها،

فقالت: «وما أخبارها؟»، فقال: «مسكينة، ربنا يقوي قلبها»، فقالت بنبرة يشوبها بعض الحدة: «يقوّي قلبها بعيدًا عنَّا يا روح عمتك، زبيدة قادرة وطالعة لأبيها الله يرحمه، عاملة مثل الجبل لا تهزُّها الريح، الدور والباقي على المسكينة روحية»، فاغتاظ محمد وخبط بملعقته فوق الصينية الألومنيوم، وحنق قائلًا: «وما دخل روحية الآن بالموضوع؟!»، فنهضت نعمات وانتصبت أمامه كما المئذنة، وقالت: «روحية عصبك ودمك، ستُفني نفسها لأجلكَ، وتضع لكَ عيالًا كثيرين يملؤون هذه الأرض طولًا وعرضًا.». وقالت فيما تُقرِّب إليه الفتة وتضع الملعقة بين أصابعه المتشنجة: «تعرف لو كسرت قلب روحية، لأكون خانقتك بيديَّ هاتين».

تبدو المآسي التي مرَّت في تاريخ الأسلاف عادية وباهتة، إذا ما قيست بمأساة حسن بن صدقي، إذ غالبًا ما يتسبب عطب ما في حدوث أمر مؤسف، أما في حالة حسن، فالمأساة تنبت من بذرة الضوء نفسها؛ من موهبته التي عَقَد عليها المحيطون آمالهم. تتباين الروايات بخصوص حكايته، ويحيط بها الغموض، كأنما اتفق الجميع أن يُسقِطوا ورقة حسن من فرع أسرة صدقي بيك في شجرة العائلة؛ ذلك الفرع الشامخ المائل لأعلى طالبًا المجد، لولا هذه الورقة المعطوبة التي يرغب الجميع في انتزاعها، ولَصْق وردة صناعية مزيفة في مكانها.

توهَّجت ذاته المبدعة بين جدران المطبعة، فصار يقضي أكثر أوقاته بداخلها، ويعود ليتحمم فقط وينام، مُغمضًا عينيه على ابتسامة صارت سمة أصيلة في وجهه، مثلما صارت رائحة الحبر دليلًا على حضوره. تضافرت جميع مواهبه فوق البنك الخشبي الذي أعدَّه لتصنيع حروف الطباعة، فبدلًا من صناعة آلات موسيقية، صار يتفنن في صناعة الخطوط ذات الحروف المميزة، التي لا تملك مثلها إلا كبرى المطابع. ينتقي الخطوط الغريبة التي تثير فيه شهوة الطباعة، مما يحصل عليه من أعداد جريدة المقطَّم والأهرام والتايمز الإنجليزية، ويُمضي الساعات في محاكاتها نقشًا على الورق المُقوّى وحفرًا في الخشب الزان، حتى صارت مطبعة الحكمدار تنفرد بحروف عجيبة تُكتب بها العناوين، تُميزها حتى على مطابع الأرمن واليونانيين. كما صار يرسم ويطبع تصاوير نجوم الفن ويُعدُّها بخيال جامح نحو الابتكار، فيصنع منها نماذج مختلفة لمنشورات الدعاية للحفلات الغنائية والروايات المسرحية، يُعلِّقها فوق جدران المطبعة حتى يراها حسين حين يأتي في المساء.

احتار حسين في أمر شقيقه؛ أينهاه عن مضيعة الوقت والخامات في صنع هذه النماذج البديعة التي لا طائل من ورائها، أم يحُثه على صناعة المزيد؟! ثم حضر أخوهما علي من الإسكندرية، فرجَّح القرار الذي كان حسين ميَّالًا إليه، حيث أُعجب علي بفن شقيقه ودقة صنعته، فقال له: «عفارم عليك يا واد يا حسن»، وطلب إليه أن يُغلِّف ثلاثة نماذج من المنشورات الدعائية، لكي يحملها معه إلى الإسكندرية ويعرضها على مُتعهدي مسارح الأزاريطة وكامب شيزار، واثقًا من إمكانية الاتفاق على طلبية أسبوعية من هذا النوع.

"كم تتكلف الألف ورقة من هذا المنشور يا حسن؟»، سأله عن نموذج بعينه، فأخذ حسن يُفرِد له بنود التكلفة بندًا فبندًا، حتى إنه لم يُهمل من حسبته النقل والمشال، ما

أثار دهشة حسين وجعله ينفرد بأخيه علي ويسأله إن كان جادًّا فعلًا في مسألة الطلبيات، فقد كان يعرف أن لأخيه علي حسًّا تجاريًّا لا يخيب، فإذا به يقول: «الشغل شُغل يا حسين ليس فيه هزار، وحسن يداه تُلفان في الحرير».

ظل حسين غير مطمئن لحسبة النقل والمشال بين القاهرة والإسكندرية، فطلب من أخيه علي أن يُجرب حظه مع مُتعهدي القاهرة أولًا، فمدَّ الأخير إجازته لأيام توصل خلالها لحسن الشريف وصدّيق أحمد، أشهر مُتعهدي الحفلات الغنائية آنذاك، وأقنع كلًّا منهما بالتعاقد معه على طباعة منشورات دعائية، مُستخدمًا اسم الآخر وموافقته المزعومة. ومضت الأمور أحسن ممَّا يُرام، فوجد اسم «مطبعة الحكمدار» طريقه لكل سور وكل جدار في محيط مسرح برتانيا وحديقة الأزبكية وتياترو الكورسال، قبل أن تمتد تعاقداتها إلى الإسكندرية وأسيوط.

ومع زواج حسين واستقراره على الإقامة في بيت الخرُنفِش، عملًا بنصيحة محمد ابن عمه، بِيع ما تبقى من بيوت حلوان، وانتقلت أسرة صدقي بكامل هيئتها وراء حسين، كي تُقيم في جناح الست أم صدقي، والتمَّ من جديد شمل الست خديجة على صديقتها الحاجة هنّومة، وصار حسين يمضي أكثر أمسياته مع محمد حين يكون في القاهرة، أو في المطبعة التي صارت أقرب لسكنه بعد الزواج، وأمسى حسن المسؤول الأول عن مطبعة الحكمدار، وتكوَّنت له خلال سنواتٍ شلة أصدقاء يُعاونونه حين يزيد ضغط الشغل، ويُجالسهم كل مساء في مقهى الحرية بعد فراغه من العمل؛ يسمع منهم دون اكتراث أخبار الحرب العالمية الثانية - الأكثر ضراوة من الأولى - ويتبسَّم فيما يتجادلون حول احتمالية وصول الألمان إلى الإسكندرية أو القاهرة.

حتى حلَّت تلك الليلة الشتوية الظليمة، حين داهم البوليس مطبعة الحكمدار وحرَّز الكثير من المطبوعات، ومن أُطُر الطباعة ذات الأحرف المرصوصة بإحكام، حتى الأحبار لم تسلم من شراسة الهجمة، فاندلق بعضها وحُرِّز البعض الآخر كي تتم مُطابقته مع المنشورات المحرَّزة. شُمِّع باب المطبعة بالشمع الأحمر، وسِيق حسن مع نفرٍ من أصدقائه حاول أحدهم أن يتخلص من سجائر ملغومة كانت بحوزته، فلمحه الأونباشي المكلَّف بالحراسة وصارت قضيته قضيتين.

ضربت تلك الصاعقة الشتوية بيت الخرُنفِش، فصار حسين يلفُّ حول نفسه لا يعرف أين يمضي. وبرغم رحيل صدقي بيك الحكمدار قبل أكثر من عشرين عامًا على هذه الواقعة، جرَّب حسين الاستعانة باسم أبيه، خاصة وأن التهمة بدت سياسية

على نحوٍ ما، حيث دوهِمَت جميع مطابع عابدين وباب اللوق على مرأى من السماء الشتوية الملبَّدة بالغيوم، في محاولة لوقف سيل المنشورات التي تهطل كالأمطار، مُطالبةً بإنهاء الاحتلال تارة وبعودة الوفد لتشكيل الحكومة تارة أخرى.

«مطبعة تحمل لقب صدقي بيك الحكمدار، الذي قُتِل فيما يُناضل لاستعادة النظام، من غير المعقول أن تنزلق نحو إثارة الفوضى أو تقويض السُّلطة»، هكذا أخبر حسين وكيل النيابة إذ وافق أخيرًا على لقائه، فأخلى الرجل غرفة مكتبه وأمر لضيفه بفنجان قهوة، ثم قال لحسين فيما يمُد نحوه علبة السجائر: «دماغك راح لبعيد يا حسين أفندي.. مَن قال إن التهمة تخص القلم السياسي من قريب أو بعيد، إذْن التفتيش صادر من عندي أنا، وتحرياتنا كانت بخصوص تزوير وطباعة أوراق نقدية».

وجَم حسين. خلع طربوشه الذي صار الآن بلا فائدة، واستخرج منديله وأخذ يجفف العرق الذي صار ينِز من رأسه برغم برودة المكتب. دخل الساعي وحط أمامه فنجان القهوة، فلم ينتبه، حتى قال البيك الوكيل: «اشرب قهوتك يا حسين أفندي، ستبرد سريعًا في هذا الجو»، فاستعاد بعض وعيه وسأل الوكيل: «أليس جائزًا جنابك أن يكون هناك لَبْس في الموضوع؟»، فقال الرجل: «لولا دقة التحريات لكُنَّا طلبنا ضبطك وإحضارك أنت يا سيد حسين، بصفتك صاحب المطبعة والموقِّع على تعاقداتها، لكن تحرياتنا تقول إن الأمر جرى من وراء ظهرك.. مرشد البوليس واحد من شلة حسن، وأثبت في تقريره أنهم كانوا يحتاطون لوجودك، ويُخفون عنك كل شيء». صمت حسين من جديد، ثم سأل باستعطاف: «فيه أمل يخرج يا سعادة البيك؟»، فقال الوكيل: «الأمل في ربنا، والمحكمة ستحكم بما تراه، لكن الخروج بكفالة في هذه المرحلة صعب».

واستمر الحبس يُجدَّد لحسن ورفاقه، خمسة عشر يومًا فخمسة عشر، حتى صار أهل البيت يسهون عن غيابه، ثم يتذكرونه بغتةً فيسألون عنه، وهكذا. قيل إنه كان يرسم أوراق النقدية، وقيل بل غُرر به واستُغلَّت حاجته للصُّحبة والونَس.. قيل علَّموه شُرب الحشيش، وقيل بل كان مرضه العضال ما يُغيِّبه أحيانًا عن الوعي.. ومضى الوقت ثقيلًا مشوبًا بالتوتر، حتى قيل إنهم عذبوه في الكراكول ومنعوا عنه الزاد، أو أنه أضرب من نفسه عن الطعام، حتى التهمه المرض.. قيل ذلك يوم جاءهم خبره، محمولًا فوق خشبة مُسوَّسة.

على الرغم من فارق الأربع سنوات بين عمرَيهما، استطاع جدي محمد أن يسبق جدي الآخر حسين في كل شيء؛ في الزواج، في الإنجاب، في الترقِّي والإنجاز، حتى في الموت. تزوج من روحية بنت عمه، وعاش معها في جناح الست أم فاضل في بيت الخرُنفِش، وأنجب منها أول أبنائه الصبيان السبعة، الذين سيدفع بهم في سباق «المحمّدات» بحثًا عن الكنز.. كل ذلك فيما لا يزال يحاول إقناع حسين ابن عمه بالزواج والاستقرار في جناح جدته الست أم صدقي في نفس البيت، حتى رضخ له أخيرًا وتزوج نجية، وهي إحدى بنات البحاروة أخوال روحية، شركاء محمد في أرض البلدة. فصار الزيت يُخالط الدقيق كأفضل ما يكون الانسجام، وأنتج عجينًا طازجًا طيِّب رائحة البيت: أبي وأمي بالتأكيد.

أنجباهما في جناحين متقابلين من أجنحة بيت الخرُنفِش، فنشأت أمي صبيةً مدللةً تختار من أعمال البيت ما يحتاج لمهارة خاصة وجُهد قليل؛ فيما نشأ أبي صبيًّا عفريتًا يهزم أترابه في المصارعة، ويذرع الحوش المكشوف مشيًا على يديه، فتستعجب جدته هنّومة من كونها تراه مزروعًا «زرع بصل» أكثر ممَّا تراه معدولًا واقفًا على حيله، وتقول: «القرد ساب الكنز وجا يتنطَّط قدامنا أهو!»

وعادةً ما كان جدي محمد يقضي في البلدة أسابيع متصلة، لا يستغني خلالها عن وجود جدتي روحية بجانبه، فيترك بنيه وبناته المربوطين بالمدارس في الخرُنفِش، ليقوم جدي حسين بدور الأب الأكثر لينًا من أبيهم، والذي يصطحبهم كل أسبوع لمشاهدة السينما، أو للتمشية وأكل الدندُرمة عند مقام أم الغلام، وكان يُرسل أمي لتسأل عمتها زبيدة إن كانت ترغب في الخروج معهم، وذلك لعلمه بمكانة ابنته البكرية عند شقيقته، فتقول زبيدة: «لا يا حبيبتي ما لي مزاج، روحوا أنتم». وقد تختار أمي ألا تخرج معهم أيضًا، فتقضي المساء فوق حِجر عمتها زوزو، تصنع معها العرائس والمشغولات المطرزة، وتسمع منها حكاية الشاطر حسن وأصابعه السحرية، وحكاية الأمير شاهر ومملكته العجيبة.

وكانت زبيدة تُكثر من الجلوس وحيدةً في رُكن أبيها صدقي بجوار الجرامافون، تُنصت لصوت عبد الوهاب المحبَّب لزوجها المرحوم شاهر، وهو يصدح بجوارها: «أهون عليك»، كأنما ينوب عنها في لَوْم شاهر الذي تركها، وحسن الذي فجعها فيه. تُحيط نفسها بأولئك الذين أحبوها بصدقٍ دون انتظار مُقابل، وتتأمل الحال التي صارت إليها؛ تُناظرها بحال محمد وروحية وحسين ونجية، وحال الصبيان والبنات

الغادين والرائحين في الحوش وبين أجنحة البيت.. هل كانت الحياة عادلةً معها، في منحها إما كل شيء أو لا شيء على الإطلاق؟! كانت تتساءل، وتدهش، وتسخط، بعينيها الجميلتين الفارغتين من التعبير، وأصابعها المشغولة أكثر الوقت بصناعة مجسمات قطنية مُطرزة، فيومًا تصنع فارسًا مُبتسمًا تُسميه الأمير شاهر، ويومًا تصنع ملاكًا مُجنَّحًا ومُمسكًا بآلة كمان، فتسألها أمي إن كانت ستُسمّيه اسمًا آخر هذه المرة، فتقول: «لا.. هو الشاطر حسن».

وهكذا مضت الحياة؛ أمي الطفلة المهووسة بالنظام تُراقب أبي القرد المسلسل، من وراء حجاب النفور الممزوج بالإعجاب، فيما يمضي هو يراقب العالم من وضعيته المقلوبة المحيرة، فلا يرى فيه غير الاعوجاج. ولم ينعدل حاله حتى بدأ أبوه محمد بن فاضل يأخذه إلى البلدة مع أشقائه الأكبر سنًّا خلال إجازة الصيف، يلعبون ويتشاقون، ويتعلمون المسؤولية وإدارة الوسية التي أخذت تربو حول بيت نعمات.

وعلى عكس أمي، يروق لأبي الحديث عن جدته نعمات، فقد كان يصاحبها في البلدة والخرُنفِش على السواء، وكانت هي مَن أطلقت عليه لقب «الملَكلِك»، لكونه يستبدل يديه برِجليه أكثر الوقت، حتى حين تطلب منه عِدة القهوة، فيحضرها دفعًا على الأرض بنفس هيئته المعكوسة تلك، فتفطس من الضحك على منظره. هي على الأرجح مَن أورثته عرق الكرامة النافر دائمًا، فجعلته شديد الحساسية تجاه ما يمس كرامته وكرامة غيره ولو من بعيد، وبات يرى العالم ويقيس الخصال مُنطلقًا من صفعة الجد مختار، التي نزلت يومًا على وجه أبيه، كأنها انفجار كبير يبدأ به التاريخ، فبقيت تلك الصفعة - التي لم يشهد زمانها لا أبي ولا أي من إخوته - تُلقي بظلالها عليهم إلى الأبد، كأنها البدء والمنتهى.

أجبر جدي محمد عمَّه مختار على التراجع داخل حيِّز الأرض التي اشتراها من حر ماله، وأخذ يُحاوطه بأراضي الوسية من كل جانب، مُستعينًا بأموال أصهاره أخوال روحية وخبراتهم، كأنما يُحاصره. يُرسل لعمه في طلب مَن ينوب عنه بعد جمع المحاصيل، فيمنحه الربع بالعدل والقسطاس، ولا يتعدى عليه في نوبة ري بأن يُدير ماكينة أو يفتح قناية بخلاف الجدول المعلن، وفي المقابل لا يتهاون أبدًا مع أهون تعَدٍّ من ناحية عمه، فيُشهِد عليه الناس في الحال ويُطالب بمجلس عُرفي يساوي الرؤوس ويرُد الحقوق. يرفض عمه المثول بالطبع، فيتراجع جدي بسماحة الكبار قائلًا: «لأجل خاطر حرمنا الست روحية».

فيما ذهب الجد مختار أبعد وأبعد في اتجاه الصفعة، فتزوج على الست جمالات، أم بدرية وروحية، من إحدى بنات الفلاحين، وبنى بيتًا جديدًا خارج الوسية ليكون مركزًا لبلدته المسماة «عزبة مختار»، واستمر يزرع الضغينة في أبنائه من امرأته الثانية تجاه الوسية، فلم تعُد تربطهم بها صِلة إلا ربع المحاصيل الذي يحصُلون عليه بعد كل موسم جَمع، وبعض نزاعات الريّ التي يفتعلونها في سائر الأوقات.

أما البيت الكبير، فلم يضع فيه جدي طوبة قبل رحيل عمته نعمات، فقد ظل رأسها وألف سيف ألا يُلحَق به بيت فلاحي بزريبة وفُرن طيني، كعادة بيوت الأرياف، وكانت تقول لجدي محمد: «أنت عايز جدك الشيخ يشم ريحتنا ويقرف منَّا في تُربته!»، بينما كان جدي يرى ضرورة تحويل البيت إلى النمط الريفي الكامل لزيادة إنتاجيَّته، فقام بعد موت عمته نعمات بتوسعة البيت وإضافة العديد من الغرف، حافرًا لأقصى عمق قد يُتيح ظهور الكنز، وبنى خلفه البيت الفلاحي حيث تُربّى البهائم ويُخبز الخبيز ويُصنع الطعام للبيت الكبير وبيوت المأمور والخولي وبقية الرجال، وحيث وضع بعد ذلك فرّازة الحليب التي اشتراها من البحاروة، فصارت تفرز حليب مواشيه ومواشي البلاد المحيطة بالوسية، فيأخذ جدي مُقابل الفَرز كوبًا من اللبن عن كل مَلوة قادوس من الحليب.

وبالجهد وحده والرغبة في الإنماء ازدهرت البلدة، فأُقيم المسجد وارتفعت مئذنته تثقب شبورة الفجر، وأُنشئ الكُتَّاب من الطوب اللبن عوضًا عن تعريشة نعمات، كما ابتاع جدي أول جرار زراعي في الزمام، واستقدم خميس سائق الجرارات عبر معارفه في الجمعية الزراعية. ولسوء البَخت، وصل خميس مساء اليوم الذي توفِّي فيه العم مختار، وقام السائق الغافل مع الفجر وملأ خزان الوقود، وراح يذرع الأرض المحروثة بالجرار ذهابًا وإيابًا، صانعًا جلبته التي تُقيم الأموات، ما اعتبره أبناء مختار إهانة متعمدة لموتة أبيهم، فأطلق أحدهم خرطوشه على الجرار الزراعي، وقفز خميس تاركًا غوله الحديديّ يُزمجر وحيدًا بين الحقول، وانطلق يعدو آخذًا ذيل جلبابه بين أسنانه.

كادت النار تشتعل في الزمام إثر هذه الواقعة، فقد حضر أبناء محمد بن فاضل ليأخذوا العزاء في جدهم مختار، وفوجئوا باعتداء أبناء عمومتهم على السائق الجديد، وكادوا يخرجون إليهم مع رجال الوسية، لولا أن تصدَّى لهم جدي محمد. فقد حبس جدي أبناءه ورجاله، وخرج وحيدًا فوق صهوة جواده الأدهم، قاصدًا عزبة مختار. ربط الجواد في جذع نخلة ميتة أمام بيت عمه، وعبر الباب المفتوح

دون أن يُلقي السلام على أهل الدار، بل بادرهم بسؤال وحيد: «مَن منكم ضرب النار علينا؟»، فغمغم البعض وسكت البعض، وحين أعاد السؤال تجرأ أحدهم: «أنا ضربت النار يا محمد بيه»، فخطا جدي نحوه مُشمِّرًا ساعده، وطوَّح بيده هابطًا فوق صدغ الرجل، ما جعله يهوي على الأرض دون أن يحط منطقًا. واستدار جدي محمد يُخاطب الباقين: «البقية في حياتكم وحياتنا.. وما لم ينجزه عمي في حياته، أستكمله أنا بمشيئة الله»، فاختلط عليهم الكلام: هل كان يقصد وقوفه بجانبهم، أم في مواجهتهم.

وما لبث السائق خميس أن عاد لقيادة الجرار، حتى تلقَّف بعد شهور أوامر جدي محمد بأن يُدرِّب أحد المزارعين على قيادته، «بشرط يكون قلبه جامدًا ولا يُحسن الجري»، هكذا مازح جدي سائقه فيما يُلقي تعليماته، فتصوَّر خميس أن محمد بيه يريد تسريحه بسبب حادثة إطلاق النار، واستغرب لكونه صبر عليه طوال هذه الشهور، فيما كان البيك يُعدُّه لترقية وشيكة تسبق ترشحه لمجلس النواب، بحيث يصير خميس سائقه الخاص على السيارة اللينكولن الداكنة. وما إن عرفت عزبة مختار بخبر الترشح، حتى شرعت تتحرك

ضده في أنحاء الزمام، دافعين بأن أباهم مختار بيه، الذي عاش بين الفلاحين وتزوج من بناتهم وصار واحدًا منهم، لم يفعلها يومًا.. أما هذا المحمد بيه فلا يربطه بالبلدة غير الإيراد الذي يُحصِّله، والأغراب الذين يجيء بهم ويجعلهم أسياد الناس. فواجه جدي الأقاويل بإطالة مُدَد إقامته في البلدة، وتكريسه السيارة اللينكولن مع سائقها خميس لخدمة الناس، واستمر يفعل ذلك حتى بعد خسارته جولة الإعادة في الانتخابات؛ إنها الخسارة التي استعْدَت عليه داء القلب.

أُغادر مع أبي عيادة طبيب القلب. نتيجة فحص الموجات الصوتية طيّبة؛ ثمة تحسن طفيف في عضلة القلب، أُهنئه: «ابسِط يا عم.. ستضيف لكَ ماما قطعة حلاوة طحينية، مع الزبادي على العَشاء»، فيقول: «الأكلة الحلوة تطوِّل العمر»، آخذ بيده لنعبر الشارع فيما أقول: «إيَّاك أن تكرر هذا أمام ماما، الطيب أحسن».

في السيارة أُذكِّره بحكاية جدي، فيقول: «جدك مات مبسوطًا، ولا أحد يموت من أكلة سمك»، ثم يردف بعد برهة: «كان يشتهي طاجن السمك الثعبان، والكل يمنعونه، أبناؤه الدكاترة يمارسون عليه الطب، ويُخيفون أمي بقولهم: ستقتله الدهون.. مال عليَّ يومًا وقال: نِفسي في السمك الثعبان، أخذته عندي في البيت وحطيت له الطاجن السخن الملهَّب على الطبلية بجوار باب البلكونة، وشمَّرت أكمامه، فأكل كم لقمة وأزاح الطاجن جانبًا، وقال: يطعِمك ما يحرِمك.. عاش بعدها أسبوعًا على الأقل».

ألمحه سريعًا بطرف عيني؛ ألتقط الراحة المستقرة بين جفونه. هذا رجل أنجز ما عليه. هذا رجل فرَّح أباه، فرَّح أبناءه، لا ينتظر مكافأةً أبعد من قطعة حلاوة طحينية.. سنفتقد الجميع آخر المطاف، للموت الفظيع، أو للسَّأم الأفظع منه.

يا للمهزلة!

***

نشأ جدي محمد وطنيًّا مُحافظًا، يحمل التقدير لسعد زغلول، ويتميَّز غيظًا حين يذكر أحد الملك بسوء، ولو على سبيل المزاح. وإذا سُئل عن انتمائه السياسي يُشير لميله للأحرار الدستوريين، فيخُط لنفسه مسارًا مُخالفًا لسواد الناس، كعادته، ويقول مفسرًا موقفه: «إنهم يحترمون الكبار، ولا يتصايحون مثل بيَّاعي سوق التلات».

لذلك كان من بين أولئك الذين استقبلوا حركة الجيش باستنكار مشوب بالقلق، فقد فوجئ بأخبارها خلال إحدى سفراته إلى البلدة، وكان كل مَن يمر أمام شرفته وينزل عن حماره لو كان راكبًا، يسأله عمَّا سيحدث بعد ذلك؛ فيبقى صامتًا ولا يُحير جوابًا، أو يقول باستنكار: «حتى أنت ستتكلم في السياسة! غُر على بيتك وعشّي عيالك»، ولم يُناقش الأمر إلا مع مأمور الزراعة وخميس السائق، فأبدى قلقه من اعتقال كبار الضباط، ومن محاصرة الملك، فوقف خميس واجمًا يُبدي أسفًا تمثيليًّا على غير حقيقته، وذلك لمعرفته بمكانة الملك في قلب محمد بيه، حتى إن صُوره

معلَّقة في صدارة البيت والكُتاب. صرفه جدي حتى يُجهِّز السيارة اللينكولن، وطلب من جدتي روحية التأهب للسفر، خشية أن تتعقَّد الأمور.

سرعان ما ركبه الغم حين أُبحِر بالملك لإيطاليا على متن محروسته. نزل يومها إلى الأرض الفضاء المتاخمة لبيت الخرُنفِش، وشرع يُطلق أعيرة النار مع كل طلقة مدفع تُدوّي عبر أثير الراديو، تحيةً للملك المعزول، ثم صعد لجناحه مُغتمًّا وأخذ يُنظِّف السلاح أمام الشباك المطل على دار كسوة الكعبة، حيث يبدأ المحمل رحلته مصحوبًا بِدَويّ مدافع القلعة. واندهش الجميع حين وافق صباح اليوم التالي على ترك بيت الخرُنفِش، إثر المشاكل التي احتدمت بين أفرع العائلة، وزعْم البعض بأن جدي محمد لا يسعى بجديَّة لإنهاء مشاكل البيت مع الأوقاف، طمعًا في الانفراد به.

كان قبلها من أشد المعارضين لفكرة ترك البيت، وكان يعرف يقينًا بأن البيت مِلك خالص له ولأخواته البنات - اللاتي تنازلن له جميعًا - عملًا بوصية جدهم الشيخ، الذي كتب البيت لفاضل؛ لكنْ ليس ثمة حجج وأوراق تُثبت أي شيء. ورغم ذلك شرع مع ابن عمه حسين يلفُّ على المحاكم ومكاتب الأوقاف، لسنوات طالت دونما فائدة، حتى فقدا الأمل في إثبات ملكية ورثة الشيخ لبيت الخرُنفِش. وكانا مَن أشرفا على توزيع باقي التركة، على أذرع العائلة الممتدة في كل اتجاه.

انتقل جدي محمد مع أسرته لبيت آخر في حي الظاهر، وأجَّر جدي حسين شقة صغيرة ومؤقتة في العباسية، صارت بيته الدائم حتى مات. وقد سُئل جدي محمد غير مرة عن تركه بيت الخرُنفش الواسع الكبير، وكان باستطاعته الاستمرار فيه لو أراد، فلم يُحِر جوابًا شافيًا يريح السائلين. غير أنه حدَّث جدتي روحية في قعدة صفاء، بكلمات قليلة وغامضة، مُفصحًا بأنه أحسَّ يوم أُبحِر بالملك لخارج البلاد، أن البيوت ما لها عوزة، ولا تبقى لأحد. فهزَّت الجدة رأسها بتأثُّر عميق، ولم تسمح لأحدٍ بأن يُعاود السؤال مرة أخرى.

وظل جدي يمقت ثورة يوليو بإخلاص، ويمنع التغني بإنجازاتها داخل البيت، فلا يسمح بتشغيل الراديو إلا لسماع أم كلثوم في الخميس الأول من كل شهر، ثم أعلن سُخطه التام حين شرع النظام في الإصلاح الزراعي، وأخذ يوزِّع الأرض المفتَّتة على صغار الفلاحين، فقال لأبنائه الكبار: «هذا هو الخراب بعينه». حتى كان اليوم الذي عبَر فيه موكب عبد الناصر ميدان العباسية، مرورًا بشارع الظاهر، فاحتشد الجميع في شرفة البيت يرقبون سيارة الزعيم المكشوفة، التي وقف بداخلها يُلوّح

ذات اليمين وذات اليسار، وجاهد أعمامي وعماتي ليكتموا ابتهاجهم ويزمّوا أشداقهم بإحكام، حتى فوجئوا بجدي يملأ صدره بالهواء المفعم بالهتاف، ويُطلق بصوته الجهوري صيحته التي صاروا يتندرون بها فيما بعد: «يا جمااال!»، فإذا بعبد الناصر يلتفت صوب الشرفة مُجاوبًا تلك الصيحة النادرة، بتلويحة خاصة نحو أولئك الواقفين في شرفة البيت، فانطلقوا جميعًا يتصايحون ويتقافزون حول جدي، فيما وقف هو ثابتًا كقائد منتصر. سألوه بعد ذلك عن سر صيحته، فقال إنه أراد اختبار الرئيس كي يُحدد منه موقفه النهائي، وحين ألحّوا في معرفة النتيجة، قال إنه لطالما ظن خيرًا في جمال، وأنه تأكد الآن من كونه يُقدِّر الناس ويُنزلهم مكانتهم التي يستحقون، بل إنه صار يصف ما قام به الرئيس تجاه الملك المعزول بالضرورة السياسية المقيتة، واستمر يأمل في عودة الملك ذات يوم لقصر رأس التين، حتى يلقى وجه الكريم داخل بيته، بين أهله وناسه.

وكانت محبة عبد الناصر أول شعور يجمع أبي الحماسيّ على أمي الناصرية حتى النخاع، برغم تفرُّقهما كلٍّ في بيته الجديد، قبل أن يتجاوزا عتبة الطفولة. وكانا يلتقيان بين أسرتيهما في المناسبات والأعياد، فتقيس عينا أبي البراقتان الواسعتان ما أحرزته أمي من فتنة إضافية أثناء فترة غيابه، فيما تتحاشى أمي عينيه الصريحتين قدر مستطاعها، فيستدرجها أبي من جديد، بحديث يحوي الكثير من كلمة «ناصر».

غير أن جدي منع الحديث في السياسة منعًا قاطعًا حين اشتدَّت قبضة الثورة، حيث صار يخشى على أولاده من الحيطان ذات الآذان، خاصة أبناءه الصغار المتهورين الذين ينتقدون علنًا مساوئ النظام. حتى إنه لطم أصغر أعمامي يوم وقف في شرفة البيت، يسبُّ جموع الهاتفين بعودة الرئيس المهزوم فور تنحّيه، وكانت اللطمة من الشدة بحيث تسببت في سقوط عمي وإصابة عينه اليمنى بانحراف طفيف، جعل منه نسخةً مصغَّرةً من أبيه تزداد مُطابقةً مع الزمن. ويوم سألت عمي عن هذا التطابق العجيب، الذي لم يُهمل حتى انحراف العين، أخذ يُعدِّد محاسن أبيه حتى ختمها بقوله: «تسلم اليد التي ضربت وجعلتني صورة منه.. مَن أكون أنا حتى أُذكِّر الناس به؟!»

تصدَّع قلب جدي إثر هذه الصفعة؛ ضعُفت عضلة قلبه وأُقعد طويلًا عن السفر إلى البلدة، ما لم يفعله منذ أنشأ الوسية. بل إنه شرع يبيع القراريط والفدادين من تحت ضرسه لصغار الفلاحين، لكي يُعلِّم ولدًا أو يُزوِّج بنتًا، ثم صار أكثر تساهلًا

في أمر البيع مع تفاقم المرض. «عاوز أطمئن عليهم قبل ما أموت»، كان يقول لجدتي روحية، فتغضب من شؤم كلامه وتوليه ظهرها أثناء النوم، لكنه مات بالفعل، وكان ناصر قد سبقه إلى الموت بأشهر قليلة، بعدما عشَّمه بتلويحة احترام، وخذله بهزيمةٍ مهينةٍ سلبت كرامته.

استمر صوان جدي يبتلع المُعزِّين ويلفظهم لثلاثة أيام، وقف خلالها أكبر أعمامي في صدارة الرجال، وكان يعمل آنذاك مهندسًا في السد العالي، دفن أباه ورحل سريعًا، فيما غادر العم الثاني ضابط الجيش بعد مرور يوم واحد، حتى يلحق بكتيبته. صار أبي أكبر المتواجدين، والمسؤول الأول عن تزويج أخواته البنات، وتعليم مَن لم يتخرَّج بعد من الصبيان. وشرع من فوره في النهوض بمسؤوليته، بمعونة أمي التي تزوجته فور تخرجها، واستقبلت بداخل شقتها في مصر الجديدة أكثر زيجات أخواته البنات، فلم يعُد في الشقة ركن لا يجد طريقه لألبومات الزفاف. واستضافت أيضًا عمتها زوزو في أيامها الأخيرة، فكُتب للعجوز الجميلة أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، في هواء مصر الجديدة العابق برائحة الأيام السعيدة.

وكان أبي غير راضٍ عن بيع الأرض، أو ما تبقَّى من أرض البلدة البعيدة، وكثيرًا ما حاول إثناء إخوته عن البيع، فكان ينال ردودًا من قبيل: «هل تظننا نفهم في الفلاحة؟»، أو: «هو أنا ورثت حاجة تُذكر!»، فحاول الشراء منهم قدر ما استطاع، حتى إنه باع سيارته الفيات يوم استعجله البعض في السداد. ولما سافرنا إلى الخليج، بدأ يستعيد الأرض كلما حوَّش هو وأمي بعض المال، بل وبنى بيتًا جديدًا مُجاورًا للبيت الكبير، تحفُّ واجهته الخلفية ببرج الحمام، ما جعلني أتخلَّص أخيرًا من رعب الوطاويط، وأبيت مفتوح العينَين خوفًا من البوم والحيَّات.

أمضي لزيارة أبي وأمي صباح الجمعة. أحمل أول مخطوطة مطبوعة للرواية، ينقصها بعض الفصول، لكنْ لا بأس، لتتسلّى أمي بقراءتها أثناء سفري. أركب سيارة «أوبر» عوضًا عن سيارتي التي قمت بفَصْل بطاريتها، ورَفْعها على «جِمال» خشبية بداخل جراج قريب من بيتي. ما يُدريني متى أعود لقيادتها.. بعد شهر؟ ثلاثة أشهر؟ ربما أعوام، مَن يعرف؟

الشوارع هادئة. السيارات هاجعة على جانبَي الطريق، تتفكَّر في نجاتها من أسبوع مضى، تلتقط أنفاسها قبل خوض جولة الأسبوع القادم. بائعو الجرائد يفترشون التقاطُعات والملفات، يرصون أكوام الأوراق الطازجة، الرمادية منها والملونة، كأنها إفطار حافل بفواتح الشهية. أفتح عينيَّ عن آخرهما، أطبع القاهرة على صفحة ذاكرتي، القاهرة كما أحبها أن تكون، ليس على حقيقتها؛ رائقة مُشرقة، ذات شمس حانية وجفون ثقيلة، كأنها عروس كسول صبيحة ليلة زفاف صاخبة.

يصلني إشعار على الواتساب؛ مجموعة أولاد العمومة التي لم أعُد أتابع إشعاراتها، الآن لديَّ الفرصة لأُلقي نظرة. الكثير من التعليقات الساخرة، والوجوه الضاحكة، تتكرر كلمتا «بيت العزبة» فيما بين الكلمات الهازلة، «ما الموضوع يا جماعة؟»، أقاطع تيار الهزل بسؤال جدِّيّ، يقرؤون رسالتي ولا يجيبون، موجة الوجوه الضاحكة تجتاح الرسائل، لم يحن بعد وقت الاسترخاء فوق شاطئ الجِدّ.. أُرسل رسالة صوتية: «ما له بيت العزبة؟»، سرعان ما تغشى رسالتي موجات الضحك. لا فائدة. أفتح قائمة الهاتف وأُهاتف ابن عمتي، أعقل أبناء العمومة: صباح الفل.. كيف حال الأولاد.. مسافر بعد بكرة إن شاء الله.. لا صدّقني الوقت ضيق جدًّا.. أشوفك على خير.. ما موضوع بيت البلدة؟ سألتكم على الواتساب، لا أحد يُجيب.. هزار؟ عارف إنه هزار، لكن ما أساس الموضوع؟ ما الذي فتح سيرة البيت؟ معقولة؟ عجيبة! لا لم أقرأ شيئًا في الجرائد، ولا المواقع الإلكترونية.. تمام، أرسلها لي، آسف لو شغلت بالَك، أشكرك، سلام.. سلام.

أُغلق الخط. أترقَّب رسالته، أفتح الرابط الذي أرسله على الفور؛ بوابة «أخبار اليوم» الإلكترونية، الأمر جدِّيٌّ إذًا.. «رسمي»، كما تُفضِّله أمي؛ اكتشاف حقل بترول جديد بمركز سُمُسْطَا، في المنطقة الزراعية المحيطة بقرية الشيخ، وقد قامت شركة البترول الوطنية بنقل بريمة الحفر والمعدَّات إلى المنطقة، وكذلك المهندسين والعاملين لمتابعة أعمال الحفر والتنقيب، ومن جانبه أعلن المحافظ أن بني سويف

ستشهد عصرًا جديدًا بعد هذه الاكتشافات البترولية، التي تُضاف للمزايا النسبية الأخرى التي تتمتَّع بها المحافظة.. والجدير بالذكر؛ وفي سياق مختلف؛ اقرأ أيضًا..

أشكر السائق وأعبر سريعًا مدخل البناية. أفتح الباب. أدخل. أبي وأمي بداخل الغرفة. أطرق الباب وأفتح ببطء. «صباح الخير»، تنهض أمي، تُقبِّلني، «تشرب قهوة؟»، أقول: «أشرب». أبي يحل الكلمات المتقاطعة، يقْلِب القلم الرصاص ويمسح حرفًا بالممحاة، أسأله: «عرفت حكاية البترول؟»، فيقول دون أن يرفع نظره عن الجريدة: «غاز طبيعي، اكتشفوا حقل غاز يكفي مصر خمسين سنة على الأقل.. افتح التلفزيون يمكن تكون الإعادة اشتغلت»، أقول: «أقصد العزبة، اكتشفوا حقل بترول هناك»، يقول باندهاش: «بترول؟!».. أفتح الرابط وأُريه الخبر.

يُهاتف قريبًا له يسعى بهمَّة في بيع البيت. يسأله، يقول الرجل: «كلام... هو الكلام بفلوس يا بيه؟» تزداد حِدةً نبرةُ أبي: «كلام؟! هو أنا أقول كلامًا من دماغي؟ عليَّ أنا لؤم الفلاحين دا؟!»

يقول حين يُنهي المكالمة: «قُم بنا نسافر نشوف الموضوع على حقيقته»، يضع الجريدة المطوية بغيظ على الكومودينو. تدخل أمي بالقهوة، تلاحظ تغيُّظه، تسألني: «ما له؟!»، أومئ إليها أن اصبِري. أقول: «يا بابا هدِّي خُلقك»، لكن بلا فائدة، لو قفل دماغه على شيء ينتهي الأمر.

تُكذِّب أمي الخبر من بابه: «هو فيه بترول في الأقاليم دي؟!»، أقول إن الجرائد «الرسمية» نشرت الخبر، فينزل الصمت عليها كأن وحيًا أذاع الخبر. تحدج أبي بحنق؛ لا تُصدِّق كوني مُسافرًا الآن سماعًا لكلامه، إنه اليوم الذي وعدتها بقضائه معها قبل السفر. تُساوم أبي: «سافر بكرة مع السواق.». لا فائدة؛ له دماغ أبيه محمد المصمتة، ودماغ جدته نعمات الخالية من المسام.

أراسل زوجتي بالتطورات؛ أطمئنها: «سنتعشَّى سويًّا كما اتفقنا»، ما صدَّقت أنها عادت للبيت.. أحمل مخطوطة روايتي تحسُّبًا للظروف؛ قد يُلهمني المشوار بفصل جديد.

نركب سيارة أبي ونتوكل على الله. شُقَّ صوب البلدة طريق جديد صحراوي، وضوعِف رسمُ المرور عدة مرات. ما عادت البلدة بعيدة، ولا عاد الطريق ممتعًا محفوفًا بالخَضار الشاسع وطيور أبي قردان البيضاء المتوهجة. صار متاهةً كُبرى. يصف أبي الطريق بدقة، فيما أُفاجأ أنا عندما يظهر الجسر الترابي، المفضي لمدخل البلدة. أقول لأبي: «كان يستحيل أعرفها»، ثمة صرير معدني حاد، ولافتة زرقاء

معوجَّة عليها لقب العائلة، وبيوت خرسانية تكبس على الطريق المتلوّي لداخل البلدة، كأنها تيوس تتناطح؛ أشعر باختناق وشيك.

نمرُّ بمحاذاة المسجد ذي المئذنة المحطَّمة. ترمقنا عيون شتى، لا تعرفنا ولا نعرفها. يظهر أخيرًا بيت جدي، بيت نعمات، هرِمًا شاحبًا كما عجوز مُقعَد. أُوقِف سيارة أبي خارج تكعيبة العنب، خشية أن تتداعى فوقها. يُهاتف أبي قريبه الموكل في أمر البيع، يظهر سريعًا، يتلفَّت كثيرًا، يُناوِر في الكلام، تشرع العيون تقترب، والآذان تستمع، يُشير أبي لبيته الملاصق لبيت جدي: «لون البيت متغير، مَن دَهَنه؟!»، يُناوِر الرجل، يتجمع الناس، نستدير حول البيت، ثمة غسيل أبيض منشور في البلكونة الخلفية المطلة على برج الحمام، «مَن قاعِد في البيت؟!»، مشدوهًا يزعق أبي، تتبارى الألسُن في الإدلاء بشهادات، تتكشف الحقائق بالتدريج: البيت مؤجَّر، «مؤجر لمَن؟»، يسكنه المهندسون، «مهندسون؟!»، ثمة مهزلة تضحك بسماجة، تكشف عن أسنان مُسوَّسة.

بدأ التنقيب قبل تسعة أشهر، ومنذ بدأ وليس للناس حديث إلا البترول وشركة البترول، صاروا يتداولون أخبار المهندسين؛ يتساءلون: أين سيكون موقع الخدمات الذي يشيرون إليه؟ أفي الأرض المحيطة ببيت جدي، أم تلك المحيطة ببيت مختار؟ أرض جدي واسعة، منبسطة، عليها بيت حديث البناء، خالٍ من السكان، إنها الأنسب بالتأكيد، فيما قال آخرون لمهندسي الشركة إن الأرض «عليها مشاكل»، أصحابها ورثة مُشتَّتون، لن تصلوا معهم لاتفاق؛ خذوا المساحة التي تحتاجونها على الجهة المقابلة، فيصير بإمكاننا أن نؤمِّن لكم خط الأنابيب، وإن كان على البيت فأمره سهل، بإمكانكم أن تحدِّثوا فلانًا في شأن استئجاره؛ إنه المفوَّض في البيع والتأجير.

هكذا استدارت الدفة صوب أرض مختار؛ جُرِّفت قراريط، وارتفع سور، وشُقَّ طريق بمحاذاة أرض جدي، زعموا بأنه داخل حدود أرض مختار؛ انتصبت لافتة تُشير للوضع الجديد، وانحنت مضخة استخراج النفط تشفط الزيت من حقل بعيد؛ صارت بلدة مختار أرض البترول السعيدة، التي يعمل أهلها في خِفارة خط الأنابيب وتأمين المعدّات، بعدما حصَّلوا التعويض كاملًا عن شقِّ الطريق وحفْر الخط وتجريف الأرض.

يُمسك أبي قريبه من طوق جلبابه، يصرخ فيه: «تسرقوني أنا؟!» أحاول الفض بين أبي وقريبه الذي يتلفَّت حوله دون توقُّف، تمتد أذرع كثيرة، تتداخل أصوات،

تضطرب الأرجل في حركة دائبة، يرتفع الغبار كما سحابة ساخنة، تحول أجساد بيني وبين أبي، جلابيب لها رائحة التراب، «خلاص يا بابا.. نتكلم بالعقل»، يرتفع اللغط، أفقد صوت أبي، بل أفقد ذاتي في سحابة الغبار، تضرب الصرخة الخشنة الهواء كالسَّوط: «تبطح نفسك؟!»..

يعبق الجو بالرطوبة، بالعرق، بالدماء الطازجة، يتوه صوتي في غمرة اليأس.

أقول: «هناك.. خارج مكتبك».

يقف إلى الشباك موليًا ظهره نحوي، فيظهر الشعر المجعَّد من كل أطواق فانلته الداخلية. يرمق الفراغ المغموس في الظلام، يرى إنْ كان بإمكانه أن يقع ببصره على القرد. يقول كأنما يُحدِّث نفسه: «هناك خارج المكتب». يتمطَّى. يُردف قائلًا: «أنتم الروائيون يطلع منكم العجب».

أرمق مخطوطة روايتي فوق طاولة المكتب، أتحسَّر على ضياع الوقت، والأفكار. أي أفكار يشغلني أمرها

الآن؟! المستقبل نفسه يضيع، مستقبلي ومستقبل أسرتي.

«أنا المفروض مسافر أستراليا بكرة، تفتكر تروح عليَّ التذكرة؟»، أسأل المأمور، فيبقى شاردًا وراء القرد دقيقة أخرى، ثم يستدير قائلًا: «أس.. تو.. راليا! بعيد جدًّا».

يعاود الصمت ليضغط عليَّ، أسأله: «تفتكر ألحق الطائرة؟»، يُشعل سيجارة ويجيب: «سِبها على الله. بكرة تُعرَض على النيابة، واحتمال تخرج بكفالة». بعد برهة يقول: «عليكَ أن تعذرني، الوالد سِنُّه كبيرة وخفت عليه يتبهدل. اضطررت آخذك مكانه».

أُطأطئ رأسي. يدهمني الألم، لا يمكنني الجلوس هكذا على المقعد المكسور لساعات أخرى. سينكسر ظهري. أتذكَّر الفصل ٠٣.. حبشي عسكري الدرك يُمسك بجدي محمد، يُجلسه على مقعد كهذا يقطم الظهر. أبتسم بامتنان لهذه المواساة من جدي محمد.

يصِرُّ ثانيةً كرسيُّ الضابط، يسألني: «تفتكر أين ظهر الكنز؟»، أُثبِّت رأسي لكيلا يسقط من الخَدَر، أقول: «ألم تسمع صرير الحفار في حقل البترول؟»، فيقول: «ماذا تقصد؟»، أوضِّح: «سمعته اليوم حين اقتربت من مدخل البلدة، ذكَّرني كثيرًا بخَنخَنة القرود».

يضحك الضابط باستخفاف، لكن بريق عينيه يفضح سرحانه في تأمُّل الفكرة. يقول بعد برهة: «إذًا هذا هو الكنز! لا عجب أنك تؤلف روايات، خيالك شاطح لبعيد».

ثم يردف بعد برهة: «هو صاحب أرض مختار اسمه محمد؟»، فأقول: «العائلة نصفها محمَّدات»، فيضحك من جديد.

أستسمحه قائلًا: «ممكن أستعيد مخطوطتي؟»، يقول: «أخلص قراءتها وأرجّعها لك»، أعاود المحاولة: «محتاج أتسلى بالكتابة»، فيقول فيما يبلُّ سبَّابته ويُقلِّب الصفحات: «وأنا بالقراءة».

يختنق الرجاء. أرنو نحو الشباك المفتوح؛ أرجوه في نسمة واحدة تُلطِّف الجو، نسمة في نعومة ليليت.. ليتني حملت خطابات الجد نشأت بدلًا من مخطوطتي. ليتني ما كتبت هذه الرواية من الأساس، ولا بحثت عن الكنز. ماذا أراد جدنا الشيخ بهذه الرؤيا؟ أكان يمنحهم حُلمًا يسعون خلفه؟ معنًى ما لوجودهم؟ هل ثمة قيمة لحياتنا القصيرة دون حُلم.. دون أمل؟

ليتني أموت الآن مثلما ماتوا، فأتفادى ما يتربَّص بي من مفاجآت. القدر يختبئ خلف الزوايا، خلف جذوع الشجر، تحت صخور الأرض وبين شواشي النخل.. أتوق لحضن ناشف من نعمات، لعرائس محشوة من صُنع زبيدة، أسمِّي كلًّا منها باسم شخص سأفتقده، أتوق لبُشرى القهوة في قعر فنجان الست أم فاضل، لرؤيا الجدة روحية الواجبة النفاذ، أتوق لصوت فاضل، لجرامافون صدقي، لكوب الشاي الحِبر المغلِي من يد مختار.

أشعر باطمئنان نسبي، إذ يلتفُّ حولي الجدود. أرغب في سؤالهم: مَن منكم وجد الكنز؟ لكنْ لا طاقة لديَّ.. يُخاطبني جدنا الشيخ: «لا تثريب عليكَ الآن»، فتومئ زوجاته الثلاث موافقات، ويفتحن بين يديَّ صناديق المحمل الموشَّاة بالأرابيسك، يُصوِّب الشيخ كامل مقولة أبيه: «لا تثريب عليكم اليوم»، فيزغده صدقي بيك، ويضحك الشيخ فاضل بلا صوت، فيما تميل نعمات وتُقبِّل كف أبيها المشعرة، ويظل مختار مقعيًّا يحسو الشاي الحبر، ويراقب الجميع.

يطل نشأت من خارج الشباك، طويلًا لافت الوسامة، يحمل إليَّ التليفون الحربي، يرفع صوته قائلًا: «يمكنكَ استخدامه لطمأنة البيت»، يضعه على جلسة الشباك ويغيب بعيدًا، يقوم جدي حسين ويضع التليفون فوق المكتب، ويشرع في فكِّ أجزائه، يقترب حسن لمعاونته، وتظهر في ذيله زبيدة حاملةً عكازَيه، تضعهما بجواره، وتقترب مني مادَّةً يدها بمنديل حريري مُعطَّر، ألتقطه بصعوبة وأمسح عرقي الغزير، فيما أشارف الإغماء.

ألمح لأول مرة صورة جدي محمد خلف مكتب الضابط، ممسكًا بالسيف، مُرتديًا حُلَّة الملك فاروق الموشَّاة بالنياشين، أتبسَّم له مُحيِّيًا، فيومئ بهزة رأس طفيفة. أريد أن أخبر أبي عن هذه الإيماءة الودود، أبحث بعينيَّ عن جدي حسين، أتُراه فرغ من إصلاح التليفون؟ أجد التليفون وقد عاد لحافة الشباك، لا أستطيع النهوض لإجراء المكالمة، يسقط رأسي إلى الوراء، وفي إطار الشباك يظهر شاهر مع زبيدة، مُلوَّنَين ومُبهجَين، كأنما خرجا توًّا من أفيش فيلم قديم.